

رواية

عبدالوافي الفضمي

جارتني المراهقة



ناشرون وموزعون

جارتى المراهقة

عبد الوافي الفضي

جارتى المراهقة



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2020/ 11 / 4937)

813.03

الفضمي ، عبد الوافي
جارتى المراهقة / عبد الوافي الفضمي - عمان: دار زهدى للنشر
والتوزيع، 2020

الواصفات: الرواية العربية // الادب العربى // العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى
مصنّفه ولا يعبر هذا المصنّف عن رأي دائرة المكتبة
الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN978 -9923 -17 -192 --9



الطبعة الأولى: 2023

جميع حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة للناشر
دار زهدى للنشر والتوزيع - المملكة الأردنية الهاشمية
عمان / الجامعة الأردنية

خلوي: 00962795555279 - 00962788771930

E- mail: dar.zuhdiforpublishing@hotmail.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الإهداء

إلى زوجتي خوليتا.. النادرة التي لا تتكرر مرتين!

رواية جارتى المراهقة هي رواية من وحي خيال
المؤلف، وأحداثها لا تمُتُّ للواقع بِصِلَة، فأَيُّ تشابه
بين الشخصيات الموجودة فيها وبين الحقيقة هو من
قبيل الصدفة الأدبية لا غير، كما إنَّ الأفكار،
والمعتقدات، والميول الواردة فيها، لا تعبر بالضرورة
عن رأي المؤلف.

-عبد الوافي الفَضِي - پَلايا دي كَابُونِيْگرو،

شمال المملكة المغربية-صيف 2022.

الجزء الأول¹: التَّخَلِّي الأعظم

تتمثل فائدة التَّخَلِّي الأعظم في أَنَّهُ يمنحنا كبرياء الفضيلة التي
ستجعلنا منذ تلك اللحظة قادرين على الإقبال بسهولة على العديد
من التَّخَلِّيات الصغيرة.

نيتشه، إنسانيٌّ مُفَرِّطٌ في إنسانيَّته/ج.ا

1 - سبق أن نشرنا المسوِّدة الأولى للجزء الأول من رواية جارتى المراهقة، لأول مرة في يناير/كانون الثاني من العام 2021 ضمن منشورات دار زهدي للنشر والتوزيع عمّان-الأردن، وذلك للحفاظ عليها من التلف والضياع، ريثما نفرغ من كتابة الجزء الثاني والأخير. وقد أثرنا الآن دمج الجزأين معا في كتاب واحد نعتبره الصيغة النهائية للرواية، بعد أن أدخلنا بعض التعديلات على الجزء الأول. ومن هنا أدعو القراء الأعزاء، ممّن قرؤوا مسوِّدة الجزء الأول في الطبعة الأولى ويرغبون الآن في قراءة الجزء الثاني، أن يعيدوا قراءته في هذه الطبعة بعد تبييضه وتعديله، مع خالص محبتي وتقديري للجميع. عن المؤلّف.

مضت سبعة عشر يوماً على استئجاري هذه الغرفة الصغيرة هنا في حي مولاي رشيد بكازابلانكا، إنها غرفة كئيبه في منزل يتكون من طابقين، أقطن أنا في الطابق الأرضي بينما يستوطن رب البيت رفقة أسرته الصغيرة الطابق الأخير. يبدو المنزل هادئاً كالأدغال؛ إذ ليس يُعَمَّرُهُ سوى زوجين وطفلهما الصغير، إلى جانب ابنتهما المراهقة التي تظل رابضة على عتبة المنزل وهي تعبت بهاتفها، مسبلة شعرها المُغْدُودِن على كتفيها العاريين، مما يتكشّف عن حزام حمالة صدرها الحمراء. وبنطالها الأسود والضيق الذي ذكّرني منذ أول نظرة بكاتي ليدىكي؛ السَّبَّاحَة الأمريكية الشهيرة! أظن أن اسمها لمياء، هكذا نادتها أمها ذات ظهيرة:- لمياء! لمياء! أين أنتِ؟ -نعم ماما! أنا في الأسفل. -اصعدي.. الغذاء جاهز.. اصعدي أيتها القحبة! لقد سقط فنجان القهوة من يديّ حينئذٍ وتكسر، لم أسمع أمّاً من قبل نادت ابنتها بهذه الصفة الشنيعة!

نظمت أوقاتي كعادتي، فصرت عند النهار أقصد الجامعة التي ليس يفصلني عنها سوى شارع واحد، وبعدها أذهب إلى أحد نوادي كمال الأجسام في شارع إدريس الحارثي. وفي المساء حيث تتوقف خَرَشَفَة الأقدام على الإسفلت؛ أربض أنا وحيدا في غرفتي كالوَشَقِ الإيبيري، أستمع للأغاني الإسبانية بصوت أليخاندرًا كوزمان، المغنية المفضلة لدي، وأخذ قلبي المُشْرِف على النفاذ وأكتب بعد منتصف الليل عمّا

تبقى من فُتَاتِ الحُب المتطاير على قلبى الموجه، بينما المطر كالسياط يجلد زجاج نافذتى بقوة. وحينما يتوقف المطر عن الهطول؛ أنسى الكلمات، فأفتح نافذتى لألمح الندى يتراقص تحت أضواء أعمدة الإنارة كما ترقص الفراشة على أزهار الأُحْوَان. وذات صباح بينما أنا أقرأ كتاب المواقف والمخاطبات للنِّقْرِى، قرع شخص ما باب غرفتى، فتحتُ الباب بعد تردد طويل فوجدت الفتاة المراهقة فى أحسن حُلَّة، وفى يديها فنجان قهوة. نظرتُ إليَّ متبسِّمة وقالت: تفضل خذ، إنها قهوة لذيذة معطرة بنكهة الشكولاتة، تفضل لقد أعددتها لك بنفسى وسأعدُّها لك كل صباح. أهدتني القهوة ثم توقلت الدرج مسرعة.

فى اليوم الموالى حيث كنت عائداً من مكتبة الكلية، ألفتها كعادتها جالسة أمام المنزل، قرأتُ عليها السلام فردَّته مع ابتسامة مرتسمة على شفيتها، وإذ أنا أقحم المفتاح فى القفل لأفتح غرفتى القريبة من عتبة المنزل، سألتنى وكفها على خذها الأيمن قائلة: ألسنت تدرس فى كلية ابن مَسِيك؟ -بلى، أدرس هناك. أجبتها. -أىُّ شعبة؟-شعبة الفلسفة بسلك الماستر. -الفلسفة؟ سألتُ مستغربة ثم أردفتُ: - أف، أنا لا أحب الفلسفة، أنا أفضل مادة اللغة الإسبانية. فأجبتها متبسما:- الفلسفة يا عزيزتى فلسفاتٌ؛ منها فلسفة العلوم، وفلسفة الفن، والفلسفة السياسية وهلمَّ جراً، وكلها صَيَاقِلُ العقول الصدئة

ومصايح القلوب، الفلسفة مسار شيق جدا، لهذا ستحبينها فيما بعد، بل ستصبحين فيلسوفة بارعة. اتكأت على الجدران وقالت متنهدةً: -أتمنى ذلك يا أنيرُ. فسألته مندهشا: -من أخبرك باسمي؟ فأجابت: -لقد قرأت نسخة من بطاقة هويتك التي أعطيتها لأبي الخميس الماضي. ثم استطردت: أنت من نواحي مدينة ورزازات أليس كذلك؟ -بلى أنا من ثمَّ. -جميل، الورزازيون أناس طيبون ووسماء الطلعة، بشرتهم تشبه الشكولاتة الإيطالية. -أنت تحبين الشكولاتة قريي بذلك؟ قلت مبتسما. فتتخنحت ثم أجابت في خجل مصطنع: -أنا أموت في الشكولاتة. لكن بم عرفت ذلك يا أنير؟ سكتت لهِنَّهةً ثم أجبتها قائلا: -لقد عرفت ذلك من خلال القهوة المعطرة بنكهة الشكولاتة التي أهديتها البارحة. فغرت فاهها وقالت: -واو مذهل! وفي الوقت الذي كنا نحن نتجاذب فيه أطراف الحديث رن هاتفى فجأة، فلم أجب على المكالمة، سألتني عن المتصل فأجبتها أنه مجرد صديق لا غير، فودعتها ودخلت غرفتي لأجيب المتصل على انفراد وغلقت الباب. لقد تحدثت في الهاتف ما يربو عن ساعة، وبعدها خامرتني فكرة أن أتسكع في إحدى الساحات المجاورة بدل أن أتقلب في فراشي كدودة القز، فارتديت معطفي البني وخرجت، فإذا بي أجد لمياء المراهقة لم تبرح مكانها بعد. شزرتني بنظرة حاقدة وهي تقضم أظفارها الطويلة بأسنانها، ثم سألتني: -مَنْ تكون مولا؟ أجبتها دون

تَلَجُّجٍ أَنَّهُا حَبِيبَتِى الصَّحْرَاوِيَّة الَّتِى تَدْرُس هِى الأُخْرَى الفِلسفَة فِى جامِعَة مِراكش، فَبَدَت سَاهِيَّة تَفَكَّر فِى شِىء مَّا، أَحْمَرَّ وَجْهَهَا وَلَمْ تَتَفَوَّه بِأَيِّ كَلِمَة فَانصَرَفْتُ وَتَرَكْتَهَا. وَلَمَّا طَوَى النِّهَار كَافورَه وَنَشَرَ اللَّيْل عَبيْرَه عَدْتُ إِلى المَنْزِل؛ فَالَاحَ لِي شِىء مَّا مَكْتُوب عَلى بابِ غَرفَتِى، إِنَّه مَكْتُوب بِأَحْمَر الشِّفَاه، اقْتَرَبْتُ مِنَ البابِ بِهَدْوٍ، خَلَعْتُ نِظَارَتِى وَقَرَأْتُ العِبارة التَّالِيَةَ: أَيُّهَا القَدْر، قُلْ لِمُولا أَنْ حَبِيبَهَا يَوْمًا مَّا سَيَغْدُو زَوْجِي أَنَا!

-2-

السَّابِعَة وَالنِّصْف صَباحًا، القَذى يَمَلأ عَينِى، وَضَباب الصَّباح يَزْحَف فَوْق هَذِهِ الأَحْياء المِهْتَرئة، الحَاجَة المُلِحَّة لِقَهوَة تَذهَب عَنى مَلامِح التَّعب؛ دَفَعْتَنى إِلى أَنْ أَدلِف نَحو مَقهى سوزانا الواقِعة بِشارِع إِدريس الحارثى، بَينما قَطرات الندى تَسجَم عَلى رَأْسِى. أَخَذت مَقعَدِى فِى المَقهى وَطَلَبت مِنَ النادِلَة أَنْ تَحضِر لى قَهوَة إِيسِپَرِيسو الداكنة وَسِجارة مارلبورو، كَنت أُمُجُّ سِجارتِى بَعنْف كَأنى فِى ساحة القِقال، وَمِن أَمام المَقهى يَمُر عَشِرات التَّلَامِيز وَالتَّلَمِيزات ذَوِى الوِزرات البَيضاء، يَظهِرون لى مِثَل طَيور البَجع، وَالكُهَّل عَلى الرِصِيف يَحْثون الخَطى فِى طَريقَهم إِلى العَمَل، وَأخرون يَنتَظرون قَدوم الباص. فِى حَين أَنَا جاثم فِى المَقهى، أَنظر إِليْهم وَأبكى، حَين

أشعر بنوع من احتقار الذات؛ أشعر بأني عالية على هذا المجتمع،
أبكي وألعق دموعي قطرة، قطرة!
فى الوقت الذى أرقب فيه أنا الغادى والرائح؛ مرت لمياء على الرصيف
المتاخم للمقهى؛ مرتدية لباسها المنزلى الضيق، تحمل فى يسراها
كيساً شفافاً من الزيتون الأسود وفى يمانها أربع خبزات من نوع
الباريزيان، فنكستُ رأسى كيلا تلمحني. أف، لقد أبصرتني، قلت فى
نفسى. ها هي ذى قادمة باتجاهى والريح تهز شعرها المتمدل أثناء
مشيتها. -صباح الخير! كيف حالك؟- أنا فى أفضل حال، تفضلى
بالجلوس، هل تشربين شيئاً؟ -لا، شكرًا أنا مستعجلة فى أمرى، ينبغى
علىّ إيصال الخبز إلى المنزل، فماما تنتظرني. -ماذا عنك؟ تبدين
نشيطه. -أنا جد مسرورة وسيكون يومى هذا جميلاً لأنى التقيتك هذا
الصباح. -شكرًا لك. -وهل أنت سعيد أيضاً؟ -السُّعداء لا يتنفسون
السُّعداء. تعتعتُ بصوت غير مسموع. رنّ هاتفها فجأة فقوستُ
حاجبها وقالت مرتجفة: -ماما اتصل، لقد تأخرتُ، علىّ الذهاب
حالا، رجاءً لا تغادر مكانك سأحتسى كوب شاي فقط وأعود، أنا فى
حاجة إلى سماع صوتك.

تبدد ضباب الصباح فرمح ضياء الشمس، إنه يوم خريفى جميل،
عادت لمياء بعد نصف ساعة بهندام فاتن هذه المرة، فطلبتُ من
النادلة أن تقدم لها عصير برتقال على الرغم من أنى لا أملك فى تلك

اللحظة سوى تسعة دراهم. شكرتني على ذلك وبعدها سألتني إذا ما كنتُ قد تأقلمتُ مع أجواء كازابلانكا وضوضائها أم ليس بعد، وعن حالى مع دراسة الماجستير. أخبرتها أنى لا أهتم لأجواء المدينة ولا تطيب لى دراسة خلال هذه الفترة، بقدر ما أنا حزين ومنهك بالتفكير فى القوت الیومی، وأن أبى الذى كان من المفترض أن یرسل إلى المال قد قضى نحبَه بعدما وارتة الثلوج رفقة ماشيته القليلة فى جبال الأطلس الكبير، أثناء هبوب عاصفة ثلجية فى شتاء 2014. لم أتوقف عن سرد قصتى المملة، بدوتُ ثرثارا مثل عجوز فى التسعين. حتى قاطعتنى صارخة فى وجهى والدموع المدرارة ترفرف فى عينيها. -يا إلهى! قصتك تقطع نياط القلب، لِمَ لَمْ تخبرنى بوضعيتك من قبل؟ لماذا..؟ لماذا..؟ ثم استطردت قائلة: - سأخبر بابا بحالك كيلا يستلم منك أجرة الكراء هذا الشهر لأنك فى حاجة إلى من يعطيك لا إلى من يأخذ منك. لكن، لا تقل له من فضلك، إننا اجتمعنا فى المقهى، وحاول أن تبقى هذه الليلة فى غرفتك، حينها سأنزل إليك وجبة العشاء. -لا داعى لذلك عزيزتى، إذا علم والدك بالأمر فلا ريب سنقع فى مزلقة لا تُحمد عقباها. قلتُ لها وأنا أكفكف دموعها. -لا تخشَ شيئاً، لقد سافر بابا قبل أربعة أيام إلى مدينة الداخلة. -وما وظيفة والدك؟ أجابتنى بعد أن رشفت جرعة من العصير:- بابا سائق شاحنة دولية من نوع السُكَّانِيَا، قال لى إنه سيسافر إلى مدينة الداخلة بغية تعبئة شحنة

من سمك الأخطبوط، وبعدها سيتوجه نحو إسبانيا. -ممتاز! هذا يعني أنه سيتأخر. -تماماً. -أظنك تتناولين الأخطبوط دوماً؟ قلتُ لها وأنا متحمس لوجبة العشاء التي وعدتني بها. -لا، إطلاقاً. -وأنت؟ هل سبق لك أن تذوقت طعمه؟ -لا، أنا أكتفي بالسردين. -هذا رائع، إذا سأعدُّ لك الليلة طاجينا بسمك السردين على شكل كرات مع شرائح البطاطا!

توسطت الشمس كبد السماء، وعزمتُ على مغادرة المقهى. أشرتُ بيدي إلى النادلة موهماً بأني سأدفع لها ثمن المشروبين، إلا أنه ومن حسن طالعي منعتني لمياء من دفع الثمن ودفعتُ للنادلة ورقة نقدية من فئة مائة درهم، أدتُ الحساب المطلوب ومنحتني الباقي بعد إلحاح شديد. غادرنا المقهى حوالي الساعة الحادية عشرة وبعدها قصد كل منا مقصده. لم تقع عيناى على عينيها بعد ذلك حتى إذا عسعس الليل فوق سماء كازابلانكا رأيتها تلعب النرد رفقة صديقاتها تحت عمود الإنارة، فلم ترني هذه المرة.

دخلتُ غرفتي عند الساعة العاشرة مساءً، فقررت أن أغوص في معاني أحد الكتب الصوفية لأبي البناء السرقسطي، ريثما تأتيني بالعشاء الموعود. وبعد مضي ساعة تقريبا قرعتُ الباب ففتحتُ لها متحمساً، كانت تتزيى عباءة سوداء، كما كان أحمر الشفاه القاني كثيفا على شفتيها، وحاجبها كأنه نون خُطَّ بالقلم، أما عطرها الفواح

فقد أنساني ما تحمله من طبق شهى. -مساء النور أنير، أعتذر كثيراً عن التأخر أظنك تتضور جوعاً، فأنا أيضاً لم أتعش بعد، لأنى عزمتُ الليلة أن أشاركك الطعام، هل تأذن لي بالدخول؟ -شكراً على كل ما تفعليه من أجلى لمياء، لكن لن أسمح لك بالدخول، آسف جداً. -خشيت أن ترانا ماما أليس كذلك؟ -بلى، هو كذلك. -لن تستيقظ ماما ولو انفجر بركان /تُنا عند أذنيها، اطمئن عزيزي، الأقراص المنومة لن تسمح لماما بالتزعزع من مكانها هذه الليلة. -الأقراص المنومة؟ سألتها مشدوها. -نعم الأقراص المنومة، ما الغريب فى ذلك؟ -لا، لا شيء.. فقط أقصد... قاطعتُ كلامي بوضع سبابتها على شفتي ثم قالت:- ششش هذا ليس يعنك. بعدها دخلتُ غرفتي دون إذن منى. -أين سأضع هذا الطاجين؟ عجيب ألا تملك حتى منضدة لتأكل عليها، هل نحن متصوفة حتى نأكل على الأرض؟ قالت بامتعاض. ثم أردفت:- سامحني إن صرختُ فى وجهك غدا سأمنحك منضدتي.

تناولنا العشاء بنهم، ولما أنهينا أخذتُ أنظف المكان من فضلات الطعام، فى حين فتحت لمياء علبة أقراص وتناولتُ حبة منها. -إي لمياء ما الأمر؟ أتؤمك رأسك؟ لم تليق هذه الأقراص؟ سألتها فى حيرة. -كما خمنت، إنها دواء لصداع الرأس. -أنت تكذبين هذه منشطات وليست دواء.

أثارت تصرفاتها حنقى مما جعلنى أفتح الباب منتظرا انصرافها حيث كان الوقت مناسباً جداً للنوم، بيد أنها لم تبالي أبداً وصارت تنكش أسنانها بظفرها، وتنظر فى قطعة مرآة كانت لصيقة بزجاج نافذتى بواسطة اللصاق المائى الممتاز. -أرجوك لمياء، انصرفى، لا نريد فضيحة فى هذا الليل، بالإضافة إلى أن هذه الغرفة صغيرة جداً، ألا ترينها لا تتسع لأكثر من شخص واحد؟ اعتصمتُ بالصمت لحظة ثم التفتتُ نحوى بهدوء وقالت: -الدنيا بأسرها ما تسعُ متباغضين وإن شبراً فى شبرٍ ليسع متحابين، كما كتبت على جدار مدرستنا. سكتتُ لبرهة ثم قلتُ لها: -لمياء! إنها الثانية والنصف بعد منتصف الليل ألم يداعب النوم أجفانك؟ عندها دنت منى موصدة الباب وهمست فى أذنى قائلة: -لن ننام هذه الليلة عزيزى، أسمع؟ لن ننام، أريد هذه الليلة أن أرى فحولتك وهى ترقص على السرير. فدفنتُ رأسها فى صدرى وراحت تتحسس بيسراها قضيبى، حاولتُ دفعها إلا أنها أخذت يدي ووضعتها على صدرها الناشز. انتصب أيرى فى غضون ثوانٍ، الأمر الذى دفع بي إلى الاستسلام لرغبتها الجامحة، إذ أخذتُ أُقبِلَ عنقها بهدوء وأتحسس جسدها الناعم، كانت بارزة الأرداف والأطراف والأعطاف، حسنة القد والخد والنهد. بدا أنيها يتجاوز جدران الغرفة، فأرديتها ممددة على سريرى المهلهل وساعدتها فى خلع عباءتها فابتسمت قائلة: -لن يساعذك أحد فى هذا البلد السعيد، إلا

مَنْ رَغِبَ فِي نَكْحِكَ! كَدتْ أَشْرَقَ مِنْ الضَّحْكِ عَلَى كَلَامِهَا، وَصَرْتُ
أُقْبِلُهَا مِنْ قُلَّةِ رَأْسِهَا حَتَّى أَخْمَصَ قَدَمَيْهَا وَأَلْعَقَ حَلْمَتَيْهَا الْوَرْدِيَتَيْنِ
وَجَمِيعَ تَضَارِيسِ بَدَنِهَا. وَبَيْنَ نَهْدَيْهَا تَفَاجَأْتُ بِحَرْفِ "إِي" اللَّاتِيْنِي
مَوْشُومًا بِالْأَخْضَرِ، سَأَلْتُهَا عَنْ لَغْزِ هَذَا الْحَرْفِ فَأَجَابَتْنِي أَنْ مَعْنَاهُ
إِلْيَاسُ؛ وَهُوَ حَبِيبُهَا الْأَوَّلُ الْمَلْتَحِي الَّذِي كَانَ طَالِبًا فِي شَعْبَةِ الدِّرَاسَاتِ
الإِسْلَامِيَّةِ بِجَامِعَةِ الْحَسَنِ الثَّانِي عَلَى حَدِّ قَوْلِهَا. أَخْبَرْتَنِي أَنَّهَا كَانَتْ
تَحِبُّهُ إِلَى حَدِّ الْجَنُونِ مِمَّا دَفَعَ بِهَا إِلَى أَنْ تَمْنَحَهُ شَرْفَهَا حِفَازًا عَلَى
حُبِّهِ، غَيْرَ إِنَّهُ سَافَرَ إِلَى الْعِرَاقِ فِي السَّنَةِ الْفَارِطَةِ وَتَخَلَّى عَنْهَا. -أَتَعْلَمُ
يَا أَنْيْرَ، لَمْ يَسْبِقْ لِي أَنْ بَلَغْتُ مَعَهُ رِعْشَتِي الْجَنْسِيَّةَ، كَانَ أَنَانِيَا خِلَالَ
عِلَاقَاتِنَا الْحَمِيمَةِ، لَكِنْ إِذَا بَلَغْتُ نَشْوَتِي مَعَكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَأَعِدْكَ
أَنِّي سَوْفَ أَزِينُ شَرْفَتِي بِصُورِكَ، لَقَدْ تَخَلَّى عَنِّي ذَاكَ الْإِرْهَابِي فِي
الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتُ أَنَا أَحْبَبُهُ بِصَدَقٍ. -لَا عَلَيْكَ عَزِيزَتِي فَالَّذِينَ يَحْبُونَ
بِصَدَقٍ لَا يَجِدُونَ حَبَابًا يَلِيقُ بِهِمْ، لَيْسَ لَأَنْهَمُ يَسِيؤُونَ الْإِخْتِيَارَ، وَإِنَّمَا
الْعَالَمُ كَذَلِكَ هُوَ؛ يَبْصُقُ فِي وَجْهِ الصَّادِقِينَ! قَلْتُ وَأَنَا أَدَاعِبُ شَعْرَهَا
الْحَرِيرِي وَأُقْبِلُهَا، إِذِ الْقَبْلَةَ بَرِيدَ الْجَنْسِ، فِيمَا صَدْرِي لَصِيقٍ
بِصَدْرِهَا. كَانَ ثَدْيَاهَا كَخَشْفَتِي ظَبِيَّةٍ تَوَآمِينَ يَرْعِيَانِ بَيْنَ السُّوسَنِ،
كَمَا جَاءَ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، كُنَّا مَجْرَدَيْنِ كَلِيَا مِنْ مَلَابِسِنَا، وَقَدْ دَاعَبْتَهَا
وَلَعَقْتُ بَيْنَ سَاقَيْهَا حَتَّى كَادَتْ أَنْ يَغْمَى عَلَيْهَا. وَخِلَالَ الْإِيْلَاجِ بَدَتْ
تَصْرُخُ وَتَتَأَوَّهُ بِصَوْتِ عَالٍ وَهِيَ تَقُولُ: -أَسْرَعُ.. أَسْرَعُ، رَجَاءً بِشَكْلِ

أقوى.. أقوى. لقد بلغت أنفاسها عنان السماء فأعطيتها قميصي
لتعض عليه بأسنانها كيما تُسمع شهقاتها، لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً. لم
أجد حلاً سوى رفع صوت المذياع، إذ كانت الإذاعة الوطنية تبتُّ
أغنية "لوردة الجزائرية" التي كانت تقول في مطلعها: «في يومٍ و
ليلة... يومٌ و ليلة.. أخذنا حلاوة الحب.. كلُّو في يوم و ليلة..». ضاعفت
الأغنية الرومانسية من فحولتي فصرتُ لا أتوقف عند كل قذفٍ،
وأصفع مؤخرتها البضة بعنفٍ، فيما كانت هي منفرجة الساقين
وجسدها مستعر يقول هل من مزيد. أخيراً بلغت الفتاة المراهقة
نشوتها المتأخرة لتستلقي على بطنها مسترخية، فيما استمررتُ أنا في
مداعبتها وشفثاي مطبقتان فوق شفثيها، كنت أتلذذ ريقها الشبيه
بلعاب النحل وتمر النخل، كان مثل الرحيق المختوم. لقد أمسينا
فريستين للسهاد في ليلة استسلمنا فيها لشهوة هوجاء أبحرنا عبرها
إلى عوالم من العواطف واللذة غير العابرة، وأقول غير عابرة لأنه قد
يكون للذة الجنس أحياناً وقع كبير على شخصية الشريكين بل قد
يفضي إلى نشوب حب بينهما وهذا ما لا أتمناه. وفي اللحظة التي كنت
أتحسس جسدها سمعتُ أحداً ما يقرع باب غرفتي، مددتُ يدي نحو
المذياع وخفضتُ صوته. ساد صمت مطبق، ثم سألتها بهمس إذا ما
كانت هي الأخرى سمعتُ قرع الباب، فأومأت لي برأسها بعدما وثبتُ
من السرير واضعة يدها اليمنى على قلبها وأصابع يدها اليسرى

ترتجف كالأغصان. قُرع الباب للمرة الثانية وهذه المرة بشكل قوي فاكفهرَّ وجهي وعاد جسدي يتصبب عرقاً، إنها الساعة الرابعة، تُرى مَنْ يقرع باب غرفتي في أقاصي الليل، وماذا يبغى هذا الذي يقرع الباب؟! قُرع الباب للمرة الثالثة. يا للمصيبة، يا للورطة الكبرى!

-3-

زلزل الخوف جسدي، لم أستطع ضبط نفسي، فبدوتُ مرتبكا شيئاً ما، أما لمياء ذات الفؤاد الرقيق، فقد امتقع وجهها وارتفع وجيب قلبها لقاء الطرُق المتتالي على الباب. -لا تخافي ولا تحزني عزيزتي، أنا سأتدبر الأمر مهما كان الثمن. قلت لها بصوت منخفض. فأومأت برأسها في دعر شديد وهي تحاول ستر نهديها وفرجها بيديها معاً، بينما أخذتُ أنا أبحث عن حلول ناجعة تجعلني أنسل عن ربقة هذه الفضيحة انسلال الشعرة عن العجين، وتحول دون كشف هذا الفعل المحظور، مما جعلني أجنح نحو السرير فأرفعه بيديّ عن الأرض حتى تتمكن لمياء من الاختباء تحته. كانت تحدق إلي وترتعد، لم أعد قادراً على النظر إلى مُحيّاها الذي غداً أصفراً من شدة الوجَل. غمزتها بعيني كي تنفذ الأمر، ففعلتُ مترددةً فقبّلتُ جبينها، ومن ثمّ كسوتُ السرير بالدثار حتى يختفي أثرها. ربما بدأ الأمر المخيف في التحسن نسبياً، حينئذ ارتديتُ بنطالي الذي كان ملقياً

على البلاط بشكل سريع، وبعدها وضعتُ يديَّ على مقبض الباب بإحكام، وفتحتُ أخيراً.

كان والد لمياء ذو الشارب الكثيف ماثلاً أمامي كنصب تذكاري، يرتدي معطفا قطنيا أسود يتعدى ركبتيه ويحمل على ظهره حقيبة رمادية اللون. -أطرش أنت؟ منذ ربع ساعة وأنا أقرع الباب. ما هذه الفوضى العارمة التي تحدثها؟ أصداء الموسيقى بلغت عنان السماء، لقد سمعتها من الخارج. -أعتذر سيدي، لقد كنتُ متعبا فغشيني النوم فجأة وغططتُ في سباتٍ عميق، وبالتالي لم أنتبه للمذياع الذي نسيته مشتغلا. قلتُ له وأنا ناكس رأسي إلى الأرض وواضع ذراعي على ضلع الباب. -لا تفعل هذا في المرة القادمة، لا أريد أن أُحرج مع الجيران بسبب تصرفاتك الصبانية. قال بلسان ناثر للعباب. -حسنا سيدي، أعدك أنني لن أفعل. -جيد، إذا اتفقنا. -طابت ليلتك سيدي. مدد عنقه وهو يجيل ناظرَيْه في الغرفة، ثم غادر. ها هو ذا يعود مجدداً، تبا له! قلت في فكري. -مهلا لقد نسيتُ، أنتَ لم تتمم لي أجرة الكراء لهذا الشهر الذي مَارَبَ أن يودعنا. -أعلم ذلك سيدي، سأدفع لك المبلغ الاثنىن المقبل. -في كل مرة تقول لي الاثنىن.. الاثنىن.. ليس لدي وقت لسماع ترهاتك، أنا مدين لك بمائتي وخمسين درهما، غدا أحضر لي المبلغ. كونيوا! أنتم الطلبة كلكم سواسية كأسنان الحمار، آديوس. قال بالإسبانية وانصرف. فأغلقتُ الباب وتنفستُ

الصعداء. كانت لمياء غبّ ذلك تحشج من تحت السرير الملتحف بالذئار الخشن، تبدو في حاجة إلى استنشاق بعض الهواء. لم أتردد في رفع السرير عنها ومساعدتها على النهوض، لقد ذبلت المسكينة كوردة يكسوها الغبار، وأضحت شاحبة الوجه. نظرتُ إليّ بعينها العسليتين ثم أغمضتهما وعانقتني بحرارة فأسعفتها بكوب ماء شربته على عَجَلٍ ثم تنهدتُ، وكأنها بُعثت من جديد. -لمياء ماذا ستفعلين الآن؟ -سأمكث في غرفتك بضع دقائق ريثما يخلد بابا إلى النوم، حينها سأرتدي ملابسني وأصعد إلى غرفتي. هكذا تلعثمتُ وهي تلهث مثل طفلة خائفة. ارتدتُ عباؤها بعد هنيهة وأخذتُ صندلها في يديها. -أنا سأغادر الآن، رجاء حافظ على الطاجين سأعود لأخذه في الغد، وسامحني لأنني لن أستطيع تزويدك بمنضدتي بعد عودة بابا، وداعا شكولاتتي. تأهبتُ للانصراف، إلا أنني أمسكتها من ذراعها وحدجتها بنظرة صارمة. -أنتِ كذّابة، قلتِ لي إن والدك سيسافر إلى مدينة الداخلة وبعدها سيتجه صوب إسبانيا، كيف يُعقل أن يقطع آلاف الكيلومترات ويعود خلال خمسة أيام؟ -أتركني، أنا لم أكذب عليك، أنا أيضاً لم أفهم شيئاً. كانت تنهد.

نزعْتُ يدي عنها ثم غادرتُ صاعدةً الدرج بأقدام حافية، كانت تتسلل في الظلام كقطة رشيقة حاملة صندلها بيديها في وقت تشير فيه الساعة إلى الخامسة فجراً. آثرتُ ألا أنام نظراً إلى كوني مُطالب

بالحضور إلى حصة الفلسفة السياسية المزمع بدؤها في الساعة الثامنة صباحاً، لذا أطفأتُ المصباح واستلقيتُ على ظهري فوق السرير مشبكا أصابعي على صدري ومُبقيا على عينيّ مفتوحتين. كان الهم اللاعج ينخر جسدي الهزيل، والدموع تنساب على وجنتيّ لما تذكرتُ حبيبتي مُولا التي أحبها حتى النخاع والتي تبادلني نفس الشعور، ندمتُ كثيرا على خطيئتي الشنعاء، لأنني خنت حبيبتي الصحراوية التي طالما كانت وفية لي، والتي وعدتها بالزواج بعدما أتخرج من الجامعة وأصبح أستاذاً للفلسفة، على الرغم من أن الزواج هو مقبرة الحب حيث يُدفن هذا الأخير ويتلاشى، شعرتُ بحاجة إلى صفع وجهي في كل لحظة، وفكرتُ بأن أشنق نفسي بين الأشجار المتشابكة، أه كم تمنيتُ ألا أكون فعلتُ! سامحيني يا حبيبتي لقد خنتكِ دون أن أشعر بذلك، أنا آسف يا مُولا!

مضى الليل أدراج الذكريات، وأشرق شمس جديدة علّها ترمم جسدي المتداعي، ارتديتُ بذلتي وحملت دفتري ذو الحجم الكبير، ثم شرعتُ أتهادى في مشيتي نحو الكلية، وعلى وقعِ خطواتي البطيئة سمعتُ هسهسةً منخفضةً من مكان قريب، استدرتُ بعفوية فألمحتُ لمياء تراقبني من النافذة وتبتسم. ألقْتُ إليّ بكييسٍ بداخله شيء ما وأغلقت النافذة، فالتقطته من على الأرض وتفحصته متأبطاً دفتري تحت ذراعي. كان في الكيس رغيفا بائناً محشواً بالجبن

وقصاصة ورقية مطوية كُتب عليها باللغة الإسبانية تي كييرو. لقد كنتُ أتضور جوعاً حينئذ، وأيُّ ذلك أنى هدرتُ كل طاقتى فى الليلة الماضية، فتناولتُ قطعة الرغيف على عجل، أما القصاصة الورقية فمزقتها ونثرتها فى الهواء، كانت العصافير تنظر إلى فتات الوريقة وهى تنضو عن أجنحتها قطرات الندى فوق الأغصان.

تمكنتُ من الحضور إلى الدرس الفلسفى الذى بدأ فى تمام الساعة الثامنة، حيث استهل الأستاذ الأصلع محاضرتة بالحديث عن مفهوم العدالة السياسية، لاشك أنه اعتاص على فهم ما يقول، إذ كنتُ شبه ناعس، والجملة الوحيدة التى استطعت فهمها هى قوله: «علينا أن نحمد الله مادام وطننا ينعم بكل صنوف العدالة». وشرع يفصل فى قوله هذا، فيما أنا ساهٍ أتخيل نفسى فوق قمة جبلٍ والأستاذ الأصلع تحت سفحه، هو يتحدثُ عن العدالة وأنا أتبول على رأسه!

انتهت المحاضرة فى تمام العاشرة، وبعدها قررت رفقة صديقى ياسين المتعصب للمبادئ الفلسفية أن نتسكع داخل رحاب الكلية، لم نجد بدا من التوغل بين صفوف حلقة طلابية كانت تديرها إحدى الجماعات الإسلامية، كانوا طلبة ذوى لحي طويلة، وجلابيب بيضاء قصيرة بعضها ملطخ بمرق المطاعم الجامعية، بدأ أحدهم يصرخ قائلاً: «ينبغى علينا كمؤمنين أن نحارب كل زندقة وبندقة، يجب أن نناضل من أجل إلغاء تدريس الفلسفة داخل جامعاتنا؛ لأنها تفسد

طباع الطلاب وترسخ مبادئ الإلحاد». وما إن انتهى من مداخلته حتى صار الطلاب المشكِّلون للحلقة يصرخون بحماس شديد: «الله أكبر.. الله أكبر!» حتى انفلتت من مؤخرة أحدهم ضربة مدوية عكرت صفو الهواء، وذلك من كثرة ما كان يصرخ. خَلَّفَ رأي المتدخل شنأناً كبيراً في فؤادي، مما دفعني إلى التدخل قائلاً: «علينا إخواني الفضلاء أن نناضل من أجل نبذ العنف والتعصب الطائفي الذي حول عالمنا إلى أنهار من دم، أما الفلسفة فكانت دوماً داعية إلى السلم والتسامح تجاه الآخر المختلف منذ غابر الأزمان!» فجدبني صديقي ياسين من حاق الحلقيّة بشدة، وهمس في أذني: -كيف تجرؤ أيها المجنون، ألا تخش أن يضربوا عنقك؟ خاطب الناس بقدر عقولهم يا صديقي. حملتُ فيه شزراً، ثم قلتُ له: إذا عاملت كل البشر بقدر عقولهم فحتماً ستجوب الشوارع وأنت توزع مَصَّاصَات!

على الأرجح لم يعجبه قولي، بيد إنني لم أعبأ لحاله فتركته وانصرفت، فأنا لست بحاجة إلى صديق، أنا محتاج إلى أن أسمع شكوى ذاتي، أنا في حاجة إلى الجلوس على شاطئ البحر علّ هذا الأخير يللمم جراحي العميقة. لطالما كانت العزلة دَيْدَنِي ومثار فخر لي، إذ كنت غالباً ما أتجافى البشر وضجيجهم، ولهذا داهمتني فكرة أن أستقل الباص وأمضي صوب الشاطئ بحثاً عن قسط من الراحة النفسية، لا جرم أن جيبى صَفِرٌ عن المال، لكن هذا لا يمنع من رغبتى الجامحة في

سماع هدير الأمواج، لذا فأنا سأستقل الباص، ومجانا كما يفعل
مشاغبو كازابلانكا.

وقفتُ على الرصيف الأيمن منتظرا قدوم الباص رقم 11 الذي يتجه
نحو شاطئ "لالّة مريم"، لم أنتظر كثيراً، لقد قدِمَ خلال بضع دقائق
فقط، فصعدتُ من الباب الخلفي وتمسكتُ بمسند الركاب بيدي،
والدفتر في يدي الأخرى. كنت أتمنى ألا يصعد مراقبو التذاكر إلى
الباص الذي سار سريعاً باتجاه البحر، ماراً بقاع المدينة عبر الشوارع
الطويلة، كان كل شيء يسير إلى الوراء؛ الشجيرات، الناس،
السيارات، المدارس، الوطن بأكمله كان يسير إلى الوراء. وأخيراً لاحت
لي زرقة البحر من بعيد، كانت نفسي تهفو إلى ذلك المنظر الجميل،
توقف الباص في إحدى المحطات لينزل ركاباً ويصعد آخرون، وبدوتُ
حينها أشهق خوفاً من صعود مراقبي التذاكر، آه، خودير! كم حظّي
عائر، لقد صعد ثلاثة رجال ذوو بذلة زرقاء يتبدى من مظهرهم أنهم
رجال أشداء، فسرعان ما فتنوا يتفحصون تذاكر الركاب حتى وصلوا
إليّ. -التذكرة من فضلك. -حسناً.. حسناً، لقد وضعتها داخل الدفتر.
قلتُ لهم وأنا أتظاهر بأنني أنتشل التذكرة من الدفتر. -لا بأس، خذ
وقتك، سننتظر إلى أن تجدها. فقلت متلعثماً: -متأكد أنني وضعتها
هنا، ربما سقطت من الدفتر. -لا يمكنها أن تسقط يا أخي فهي ليست
إبرة، أنت تكذب، أنت لم تؤدي ثمن التذكرة وستعرض نفسك

للعقوبات الجارى بها العمل. قال أحدهم صارخا في وجهي. -في الحقيقة أنا لم أؤدي ثمن التذكرة لأنى مجرد طالب في الجامعة ولا أملك نقودا. -أحجيتك أقصصها على وزارة التعليم العالى، كان من الأفضل لك أن تلج مركز التكوين المهني بدل أن تضيع وقتك في الجامعة، فهذه الأخيرة ليست امتيازا، ألم تر كيف تقدمت أوروبا وأميركا الشمالية وجنوب شرق آسيا بفضل التكوين المهني، وصرنا نحن متخلفين لأننا نولي للجامعات والبحث الأكاديمي العقيم أهمية كبيرة. على أي حال فهذا الأمر لا يناط بنا، ما يهمنا هو أنك لن تنزل من هذا الباص حتى تسدد مبلغ خمسة وثلاثين درهما كغرامة على فعلتك هذه سعادة الطالب الفقير. وهنا تدخلت امرأة خمسينية تبدو من هيئتها أنها امرأة حدثية، كان شعرها المعقوص تتخلله خصلات الشيب. صرخت في وجوههم بعربية تغلب عليها الفرنسية: «أتركوه وشأنه، لقد صارحكم أنه مجرد طالب ولا يحمل نقودا، أنتم لا تملكون ذرة رحمة في قلوبكم» ثم استطردت: «للأسف بني، لا أحمل معي حافظة النقود، أكتفي بالدفع عن طريق البطاقة الائتمانية، لو كان ما بجيبى كافيا لسددتُ عنك الغرامة، آسفة بُني.» قالت لي بصوت تملؤه الحسرة. ثم أردفت صارخة: «أف لكم، أف لوطنكم، أف لحكومتمكم القدرة!» فتظاهروا غير عابئين بكلامها ووصلنا أخيرا إلى محطة النهاية في الشارع المحاذي للشاطئ.

-ستذهب معنا. قال الرجل. -إلى أين؟ -سترى قريباً. فركبتُ رفقتهم نفس الباص أثناء عودته فنزلنا في "درب غلّف" في شارع بئر أنززان. توجهنا مشياً على الأقدام إلى مكان يبدو على هيئة محطة واسعة لتركين الباصات، كانت فعلاً حافلات "نقل المدينة" مصطفة هناك ومغبرة جداً. نظروا إليّ بسخرية وأمروني بغسل أربع حافلات متسخة في الصف الأخير كعقوبة لي، فأحضرتُ السلم ووسطول الماء المرفوقة بمناديل الپوثشامو وأخذتُ أغسلهن حتى مَجَلتُ يدي من كثرة العمل. بينما كان جبيني يَرشَحُ عرقاً، بدا أحدهم ينظر إليّ بنظرات تملؤها الشفقة، كان هو الآخر مثلي يرتدي نظارة طبية، أما الآخران فاستمرا في الاستهزاء بي. انتهيتُ من غسل الحافلات عند الخامسة والنصف عصراً ثم أذنوا لي بالانصراف فانصرفت، غير أن صاحب النظارة لاحقني عند البوابة ماسكاً ذراعى، فأخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة خمسين درهماً، قائلاً: «خذ، اعتبرها أجره عمك، وسامحنا من فضلك، خذ يا صديقي واصبر صبراً جميلاً، فيوما ما ستضحك لما تتذكر الماضي وأنت تحزمُ ربطة العنق». أخذتها من يده وسرتُ نحو إحدى المقشيدات لأسُدَّ رمقى، لم أتناول شيئاً طيلة النهار عدا تلك الفطيرة البائتة التي ألقتهالي لمياء من علِّ، فاحتسيت عصير برتقال بارد مع بعض البسكويت، كما أنني اقتنيت بطاقة تعبئة وخمس سجائر واينستون وولاعة كذلك، ثم احتفظتُ بخمس دراهم

فقط كئمن لتذكرة الباص عند العودة. وسرت بعد ذلك أمشي بخطى وثيدة ناحية شاطئ "عين الذياب"، حيث استغرقتُ ما يقارب ساعة من الوقت. انتابني شعور بأنني لم أستغرق سوى بضع دقائق فقط إذ كنتُ أتحدث مع أمي في الهاتف أثناء المشي، أخبرتها أنني بخير، وعمما قريب سأغدو روائيا مشهورا وسأعوض لها كل جهد بذلته من أجلي، لأنها تستأهل ذلك، وهي ألطف بي مني بنفسي. أخبرتها أيضا أن تعني بإخوتي الصغار الذين لم يتجاوز كبيرهم عشر سنوات؛ ميرا الجميلة، وأخي إكسيل، وخاصة الصغرى تيليليا؛ أختي المفضلة، وبعدها اتصلت بحبيبتي مولا وتبادلنا أسى عبارات الحب. بلغتُ الشاطئ عند اقتراب المغيب، مستكينا إلى صخرة تلمطمها أمواج البحر، ثم أشعلتُ سيجارة وأخذتُ أحرق التبغ بشفتي اليابستين، فيما بريق السماء الأحمر يتلألأ في الأفق، والشمس الغاربة بين أحضان الموج تؤدي مراسم الوداع! كنتُ وحيداً، أصارع أفكارى بعدما اعتورتني الهموم، وتضيقني الأحزان. تأملتُ ذلك المنظر السامي إلى أن اكتسحتُ عتمة الليل البر والبحر، ورغم ذلك واصلت التأمل لساعات طوال، ثم توجهت صوب موقف الباص القريب من ماكدونالد، وصرتُ أنتظر، انتظرتُ طويلا، فلم يأتِ أي باص. اضطررت أن أسألُ أحد حراس الثيلات هناك عن سر ذلك، فأخبرني أن الباص في كازابلانكا يتوقف عن العمل في التاسعة ليلا،

وقد كانت الساعة وقتئذ تشير إلى العاشرة والرابع، فتحسرتُ كثيراً على حياتى التى غدتُ مسرحاً للأحزان. سألتُهُ عن الحل إذاً، فأجاب أنه لا خيار لى سوى أن أستقل تكسى صغير، فابتعدتُ عنه قليلاً ووقفتُ ألوح بيدي إلى سيارات الأجرة العابرة من هناك إلى أن وقفتُ إحداهن. -مرحباً سيدي، حى مولاي رشيد من فضلك. قلت له. - أجل، اصعد. -كم السعر أولاً؟ -لا يمكنى الجزم، ذاك شغل العداد. -أريد معرفة الثمن بشكل تقريبي لو سمحت. -خمسة وسبعون درهما على الأقل لأنها مسافة بعيدة، زد على ذلك أن التسعيرة ترتفع فى الليل. -ماذا؟ سألته باندهاش وأغلقتُ باب التاكسى بعنف لأعود أدراجى إلى الشاطئ من جديد، فرقدتُ على رمال البحر متوسداً دفترى تحت جناح الظلام، وعينيّ مشربنتين نحو النجوم وهى تلمع من بعيد، بعضها ينطفئ كعود الثقاب، وبعضها الآخر يسقط كأوراق الخريف، وقد كان سرطان البحر فى تلك اللحظة يرنو إلى قدميّ والريح تعوي.

على مدار الساعات القليلة غطتُ فى نوم عميق ناسياً مآسى النهار، حتى استيقظتُ على إثر ركلات الأقدام، فنهضت على عجل، لم أتمكن من رؤية الراكل فى الظلام، لكن من خلال صوتهما أدركتُ أنهما شخصان؛ رجل وفتاة. -عذراً.. عذراً لم أقصد لطمك، كنتُ أخبط خبط عشواء بسبب الظلام المدلهم. قال الرجل. -لا بأس

سيدي. -لماذا ترقد هنا؟ أليس لديك مأوى؟ قالت الفتاة مسلطة ضوء هاتفها ناحية وجهي. -لا، لا.. أنا أملك منزلاً، المشكلة هي أنني تأخرت عن موعد الباص. تلعثمتُ. -ولمّ لمّ تستقل التاكسي؟ -لا أملك نقوداً سيديتي. -آه.. أسفة أخي. قالت لي وهي تفتح حافظة نقودها فيما الرجل يسلط الضوء بهاتفه. -تفضل خذ إنها مائة درهم، لا تنم هنا، هذا المكان خطير جداً وليس يلجأ إليه غير السكارى أمثالنا. قالت ضاحكة وثرغها يצוע برائحة الخمر. شكرت لهما فضلها ومضيت أجري صوب الشارع حاملاً دفترى في يدي، كان هناك في الجهة اليمنى تكسي أحمر متوقفاً عند الرصيف، وبابه الأمامي من جهة مقعد السائق مشرع على مصراعيه، كان السائق في الخارج يتبول على العجلة الخلفية، قلتُ له قبل أن أعبر الشارع. -إي.. حي مولاي رشيد من فضلك. -نعم هيّا بنا. فصعدت إلى المقعد الأمامي، إذ كان التاكسي دافئاً والساعة تشير إلى الثانية وأربعين دقيقة بعد منتصف الليل، سرنا والمحيط الأطلسي على يسارنا، حيث تصفع الأمواج بعضها البعض، كان غطاء الليل يلفُّ البحر والسماء تمطر نجومًا، والمصابيح الخلفية الحمراء للسيارات تدحرج ضوءها الشاحب أمامنا، بينما نحن نتدبر كلمات كوكب الشرق "أم كلثوم" إلى أن وصلنا الحومة في أقاصي الليل. -كم سيدي؟ -تسعة وسبعون درهماً. -تفضل. -شكراً لك.

قصدت مباشرة المنزل وأنا طافح بالسرور، أدخلت يدي إلى جيبى كي أنتشل المفتاح. أوه؟ أين المفتاح؟ قلت في نفسي وأنا أفتش جيوبى. آه تذكرت الآن، لقد وضعته هو والقلم على عجلة الحافلة حينما كنت أغسلها. اندحرت نفسي وخارت قواي، فجلستُ القرفصاء على مَسَاحَةِ الأحذية في عتبة المنزل، وشرعتُ أجهش بالبكاء مثلما تفعل السبايا المُغتصبات، لم يسبق لي يوماً أن رأيتُ دَمَعَ الرجال، لكن همومي أنا فاقتُ رؤوس الجبال!

-4-

انتظرتُ طويلاً أمام عتبة المنزل والحزن يلوي جسدي، حاولتُ في كل مرة أن ألامس الباب ببراجم يدي وأطرق عليه، فلم أستطع فعل ذلك، فكرتُ بأن طرقت الباب في هذا الوقت المتأخر من الليل سيسفر لا محالة عن عواقب وخيمة؛ إذ سي طرح عليّ رب المنزل أسئلة محرّجة من قبيل؛ "لِمَ أيقظتنا في هذا الوقت؟" "أين مفتاحك الخاص؟" "ماذا كنتَ تفعل في آخر الليل؟" والأخطر من ذلك، "أين أجرة الكراء؟". وستكون النتيجة مؤلمة جداً بحيث يمكن أن تصيبني بالجنون في بعض جوانبها، وهي أن أعود يوماً ما من الكلية فأجد مؤلفات الفلاسفة والمفكرين المغاربة القدامى -الذين أُجلُّهم أكثر من غيرهم من مفكري العالم بأسره، حيث أضع كتبهم في مكانة خاصة جداً؛ كابن جليل، وأبو مسلمة المجريطي، وابن زيدون، وابن حزم،

وابن باجة، وابن السيد، وابن طفيل، وابن رشد، وكذا ابن عربي-
ودفاتري، وأسمالي المهلهلة، ودثاري ذو الصوف الخشن، علاوة عن
صور حبيبتى البدينة، أجدها كلها مبعثرة في الزقاق. آه إن كل شاة
برجلها تُناط!

مضت ربح الليل الباردة تنفح وجهي، وأسنانى تصطك من شدة
الزمهرير، ساورتنى فكرة أن أتكوم فوق مسّاحة الأحذية كقط صغير
وأخلد إلى النوم ريثما ينصدع الصباح، إلا أن صياح سكران مترنح
كان يستند إلى شجرة النارج القريبة منى، حال دون ذلك. كانت
تتكلمه سعادة عارمة قد خلفها فوز الرجاء العالمى على فريق إنيمبًا
النيجيري، يمر ثملاً بمحاذاة، يرفع ذراعيه عالياً ويغنى: "...في هاد
لبلاذ عايشين في غمّامة، طالبين السّلامة، انصُرنا يا مولانا... صرّفوا
علينا حشيش في كُتامة خلاؤنا كاليتامى، نَحَسبُو في القيامة...
مواهب ضيَعْتوها، بالدُّوخة هرّسْتوها، كيف بُغَيْتُو تشوفوها؟ ...
فلوس لبلاذ كاغ كليتوها للبرّانى عطيتوها، جينيراسيون قمَعْتوها...
أوووو أوووو وقتلْتونا پاسيون...!" إلى أن انحدرت النجوم وشالت
أرجلها فانصدع الفجر، وحلقت العصافير في أعالي السماء.

على مدار الأيام التالية وتحديدًا مساء السبت، اتصل بي صديق
كازاوي يدعى رشيد؛ شخص أربعيني محب للفكر الفلسفي، كنتُ قد
تعرفت عليه قبل أسبوع في الترام. -أهلا أنير كيف حالك؟- في أفضل

حال صديقى، وأنت؟ ماذا عنك؟ وكيف حال الأسرة الكريمة؟ -الكل على ما يرام عزيزى. وأضاف: «آه، ماذا عن الماستر؟ أعجبتك محاضرات الدكتور "ب"؟» -بالطبع، محاضراته عميقة جداً لقد أخبرني زملائي الموظفون أن دروسه ممتعة وتصيهم بخشوع فلسفى، لكننى للأسف لا أسمع محاضراته ولو حاولت ذلك، ما أسمع هو صرير أحشائي الجائعة. -ماذا؟ أتذهب إلى الجامعة من دون أن تظفر؟ -تماماً صديقى لأننى لا أملك نقوداً. -الأزوال لم يصرفوا لك المنحة بعد؟ -ليس بعد للأسف، منذ شهرين وأنا أنتظر صرفها كمن ينتظر حلول الملكوت الإلهى على الأرض. -لا عليك عزيزى سأحاول دعمك بالمال من حين إلى آخر ولا تنس أنك محظوظ كونك صرت تلميذاً من تلامذة الدكتور "ب" وبفضله ستتعرف على الفلسفة السياسية عند الأمريكين، خاصة عند "روبرت كابلان"، "دايفيد إيستلوند" و"جايسون برينان"، تابع رشيد: -أنا لازلت أتردد على الكلية للاستماع إلى محاضراته الجميلة، وأسجل أفكاره بجهاز الطابليت! -ممتاز صديقى، أعلم أنك من عشاق الفلسفة. قلت له ضاحكاً. -إي، أنير وددت أن أستشيرك إذا ما كنت شاغراً يوم الأحد لتعمل رفقتى فى مدينة بوزنيقة، إنها غير بعيدة عن كازابلانكا. -أكيد، أكيد. قلت له متحمساً، وأضفت: أنا فى مسيس الحاجة إلى العمل يوم الأحد، ليس لى ما أفعله سيد رشيد. -ممتاز، إذاً حاول أن تقوم

غدا في الصباح الباكر حوالي الساعة السادسة، اذهب مباشرة واستقل الباص رقم 97 ثم أخبر السائق أنك ستهبط عند جامع السنّة في درب السلطان حيث سأنتظرك هناك لنتجه بعدها إلى مدينة بوزنيقة. -حسنا اتفقنا، سأكون في الموعد. -وداعا. قال لي ثم أغلق الخط.

لم أسأله لا عن طبيعة العمل ولا عن الأجرة، وقمتُ صبيحة الأحد فاستقلتُ الباص متتبعا توجيهاته التي كان يملها عليّ ذاك الصباح عبر الهاتف، كان يسألني في كل لحظة أين وصلت، فأضطر إلى أن أسأل أحد الراكبين عن اسم المكان. -إي، من فضلك أين وصلنا؟ -مقاطعة سباتة، شارع الشجر. ردّ الرجل. -من فضلك أين وصلنا؟ سألت إحداهن بعد قليل. -عين الشق، كلية الآداب. أجابت.

لم يكن الطريق مزدحما كالمعتاد مما جعل الباص يمضي سريعا، أما أنا فطفقتُ أعبث بهاتفي حتى لكزني رجل مسن بعكازه: «الآن يمكنك النزول في هذا الموقف، ذلك هو جامع السنّة حيث أشير بعُكّازي». توقف الباص مهسّسا فنزلتُ واستكنتُ إلى صومعة الجامع واتصلتُ برشيد. -أهلا رشيد، لقد وصلتُ، أنا واقف بجوار الجامع، أين أنت؟ -لقد رأيتك، أنظر إلى يمينك، أنا في سيارة ضاسيا لوغان السوداء، المركونة أمام المقشدة. -سيارة ضاسيا السوداء، ضاسيا لوغان... ضاسيا... ضاسيا... لا، لم أبصرها بعد، هناك العديد من السيارات

المركونة على الرصيف، قلتُ وأنا ألتفت ذات اليمين وذات الشمال. -
 السيارة السوداء التي ترمح بغمازات الانعطاف، رأيتهما. قال لي
 صارخا. -لا، لم أر شيئا. -أظن أن نظاراتك فقدت صلاحيتها. قال وهو
 يضحك ثم أضاف: السيارة التي تُزَمَّرُ الآن هل سمعتها؟ -أجل، الآن
 رأيتُ السيارة. اتجهتُ أتهادى في مشيتي صوب السيارة المركونة وسط
 صف طويل من السيارات الخفيفة. ترددت أحيانا في المشي إليها،
 بينما هي لازالت تومض بغمازاتها البرتقالية، ثم قصدتُ بعد ذلك باب
 السائق: يا إلهي أين السائق؟ قلت في حيرة. نوافذ السيارة مفتوحة،
 لكن أين السائق؟ المقشدة قبالي لكنها مغلقة، ترى ما الأمر؟ اقشعر
 بدني حُيال هذا المنظر الرهيب واستفحل الغضب في نفسي، سيارات
 مركونة تكسوها قطرات الندى، شارع مقفر من البشر، جوقاتم،
 غيوم داكنة، ريح هوجاء تعزف سيمفونيات الرعب، وهزيم الرعد
 يجلجل في السماء، حاولتُ الاتصال به، إلا أن هاتفه لم يعد مشغلا،
 ألا يمكن أن يكون رشيد الكازاوي عميلا لدى مافيات الاختطاف
 ورشيد مجرد اسم مستعار؟ تساءلتُ في قرارة نفسي. من حقي أن
 أشك، أنا أشك إذاً أنا موجود! لا، لا أخاله يكون كذلك، رشيد ليس
 مجرما ولا ينبغي له، قس على ذلك أني لست طفلا صغيراً حتى يتم
 خطفي، قلت في فكري.

رن هاتفى بُعيد لحظات، كان هو من يتصل. -أهلا، أظنك واقف أمام السيارة. -بالطبع، كما أمرتني، أنا جاثم أمام السيارة، هل أنا مخطئ؟ قلتُ بلهجة يملؤها الغضب. -آسف صديقي، آسف، أنا على مقربة منك، فقط أحسستُ أن النوم لم يغادر أجفاني بعدُ فذهبتُ إلى المقهى لارتشاف قهوة ثقيلة، حاولُ أن تعبر الشارع ثم استدر يمينا، اسم المقهى هو بريمافيرا، تعال لتحتسي معي فنجان قهوة قبل أن نتوجه إلى العمل. -حسنا أنا قادم في الحال، إي نسيت، ماذا عن نوافذ السيارة؟ إنها مشرعة على مصراعها. سألته في دهشة. -مفتوحة؟ سحقا! لقد أغفلت عن ذلك، إذاً من الأفضل ألا تأتي، رجاء تسمّر أمام السيارة لا ترفع عينيك عنها، أنا قادم في الحال، ذلك الشارع مليء باللصوص، كراخو! أتى مهرولاً بعد هنيئة فعانقني عناقا حارا وكأنه لم يرني منذ عام الفيل. -أستعد للعمل سيد أنير؟ قال مبتسما. -أكيد مستعد. -أعتذر لأن العمل سيكون شاقا شيئاً ما، لكن الجو الممطر سيثير إعجابك أثناء مزاولتك له. -لا بأس لقد اعتدتُ على ذلك، عفوا لم تخبرني عن الأجر سيد رشيد، أردفتُ بنبرة متأنية. -مائة درهم، هل توافق على ذلك؟ أومأت بالقبول. -إذاً اصعد، فقد تأخرنا.

تأهبتُ للصعود إلى السيارة والجلوس في مقعدها الأمامي فصدني رشيد عن فعل ذلك. -أنير مهلا، أليس يعجبك تقلب الأمواج العاتية

يا فيلسوفنا؟ سألني في ابتسامة عريضة. -بلى يعجبني ذلك. -إذاً لن نسير عبر الطريق السريع الباعث على النعاس، وسنختار السفر عبر الطريق الساحلية. -سيكون ذلك ممتعاً في جو مطير كهذا. -تماماً، إذاً أنصحك أن تصعد إلى المقعد الخلفي الأيسر حتى تستمتع أكثر برؤية البحر في لونه النادر؛ اللون الرمادي، لأننا سنسير والبحر على شمالنا. فعلتُ كما طلب مني وسرنا متوغلين بين أحياء كازابلانكا، حتى تخلصنا أخيراً من تلك الطرق الملتوية والأحياء المتداخلة، وانحرفنا يمينا ناحية الطريق الساحلية. التفتُّ ورائي وعيناى ترمقان كازابلانكا بنظرات تملؤها الحسرة، كانت تبدو لي من زجاجة السيارة الخلفية وكأنها ترجع إلى الوراء وتبتعد رويدا رويدا، تبدو مثل أم واقفة ترفع يدها لتوديع ابنها المسافر، كانت صومعة مسجد الحسن الثاني العالية تبتعد هي الأخرى والضباب الكثيف يتلولب حولها، أطلتُ التحديق في ذلك المنظر المؤلم حتى بدت كازابلانكا تختفي شيئاً فشيئاً كأنها تسيخُ في الأرض.

أخذت السحائب المَوَّارة ترشح بزخات مطر خفيف راسمة لوحة من الرذاذ المتساقط فوق زجاج السيارة الذي أضحي معتما، حتى توارت المدينة الكبيرة عن الأنظار، فطرفتُ أجفان عيني والتفتتُ بهدوء إلى الأمام. -أنير ما بك؟ أراك صامتاً لم تنبس بكلمة، هل الجو المطير لا يروق لك؟ قال رشيد ناظراً إليّ من المرآة العاكسة. -لا بالعكس، إنى

أحبه. -هل سبق أن زرت مرة مدينة بوزنيقة؟ -لا، لم تسنح لي الفرصة لزيارتها للأسف. -هي مدينة صغيرة وجميلة تفصلها عن كازابلانكا مدينة المحمدية، هل زرتها هي الأخرى؟ فأجبت بلا. -سنمر عبرها بعد قليل وستراها، لأننا سننزل بها لاقتناء بعض المأكولات وقنينات الماء المعدني. -ماذا، ألا توجد دكاكين في بوزنيقة؟ سألته. -بلى توجد، لكننا لن نعمل في مركز المدينة، وإنما في ربض من أرباضها المجاورة، وتحديدًا في ورشة بناء للشقق الاقتصادية على شفير وادي الشَّرَّاط الخلاب، سيعجبك المنظر الأخاد حيث يخترق الوادي غابات الصنوبر الكثيفة. لكن للأسف ما يعاب على ذلك المكان هو أنه منعزل وبعيد عن الدكاكين الواقعة في الضفة الأخرى للوادي. -سيد رشيد هل تسمح لي أن أسألك عن طبيعة العمل؟ قلتُ وأنا ملتفت أتأمل منظر البحر. -بكل سرور صديقي هذا من حقك، سأوضح لك إذاً طبيعة العمل. ثم استطرد: نحن تابعون للمختبر العمومي للتجارب والدراسات، قسم المتروولوجيا، ووظيفتنا هي تقديم خدمات في ميادين البناء والهندسة المدنية. وتغطي هذه الخدمات جميع مراحل حياة المنشآت؛ من تصميم، دراسة، تجارب، تتبع ومراقبة. والمطلوب منا هذا اليوم عزيزي أنير أن نذهب كما قلتُ أنفاً إلى إحدى ورش البناء التي لم تُكتمل بعد، فنتحقق إذا ما كان يوجد ثمة غشا في البناء أم لا، عن طريق فحصنا لجودة الأسمنت والحصى،

والأسياخ الحديدية والخرسانة، والتأكد كذلك من قوة الدعامات باستعمال جهاز الكاروتاج. -وما المطلوب منى أنا فعله بالضبط؟ سألته فى حيرة. -المطلوب منك عزيزى هو أن تكشف عن حديد التسليح فى الخرسانة بواسطة المطرقة والإزميل، كى أتمكن أنا من قياس قطره بالجهاز الإلكتروني فأرى هل هو مطابق لمقترحات المهندس فى التصميم، كما إنك ستكشف بالفأس عن حد قواعد الساريات، حتى أقيس عمق توغّلها فى الأرض، والتأكد مما إذا كانت ستحمل إضافة طوابق أخرى أم لا عن طريق التقرير الذى سنعه لاحقاً. -ممتاز، هذا عمل تقنى بامتياز.

وصلنا بعد خمسين دقيقة إلى مدينة بوزنيقة النائمة على أنياب المحيط الأطلسى إلى أن تجاوزناها، حيث أضحّت سيارة الضاسيا تقاوم بعجلاتها أكوام الوحل فى طريق غير معبد يؤدي إلى وادي الشّراط. توقفنا عند بوابة الورشة المُصاقبة للوادي والمجاورة لغابة الصنوبر، وطفقنا نقرع البوابة إلى أن فتح لنا حارس الورشة، ودخلنا. كان الحارس يدعى مروان وهو رجل عبوس ذا لحية كثة طويلة، لم يكن أحدا غيره هناك؛ لأن مشروع البناء كان قد توقف عن الأشغال منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر بسبب مشاكل نشبت بين شركاء المشروع. تزيى صديقى التقنى بلوزته وخوذته الصفراء، وارتديت أنا بعض الملابس الممزقة وبدأنا العمل. ظل هو يسيح فى

الورشة مصورا بهاتفه هنا وهناك، فيما كنت أنا في الطابق الأول أسعى جاهداً لخرق الخرسانة الصلبة بالإزميل والمطرقة الثقيلة، حتى امتلأ كفي بالبتور المائية، والمطر في الخارج يواصل هطوله. وقف بجنبي بعد ساعة من العمل ويداه وراء ظهره.- أنير، هل تدخن؟ سألتني بنبرة جادة.- نعم أدخن. أجبتة.- لم أرك تدخن هذا الصباح منذ مجيئنا، إذاً واصل عملك بينما سأذهب أنا بالسيارة لأحضر لك بعض السجائر كي تحسن مزاجك.- شكراً لك رشيد. قلت له في تهيدة مواصلاً ضربات المطرقة.- عفوا، أي سجائر تفضل؟- سجائر واينستون.- وماذا إن لم أجدها؟ سألتني ضاحكاً.- إن لم تجدها أحضر سجائر مارلبورو. المهم ألا تأتيني بسجائر ماركيز المرة.- أنير حاول رجاءً ألا تتبادل أطراف الحديث مع الحارس، إنه رجل متزمت. وأضاف: أنا أعرفه عن قرب.- أيُّ حارس؟- مروان، صاحب اللحية الطويلة.- آه، تذكرته، الذي فتح لنا البوابة.- هل سبق لك أن خُضتَ في نقاشٍ مع رجل متزمت حول موضوع ما؟ سألتني مبتسماً.- نعم كان ذلك قبل عام.- حدثني كيف وقع ذلك قبل أن أنصرف.- كنتُ قد احتسيتُ فنجان قهوة مع رجل متدين شديد الوثوقية، كان المسكين يفسر زمجرات الرياح بأن ميكائيل يضربها بالسوط، وأن هزيم الرعد يحدث نتيجة تصفيقات إسرافيل، وحينما عارضته وفسرتُ له حدوث ذلك بأسباب علمية ملموسة لاذ بالفرار ونسي قبعتة

البيضاء فوق الطاولة. وبعد ذلك أصبح المسكين مجنونا يتجول في شوارع المدينة وهو يلهج: "قُبَّعتي.. قُبَّعتي.. لقد سلبني قُبَّعتي!" انفجر ضاحكا حتى كاد يشرقُ من الضحك وقال: -يا لك من طنّاز. ثم مضى قاصدا سيارته، وواصلتُ العمل. لقد شعرتُ بشيء من الكآبة في هذا المكان العامر بقطع الخشب، المسامير الصدئة، ركام الرمل، والحصى. من حسن طالعي أن الإقامة التي أعمل فيها لازالت في طور البناء ولم تكن محوطة بالجدران الجانبية، كانت توجد فقط سوارى وبلاطات خرسانية تدعمها دعائم خشبية، مما جعلني أطيل النظر ناحية غابة الصنوبر القابعة تحت ستائر المطر، مواصلا طقطقات المطرقة فيما جبيني مرصع بقطرات العرق، وفي الوقت الذي كنتُ أشيح بنظري من هذا المنظر البانورامي نحو الأجمة والوادي، وقعتُ سبابة يدي اليسرى بين المطرقة ورأس الإزميل فصرختُ بأعلى صوتي، لم أستطع تصديق ما رأيت، كان إصبعي داميا ومنفطرا إلى شطرين بشكل طولي؛ إذ تهشم نتيجة الضربة القوية للمطرقة الثقيلة. هممتُ بالركض سريعا في اتجاه البوابة قصد طلب إسعافات أولية من الحارس، وبينما أعدو، كانت تقع قطرات دمي على الأرض فتمتزج بالوحل، كان المطر غزيرا جدا، غزيرا وأسودا كالنفط. -مروان.. مروان! أسعفني، أسعفني. ناديته صارخا. -ما بك؟ ماذا جرى؟ -لقد انفلج إصبعي إلى نصفين. اندحرت قواه لما رأى ما

حل بإصبعى، فبدا يرتجف وأخذ يلف إصبعى بكتانة قصها من جلبابه الأبيض رغبة في توقف النزيف. -لا تحزن يا بنى، كل شيء سيغدو على ما يرام، قدر الله ما شاء فعل، قال لي متأسفا ثم أضاف: آسف جدا لا أملك أدوية لأسعفك، كما أنه يمنع عليّ مغادرة مكاني حتى تحين دورية الحارس الليلي عند المغيب، لكن إصبعك سيتعفن إذا لم تقم بمداواته، لا يسعني إلا أن أعطيك النقود لشراء الدواء إن لم تكن تملك نقودا. -شكراً لك، بحوزتي نقود، لكن هل توجد صيدلية قريبة من هنا؟ -أكيد إنها تبعد من هنا ميلا ونصف الميل تقريبا، توجد في الضفة الأخرى للوادي. -من أين أسلك إليها؟ -توغل في الغابة حتى تجد الوادي، إنه واد مقفر، أُعبره ثم اصعد إلى تلك التلة الخضراء حيث أشير بإصبعى، وراءها ستجد قرية تشبه المدينة بها توجد صيدلية واحدة. -حسنا، أشكرك سيد مروان. -هذا واجب، إي مهلا، خذ هذا المعطف المشمع وارتدي حذائي المطاطي بسرعة، فالمطر قوي، والوادي قد يكون موحلا، إذا أسرع قبل انقصاص السيل الجارف.

انتعلتُ الحذاء المطاطي، ثم فتح لي البوابة وأخذت أخب بذلك الحذاء الثقيل على الوحل، فيتطاير هذا الأخير ملتصقا بشفتي إلى أن تشطفه خيوط المطر، توغلتُ بين أدغال الغابة المتشابكة تائها بين جذوعها كسفينة تبحر في بحر بلا ساحل، حتى بلغت الوادي.

كان ثمة سيل رقيق بنى اللون بدأ يتسع شيئاً فشيئاً ليملاً حفر الوادي العميقة، عبرته بحذر وتجاوزت التلة المحدودة التي كانت تقبع خلفها قرية ذات طرق معبدة ودكاكين، باحثاً عن الصيدلية، بينما ألم إصبعي بدأ يتضاعف. بانث لي القرية شبه خاوية، بعدها ذهبت مباشرة إلى أحد الدكاكين فسألت البقال عن موقع الصيدلية، فأخبرني أنها توجد في نهاية الشارع على يساري، وأنها مقابلة لمدرسة إخوان الصفا الابتدائية، فسرت على مشارف الشارع الطويل أركض تحت المطر وأتألم، إذ لم أبلغ مدرسة إخوان الصفا إلا بشق الأنفس. أحسست بالتعب من كثرة ما جريت، حيث أسندت رأسي على سور المدرسة وصرت ألهمت مغمضاً عيني، فتحتهما بعد برهة فكانت الصيدلية قبالي، يا حسرتاه! لا يمكنني أن أصدق، خاطبت نفسي بعدما رأيت الصيدلية مغلقة، خلعت نظارتي وكانت حقا مغلقة، ارتديتها من جديد وعبرت الشارع دانيا منها وكانت فعلا مغلقة. كان ثمة ورقة بيضاء لصيقة بابها الأخضر، لم أستطع قراءة ما كتب عليها بفعل قطرات المطر المرسومة على نظارتي، ولم يكن لدي وقت لخلع هذه الأخيرة إذ قضي الأمر، كما ليس باستطاعتي أن أتحدى قوانين الطبيعة، فعدت أدراجي من حيث أتيت، ماشياً الهوينى على امتداد الشارع ذو شجيرات النارج اليانعة والمتمايلة بدلال فوق الرصيف المفضض. ناداني صاحب الدكان من بعيد: - أيا

مجنون! هل وجدت الصيدلية؟ حملتُ فيه دون أن أجيبه، ثم طأطأتُ رأسي وأكملتُ المسير مقحما يدي اليمنى في جيبى، فقال للمرة الأخيرة صارخا بينما كنت أسمع صدى صوته من بعيد: «عذرا لقد نسيت، الصيدلية لا تفتح أبوابها أيام الأحد، أنصحك أيها المعطوب أن تبحث عن عجوز تضمد جراحك بالأعشاب اليابسة!» لم أكرث لقوله المسموع من بعيد، ونحوت إلى الوهاد الموحلة حيث يمر وادي الشراط. كان هذا الأخير موحلا جدا وتتوسطه برك مليئة بمياه المطر المختلط بالوحل، حاولتُ أن أتفادها فانزلقتُ واقعا على ظهري داخل كومة من الطين، ورغم ذلك استطعت أن أبقى على يدي اليسرى مرفوعة إلى أعلى خوفا من إيذاء إصبعي الملفوف مرة أخرى.

أضحى المطر يتوقف تارة ويهطل أخرى، بينما أنا مستلقٍ على ظهري الذي ما فتئ هو الآخر يؤلمني. عجزت عن النهوض من تلك الكومة في قلب الوادي، وأغمضت عيني متهدا تحت زخات المطر، وزمجات الريح العاتية، وأحسست بعد ذلك بشيء غريب يتسلل من تحت ظهري ويداعب شحمة أذني، كان باردا جدا، كما أنني سمعت دَرْدَرَةَ السيل تدوي في الوادي، ففتحت عيني بسرعة لأتفقدته فوجدته سيلا مائيا رقيقا تطفو عليه أعواد التبن وبُرّاز الأغنام، فأدركتُ مباشرة أن هذا المجرى الصغير ينبئ بوقوع كارثة. اندلق السيل خلال دقيقة

تقريباً، فقامت من مكانى متأوها ووقفت بعد عناء شديد، ملتفتاً ناحية اليسار، فلاحت لى من بعيد شجرة مقتلعة من جذورها تطفو باتجاهى، أنعمت فيها النظر فبدت لى قادمة نحوى بشكل سريع، فهيمت بالفرار هارباً نحو الضفة ومقاوما ثقل الوحل، لقد ركضتُ بأعلى طاقتى حتى لم يعد يفصلنى عن حافة النجاة سوى مترين تقريباً، إلا إننى انزلقت للمرة الثانية، وهذه المرة كبوت على وجهى وسط بركة موحلة وفقدت نظارتى. حاولت النهوض مجدداً، لكن الوحل كبّل ساقى وثبّط من قدرتى على المقاومة، شعرت بأننى كائن ضعيف فصرت أصرخ: رباه أنقذنى.. رحماك ربى.. رحماك! صرخت بأعلى صوتى لما أبصرت السيل الجارف قريباً منى، وجذع الشجرة الضخم قادماً باتجاه رأسى. كان لا بد لى أن أجد حلاً عن طريق أعمال عقلى، وإلا لن ينقذنى أحد فى هذا الكون، وسيلتهمنى الماء المرتفع كالطود بعد لحظات، لم أجد بداً من أن أستجمع أنفاسى وأغوص فى عمق البركة الموحلة حتى تمر الشجرة المقتلعة من فوق رأسى، كي أتمكن بعد ذلك من التشبث بعروشها، وهذا ما جرى بالفعل، إذ انبطحتُ تحت الشجرة حتى مرت بسلام، ومن ثم تمسكتُ بها مثل طفل يعانق أمه الحنون. ربما استطعت أن أنجو من ربة الغرق، لكن الأسوأ فى ذلك هو أن المياه العنيفة كانت تقودنى بقوة إلى جانب الشجرة نحو البحر الهائج الذى كان قريباً جداً، فاحتضنت جذع

الشجرة وصرت أصرخ قائلاً: «أنا سأموت! أيتها الحياة لن تستطيعين ردعي، أنا مسافر على رمث من خشب، سأمنح نفسي لغطمة الموج، لأنياب القروش الضارية، أنا حر أيتها الحياة ولن تستطيعي سجنى داخل قفصك الآسن، أنا جبان وسأختار الموت، أخبروا أيها الحمقى المتعطشون للحياة صاحب الصيدلية أننا سنلتقي في محكمة السماء، وداعاً!» انتهيت من صراخي وأسندت خدي الأيمن على جذع الشجرة مثل من يحتضر، وكأني في النزع الأخير من الحياة.

شاءت قوانين الطبيعة خلال بضع لحظات أن أمكث حياً بإصبع متعفن، إذ ارتطمت الشجرة الطويلة بأسطوانة قنطرة السكة الحديدية، عالقةً بالشجيرات النابتة هناك. أمسى فؤادي في تلك اللحظة مهجعا للمشاعر المتناقضة؛ حب الحياة، والرغبة في معانقة الموت، ألم الجرح، ولذة النجاة. مكثت متمسكا بأغصان الشجرة العالقة إلى أن توقف المطر، وخبا السيل الجارف خلال بضع ساعات من الزمن، ثم هفوت كالتمساح صوب الضفة حيث كان منسوب المياه آنذاك يتعدى سرتي حتى لمستُ يدي المرتجفة حافة النجاة، فتمددت على الضفة مندحرا. قمتُ واقفاً لكنى سقطتُ، فجثوت على ركبتي متعثرا بين الأشواك، وبرد الشتاء لأزال يهراً جسدي المثلوج، بدأت الشمس الدافئة تظهر خلصة وتختفي بين السحائب العابرة، حتى إذا تبددت الغيوم وغدا الجو مشمساً طفقتُ أكشط

الوحد عن حدائى الأيسر، أما الأيمن فقد جرفته مياه الوادى. وبقدم حافية، وجسد ملطخ بالوحد، سرتُ أترنح بين السهوب المبللة وجذوع الشجر، باحثاً عن ورشة البناء التى صارت بعيدة شيئاً ما. أخيراً لمحتها من بعيد وبدون نظارة، ثم أخذت أرنو صوبها لأقف كرجل من طين أمام البوابة بحداء مطاطى واحد فى يوم شاتٍ ذا مسغبة!

-5-

فتح حارس الورشة البوابة بعدما سمع نداءً غير معهود، وتسمر فى مكانه مندهشاً، فعلى الرغم من أن مروان رجل مقطب الوجه وعبوس، إلا أن الحزن الممزوج بالابتسامة العريضة حفر قنوات من الدموع المنهمرة على خديه، إلى درجة أن سُبْحَتَه التى يحملها بين أنامله سقطت من بين يديه من جراء الصدمة، أما صديقى رشيد فظل ينتظرني على أحر من الجمر بعدما حاول الاتصال بي مرات ومرات، لم يكن يعلم أن هاتفى عطلته مياه الوادى، وأنه صار قطعة من طين. استغرب كثيراً عند رؤيته ما حل بي، لم يسألني عما جرى، وأخذ يساعدي فى خلع معطفي المثلث بالوحد تحت أشعة الشمس الدافئة، فيما أعطاني مروان جلابابا خشنا وصندلاً بلاستيكيًا كان ينتعله عند كل وضوء على حد قوله، وأمرني أن أدلف نحو الشاطئ المجاور فأشطف الوحد عن سائر جسدي. وقد رافقني رشيد فى

طريقي نحو الشاطئ، وأثناء المشي حكيت له ما وقع بالتفصيل، كان يعلم ما حل بسببتي ووعدني بأنه سيتكلف بعلاجي وسيمنحني هاتفًا ذكيًا من الطراز الجيد كان يضعه في سيارته.

تخلصتُ من كل آثار الوحل، وعبء الشتاء، من خلال غطسة منعشة في بحر تصطبخ أمواجه تحت أشعة الشمس المتحررة من حلقة الغيوم، غير مبالٍ لدمامل إصبعي التي لا تزال تنزف، إذ كان مرادي في تلك اللحظة هو إزالة الوحل العالق بإصبعي لئلا يسبب لي ما لا يحمد عقباه، لقد كنتُ أستشعر لذة السباحة، وفي نفس الوقت أعاني من حرقة الألم الشديدة في إصبعي، التي كانت تضاعف ملوحة البحر من حدتها. وبعد الانتهاء من السباحة، شطأتُ نحو صخرة بجانب الشاطئ وأنختُ هناك ساعيا لاستعادة إيقاع قلبي المفجوع، في حين كان رشيد؛ الشاعر بالذنب واقفا ومشبكا ذراعيه على صدره يراقبني من بعيد، حتى لوح لي بيده فارتديت الجلباب الأحرش ثم سرنا حذو النعل بالنعل نتعقب بتؤدة الطريق المفضي إلى الورشة.

شرع رشيد يجمع أدوات العمل غبّ وصولنا إلى ورشة البناء ويقحمها في صندوق الأمتعة، وعقب انتهائه من ذلك، ودّعنا مروان؛ الحارس الودود الذي لا يترجم مظهره مكنونات جوهره. اقتعدنا السيارة مغادرين المكان، فيما مروان يتأهب لإغلاق البوابة، كان يلوح بيده

تحية إلينا ويهتف قائلاً: «-أنير لا تعد لى الجلباب، خذه إنه هدية منى لك، وادرس جيداً، لقد قال لى رشيد إنك متخصص فى الفلسفة، أنا أيضاً أحب الفلسفة وتعجبني أفكار ابن رشد، فى أمان الله وحفظه!» ومضينا تاركينه وحيداً ينتظر رحمة المساء.

أوصلنى رشيد؛ الصديق الكازاوى بسيارته عند الغسق إلى الحى الذى أستوطنه، أعنى -حى مولاي رشيد- ثم أعطانى هاتفاً جميلاً من نوع سامسونغ غلاكسى إس7 ومد لى ثلاثمائة درهم قائلاً: «خذ، هذى مائة درهم لقاء عمك المشؤوم، وحينما يندمل جرحك ستظل تعمل معى كل أيام فراغك لئلا تسقط ضحية شفقة الغير، ريثما تُصرف لك المنحة الجامعية، وهذه مائتا درهم ستقتنى بها أدوية لعلاج سبابتك» وأردف: «اسمع جيداً، قل للصيدلى أن يعطيك ضمادات مع لفائف جيدة، وسائل البيتادين أو البوفيدون يودى، لا تنسَ أيضاً أن تشتري حبوب الأمريزول إنه دواء مضاد للبكتيريا، أجدد لك أسفى عزيزى وأتمنى لك شفاء عاجلاً.» قال ذلك وولّى إلى منزله. فدخلتُ غرفتى المظلمة كفوّهات البنادق، وأشعلت المصباح المرقط بذرق الذباب. خلعت عنى الجلباب معلقاً إياه فى مشجب الملابس، وبعدها أشعلت سيجارة ورميت العقب من النافذة، هبّ نسيم المساء البارد، فصفق أبواب النافذة محدثاً ضجة مدوية تلاها سكون رهيب قادنى إلى تفحص كل الصور التى سجلتها ذاكرتى خلال هذا اليوم اللعين.

كان أول شيء قمتُ به في تلك اللحظة هو أنني نزعْتُ الشريحة التي تحمل أرقام أصدقائي وأقربائي كل واحد باسمه من الهاتف المعطل ونظفّتها، ثم وضعتها في هاتف سامسونغ الأنيق قبل أن أهوي على السرير مُصدرا آهة عميقة، غططتُ على إثرها في نوم لذيذ قطعه رنين الهاتف للأسف. مَنْ يكون هذا الأحمق الذي يبغى إزعاجي؟ سألتُ في نفسي. آه إنها حبيبتي مولا، قلتُ بعدما أبصرت كلمة حُبِّي بارزة على شاشة الهاتف. -أهلا وسهلا بحبيبتي مولا، اشتقت إليك كثيرا حبيبتي. -لا أهلا ولا سهلا، وليس يهمني شوقك المصطنع. قالت مُستشيطةً غضباً. -حبيبتي ما لكِ؟ رجاء قولي ماذا فعلتُ بحق السماء؟ -أرجوك لا تعاود تكرار كلمة حبيبتي، أرجوك فأنت لا تدري قيمة هذه الكلمة الثقيلة. -إذاً اشرحي لي ما الأمر؟ -اسمع جيداً، تصرفاتك الصبانية ما عادت تروق لي إطلاقاً، فأنت أوصيت أصدقاءك البلاداء مثلك بأن يراقبونني عن بعد هنا في جامعة مراكش. ثم تابعتُ: أينما التفتُ إلا ووجدتُ غيباً من أغبيائك المرضى يشيح بعينيه ناحيتي، نظراتهم الشاخصة تشعرني وكأنني مجرمة في سجون غوانتنامو، إليك عني، *بَيِّنْدِيخُو!* حتى المحاضرات الفلسفية ما عدت أتدبرها بفعل تشويش هؤلاء الحمقى الذين يحملقون في كل يوم، لقد تبين لي باللموس أنك لا تثق بي. قالت بلهجة الحسانية. - أقسم أنك أضحككتني يا مولا، أيعقل في نظرك أن أمر أصدقائي

هناك بأن يراقبوك؟ ولماذا سيراقبونك؟ مولا افهمي جيدا ولا تلعبى بالنار، أنت تعلمين كم أحبك وأثق بوفائك لي، رجاء لا تنشغلي بترهات الآخرين وركزي على دروسك حبيبتى الغالية. -أركز على دروسي أو لا أركز هذا لا يعنك في شيء وانقضى الأمر. ثم تابعت: من هذه الليلة فصاعداً لم يعد بيننا شيء، أتسمعي؟ إنس اسم مولا، أرجوك امحه من ذاكرتك فأنا في حاجة ماسة إلى الراحة. -مولا أبهذه البساطة استطعت أن تتخلي عن شخص يحبك من أعماق الفؤاد؟ ترى ماذا أفعل؟ أنا أحبك مولا؟ فردت مجيبة: - أنت لا تحبني وحيثك لا تنطلي عليّ، حتى وإن افترضنا أنك كنت حقاً تحبني فحباك شعور بارد ما عاد يعنيني، أنت لا تهتم بشأني، صدعت رأسي بـ مشغول.. مشغول.. رجاء تفهم قصدي، أنا لم أطلب منك سوى الثقة والاهتمام، سوى أن تسأل عن حالي وظروفي حتى أستشعر دفء الحب وأدرك أنك حقاً تحبني، إن الحب يا أنير شعور بالاهتمام وليس مجرد كلام، وهذا ما لم أتمسه فيك للأسف، لذا فلينس كل منا الآخر، واتركني من فضلك وحيدة فأنا كالوردة في الهجير؛ لا الحر يذبلي ولا النحل يؤذيني، أنت لازلت لم تدر بعد من تكن الصحراويات، وداعا يا أفضل صديق صادفته في حياتي. ثم انقطع الخط. -ألو.. ألو مولا! ألو خلوتي!! لا جواب. عاودت الاتصال بها فكان الجواب كالتالي: «اتصالات المغرب ترحب بكم..!» حاولت في

أسرع ما يمكن أن أرسلها عبر الفيسبوك، فوجدتها قد حظرتني من قائمة أصدقائها، فأردت أن أرسل لها رسالة عبر الواتساب أبين لها من خلالها أنني بريء مما تقول ولم أقارف ذنبا في حقها، فاكتشفت أنها حظرتني من الواتساب أيضاً، بل حظرتني قبل أن تتصل بي. لقد تحطمتُ، اندحرتُ، وتجهّم وجهي، عذاب بعد عذاب، معاناة تلو أخرى. ماذا يجري بحق الجحيم؟ ماذا تفعلين يا قوانين الطبيعة؟ "حبيبي"، "حياتي"، "أنتَ نجمي الذي أهتدي به إذا ضللتُ"، "لن أتخلّ عنك ولو تجف البحار وتهتز الجبال"، "سننجب طفلاً وطفلةً"، "سنقطن في ورزازات الهادئة..." كلمات كلها مضت أدراج الرياح، كلمات تلاشت بين عشية وضحاها. إن كل ما كنتُ أبنيه وأطمح في أن أبنيه، دكّته مولا في غضون عشر دقائق وعبر الهواء، كل ذلك الحب الذي كنت أرزح تحت رحمته، والكلمات التي كنتُ أكتبها من أجل حبيبتي في أعقاب الليل، وأصيغها من ضوء النجوم؛ جبّتها مولا فغدت بلا طائل! لقد كانت عيني مترعة بالدمع وقلبي مطفح بالغيظ، في الحقيقة أنا لازلت لم أصدق بعدُ، فأحياناً تخامرني أفكار مترججة من قبيل أنني كنتُ أحلم فقط، وحينما أدرك أن الواقع ليس حلماً، أقول في سري إن مولا كانت على غير سجيتها أثناء اتصالها بي، فلربما أضناها وجع الطمث، وستعود إلى سيرتها الأولى!

-6-

فى صباح اليوم التالى؁ أخذتُ محفظتى الجامعية متوخياً الذهاب إلى الكلية؁ وعند نهاية الزقاق انتصبتُ واقفاً أمام عربات باعة الفواكه والخضار؛ أشيخ بعينى الصغيرتين هنا وهناك بحثاً عن بائع فطور ساخن؁ لأن فطور المحلبات بات شيئاً غير مناسب فى فصل تذلهم سماؤه بسحب مزجاة. ومن بعيد لاح لى بائع فطائر يتهافت عليه طلاب الجامعة؁ كان على أن أعبى إلى الجانب الآخر من الشارع كى أتناول أنا أيضاً ما لذ وطاب من الفطائر الكازاوية. لم يكرس بائع الفطائر المدعو الدكالى كراسى للجلوس؁ إذ كان زبائن الدكالى يفطرون واقفين كجنود هتلر فى معارك الشتاء. وقفتُ أنا الآخر كباقي الزبائن؁ وأثناء وقوفى نعرنى شىخ ما تحت إبطفى حتى اضطرب كوب الشاى الحار بين يدى. التفت مباشرة فوجدت لمياء فى وجه بشوش وابتسامة عريضة ترقص على شففى؁ لابسة وزرتها البيضاء المدرسية؁ كانت فقط تود مداعبى. -أين طال الغياب شكولاتى؟ لم أرك هذه الأيام رغم أننا نقطن فى منزل واحد؁ لقد اشتقتُ إليك. فأجبته بعد قزمة من الفطيرة الساخنة: «لقد كنتُ جاثما هذه الأيام فى غرفتى بسبب هطول المطر.» -إى مالك؟ أراك عبوساً ومحمراً العينين أين ذهبتُ بشاشتك؟ سألتنى مشدوهة. -لا شىء؁ فقط لم أنم البارحة وبتُ أنحب فى ليلة جافاها القمر وهذا سبب

احمرار عيني. -ولم النحيب عزيزي؟ وأين نظارتك الطبية؟ أريد أن أعرف لقد اعتراني الفضول. -نظارتى تكسرت. -هل تشاجرت مع أحدهم؟ -تكثرين طرح الأسئلة مثل طفلة صغيرة. تأففت. وقلت: - كلا، لم أتشاجر مع أحد قط، لقد كانت نظارتى ملقبة فى الغرفة فرفستها بقدمى، لم أبصرها بسبب الظلام، لأن المصباح كان معطلاً آنذاك. كذبتُ وأضفتُ متمتماً: لكن، سأقتنى أخرى هذا الأسبوع. - لا. صرختُ. لا تقتنها، أنت تبدو أجمل من دون نظارة، أقسم لك. غمغمتُ بنبرة بريئة. -كلا لمياء، سأشتري نظارة هذا الأسبوع. -أف، ولماذا؟ -حتى أراك جميلة أكثر. -ألستُ جميلة أنا؟ -بل أجمل. -كفى، أنت تكذب عليّ. رطنت قلقة واستطردت: كم أنت بطيء فى تناول الفطور، لماذا لا تفطر فى غرفتك؟ -لا أملك قنينة غاز، سأشتريها اليوم. -أنير أسرع فالوقت يداهمنا، الساعة الآن تشير إلى الساعة السابعة وسبع وأربعين دقيقة، ربما سأنصرف الآن لأنى أخشى أن تفوتنى حصة العلوم الفيزيائية ثانية. -انتظري، دقيقة وسأنصرف. وأضفتُ: لمياء أنت لم تخبرينى عن مستواك الدراسى. -الأولى باكلوريا علوم تجريبية قسم اللغة الإسبانية، فى ثانوية الفارابى المتاخمة لكليتك. أجابت. -لم أفهم، اعترضتُ. وقلتُ لها: ماذا تقصدين بقسم اللغة الإسبانية؟ -أقصد أننا ندرس اللغة الإسبانية كلغة أجنبية ثانية استعاضاً عن اللغة الإنجليزية عكس الأقسام الأخرى. وضّحتُ. -آه

جميل جدا، المهم أننا سنخرج معا في الطريق الآن. جذبتني من ذراعي بعنف وقالت مستغيظة: - إذاً أرشف كوبك سريعاً وهيا بنا. فأنهيتُ كوب الشاي اللاهب على مضض وذهبنا معا، وغبَّ وصولنا إلى باب الكلية خلال بضع دقائق قالت لي من جديد: - أنير شعرت أن لديك مشكلة ما، أنا واثقة من ذلك، رجاء متى ستحك لي عن مشكلتك؟ - سأخبرك لاحقاً، عندما نلتقي مرة أخرى. - هل لديك حصة في المساء؟ - لا، لستُ أدرس مساء الاثنين. - واو، ممتاز، أنا أيضاً مثلك لا أدرس مساء اليوم. قالت مبتسمة. - يعني هل سنلتقي في المساء؟ سألتها. - أكيد، وسنذهب إلى مكان جميل سيثير إعجابك، وسنمكث هناك إلى حين تتدثر كازابلانكا بستار الظلام. - أيُّ مكان؟ - الغابة الخضراء، إنها غير بعيدة، أعدك أنها ستعجبك، هل أنت موافق؟ قالت بحماس مبالغ فيه. فأومأت بالقبول. - يو يو يو. زغردتُ بفرح شديد مثيرة بذلك استغراب الطلبة والمارة المبتسمين. أنا جد مسرورة أقسم لك، سنتحدث معا وسنأكل الفشار، ستنسى همومك يا خوان كاميلو هيرنانديز. - من يكون هذا؟ أهو ممثل مكسيكي؟ سألتها مقوساً حاجبي. - كلا، إنه لاعب كرة قدم كولومبي مشهور كالعيد، ومعروف باسم كوتشو، إنه يشبهك كثيراً، مُذ يومنا هذا سأناديك باسم كوتشو. قالت ضاحكة. - في أي فريق يلعب كوتشو؟ سألتها. - في نادي هويسكا وهو فريق يقبع في الدرجة الثانية من الدوري الإسباني. -

للأسف لم يسبق لي أن سمعتُ بهذا النادي، وأردفتُ: على أيِّ؛ أين سنلتقي قبل الذهاب إلى الغابة الخضراء؟ -أفضل أن تنتظرنى أمام بائع الفطائر عند الرابعة عصراً إذا كان التوقيت يناسبك، ما رأيك؟ فهزئتُ رأسي مبتسماً. -إذا سأذهب الآن قبل أن يغلق حارس مدرستنا الباب في وجهي، وداعاً كوتشو، موعدنا في الرابعة، إياك ألا تأتي. فودعتها ودخلت الكلية متنهداً.

أصررتُ على ألا أنكث وعدي مع العلم أني رجل متقلب المزاج، وعادة ما أخلف الوعود، لكن، ما دامت هذه المراهقة بشوشة وتقهقه بلا سبب، فسأنتظرها، لأنني في حاجة إلى شخص ينفس كربى، وأضحك معه قليلاً، على الرغم من أنني شخص عاشق للعزلة، فالضحك مع الغير هو ترياق لمواجهة مآسى الحياة. انتظرتها في المكان والزمان المتفق عليهما، فأنت متأخرة بأربع دقائق فقط، كانت متبرجة بمكياج المساء، ووجنتاها حمراوان كشقائق النعمان، مفتعلة ابتسامة عفوية. ظهرت أكثر جمالا في هيئة تخطف الأبصار، وإشراق يستميل القلوب نحوه؛ كان وجهها مثل مرآة مجلوة، وكانت ترتدي بنطال الجينز الضيق في لون سماوي، قصيرا شيئاً مما يبدي عن كاحليها. وحذاء باللونين الأحمر والأسود من نوع إيرماكس، وتيشرت أسود وضيق هو الآخر، لم يكن يبلغ الحزام الأحمر لبنطالها مما يبين عن سرتها، كما أنه مُشبَّكٌ من جهة نهديها. ومن فوق، كانت تلبس معطفا

أحمر اللون، فضفاضٌ وواسع الرदन، ذو أكمام مزدانة بفيونكة تمنحه لمسة عصرية، وحقيبة صغيرة على ظهرها، تشبه حقائب أطفال دار الحضانة، مرصعة بنقاط حمراء وأخرى سوداء. في الحقيقة كانت تبدو مثل عارضة أزياء مصورة على ظهر مجلة؛ نهدان ناشزان مثل رمانتين، مؤخرة بارزة وممشوقة في ثنايا البنطال، وشفتين مُحَمَّرَتَيْن. أما شعرها المصبوغ حديثا باللون الكستنائي فقد كان مربوطا ومشدودا خلف أذنيها مما ينمُّ عن أناقة رفيعة. والذي زادها جمالا بالنسبة إلى ذوقى الخاص؛ هو أنها فتاة شغواء؛ فحينما تبسم يبرز نابها الأيمن في فكها العلوي خارجا عن صف أسنانها اللامعة، كما أنّ لديها حاجبان مقوسان كأشعة السفن القديمة. - تبدين أشد فتنة من زهرة البيغونيا يا حسناء كازابلانكا. قلتُ لها في إعجاب كبير. فتورّدت خجلا ثم قالت: -سررتُ كثيرا لما رأيتك تبسم الآن، كان وجهك محتقنا في الصباح. -صحيح لمياء، كان وجهي وكل جسدي لاهبا كلهيب القودكا بسبب الحزن والأسى، أما الآن فقد خبا لى بعد فورة الغضب بفضل جسدي المضمخ بشذى من العطر الزكى. -أحقا؟ سألت في ابتسامة يطبعها الخجل. -بالتأكيد لمياء.

لقد سبق أن قالت لي لمياء في الصباح إنني سأنسى كل همومي بمجرد أن أجلس معا في الحديقة، إلا أن أحمرها الجذاب، وعطرها الفواح؛ جعلني أنسى شظف الأيام الخالية، وخلّصني من البلاء الذي جثم

على صدري منذ أول وهلة رأيته فيها هذا المساء، بعدما كنت أرى أبواب السعادة في وجهي مُسَدَّةً، والمعاناة على صدري مُمْتَدَّةً، والحياة بصفة عامة ضنكى ومُسْوَدَّةً. سألتها عن نوع العطر الذي يفوح من ثيابها الفاقعة اللون، فأخبرتني أنه عطر "ميدنايت رومانس" الذي اقتناه والدها الأسبوع الماضي من مدينة كاسيريس الإسبانية بمناسبة عيد ميلادها السادس عشر. أحيانا كان يتسلل إلى روعي شعور بالندم شديد، بعدما سألتها عن نوع العطر الذي تستعمله، بسبب الإجابة غير المتوقعة التي تلت سؤالي، إذ اكتشفت عن طريق هذا السؤال الاعتباطي أنها تصغرنى بسبع سنوات بعدما ظننت أنني لا يمكن أن أكبرها إلا بثلاثة أعوام على الأكثر، والباعث الثاني على ندمي هو أنني لم أسمع إطلاقاً هتافات حفلة عيد ميلادها وأنا الذي أشاركها نفس الدار وأبيت راعيا النجوم طوال الليل. مكثنا واقفين أمام بائع الفطائر ندردش للحظات حتى قالت مطرطقة أصابعها المرهفة بنعومة: -إي، هل سنظل واقفين هنا؟ هيا لنمض إلى الحديقة قبل أن ترانا ماما فأنا أخبرتها أن لدي حصة الفلسفة في تمام الرابعة.

مشينا الهوينى نحو الغابة الخضراء، إذ كانت لمياء ترفق ذراعها بذراعي متجاذبين أطراف الحديث، وكثيرا ما كنت أذعن بالضحك غير متعمد كلما تلفظت كلمة بها حرف سين، كونها فتاة لثغاء لا تقو

على نطق هذا الحرف، إذ تنطق ميسي لاعبها المفضل بميئي، وهكذا سرنا نضحك معا ونتمايل على طول الرصيف المحدودب كشجيرات اللّيثشي. ولما انتهينا إلى الغابة الخضراء لمخنا كرسيًا من الأسمنت فارغٌ تتجه صوبه امرأة وطفليها الصغيرين، كانوا يرغبون في الجلوس، لكن لمياء التي كانت بمعيتي جاءت من خلف المرأة تهرول إلى الكرسي، ثم جلست ووضعت حقيبتها المزركشة جنبها حتى لا تشاركها المرأة وطفليها الكرسي، فأمسكت لمياء من ذراعها وفسّرت لها أن هذا سلوك لا أخلاقي، لأننا إذا عممناه على الجميع فلا غرو ستعم الفوضى في المجتمع، وسيغدو الناس كالهائم يتسابقون وراء الكراسي. -لستُ وحدي من يتسابق نحو الكراسي، الكل يفعل ذلك. تمت لمياء مستغيظة. -أرايتِ يوما شخصا يتسابق نحو الكراسي؟ - نعم، أصحاب البطون المنتفخة. رطنت بصوت غير مسموع. -هؤلاء نعذرهم يا عزيزتي. -ولمّ نعذرهم؟ -لأن بطونهم ثقيلة ولا يقوون على الوقوف، لذا وجب أن نُكّرِسَ لهم كراسي عليها يستريحون. -إذا أنت تقر أننا نحن من منحهم حق التربع على هذه الكراسي، أليس كذلك؟ -بلى لمياء هو كذلك. -ومن أعطى الحق لهذه المرأة حتى تجلس على هذا الكرسي؟ -أنا. أجبتُ بجدية. -إذا اجلس على هذا. أشارت بالوسطى. -لمياء أنتِ في حالة غضب الآن لذا لن أكرث لما تقولين. - أنت الذي أغضبتي، أف. هممتُ غضبانه. -لا يا لمياء لستُ أنا من

أغضبك وإنما تفاؤلك. -تفاؤلي؟ كيف ذلك؟ -التفاؤل عزيزتي هو سبب غضب الإنسان، بمعنى أن الشخص يتوقع أن الذي سيصادفه في المستقبل القريب أو البعيد هو شيء حسن، فيحدث أن يقع عكس ذلك فيصاب بإحباط وتذمر، ومن ثم يقع فريسة للغضب، وعلى هذا المنوال تفاءلت أنتِ بأنك ستجدين كراسي الحديدية شاغرة، وسنجلس معا مستمتعين بهدوء المكان، فكان الواقع عكس ما توقعتِ مما جعلك تغضبين. في حين كنت أنا متشائما بأني سأجد في الحديدية سكارى ونشالين وأعشاب مجتثة، فلم أجد لها وسررت بما لم أجد، لذا فأنا سعيد من هذا الجانب. -لقد جننتك الفلسفة أيها المعتوه، كيف تتجاسر على قول هذا؟ وأضافت: هل تقصد أنه يتوجب علي أن أكون متشائمة. -بالفعل، كي تتمتعين بالسعادة. -آه حسنا، سأحاول رغم أنني لم أستوعب قصدك جيدا، على أيّ انسَ الموضوع وهيا بنا نجلس فوق ذاك العشب الناعم. قالت مشيرة بحقيبتها الصغيرة.

ابتركنا تحت شجرة متفيئتين بظلها السَّجْسَج، إذ كانت لمياء جالسة وممدة ساقها على العشب، فيما أنا مسند رأسي على فخذيها الثخينين كما أمرتني؛ يداي مجموعتان على صدري، وعيناى مقابلتان لعينيها حيث تتلاقا نظراتنا في الفراغ. كانت تصفعي بلطف على خذي وأحيانا تجتث العشب فتنثره على وجهي بابتسامة

مرسومة على شفيتها. عضت بأسنانها على شبرة الشعر الحمراء وصوبت نظرها نحو إصبعي المربوط بضمّاد الشاش بينما هي تسدل شعرها. -إي كوتشو، ما بال إصبعك؟ لم أنتبه إليه في الصباح. قالت بكلام غير واضح بفعل عضها على مشبك الشعر. -اطمئني، إنه مجرد جرح بسيط وسيندمل. -هل تملك مطهر الجروح؟ -سأشتره هذه الليلة، لكن سبق وأن عقتُ إصبعي ليلة البارحة بمبيض الغسيل. -مبيض الغسيل؟ قوست حاجبها. -نعم مبيض الغسيل. -يا مجنوناً! هل أصبعك جORB حتى تطهره بمبيض الغسيل؟ أظنه سيضاعف من ألمك، إنه يحرق. -صحيح، لقد ألمني. -كوتشو هل نسيت؟ قالت متحسسة خدي بأظفارها المطلية باللون الأحمر. -وماذا سأنسى؟ - وعدتني صباح اليوم أنك ستخبرني عن مشكلتك بمجرد أن نلتقي. -آه تذكرتُ الآن، مشكلتي يا لمياء هي أن حبيبتي تخلت عني، لقد انفصلنا يا لمياء، وهذا كل ما في الأمر. -انفصلتما؟ فغرتُ فاهها مصدومة، واستطردت في شهقة عميقة: آسفة كوتشو! الحب شيء جميل لكنه مؤقت كهطول المطر، أرجوك أخبرني كيف حصل ذلك. -لمياء، في الحقيقة أنا عاجز عن سرد قصتي المأساوية في هذه اللحظة، المهم أنها هجرتني. -هجرتك؟ تساءلت ضاحكة وأضافت تقول: وماذا بعد؟ هل غيرت قوانين الفيزياء؟ هل سينتهي العالم؟ أنت الآن في أفضل حال من دونها، تسند رأسك على فخذين ناعمين وتندرج إلى نهدين

يحبسان الأنفاس وتبتسم، هي لم تدرك قيمتك ومكانتك لذا هجرتك، لكن، فيمَ يضر هَجْرُ النحلةِ النَّحلةَ جنبَ الوادي؟ لم يُعد هناك فرق بين مرتبط ووحيد، الحياة اللعينة ستنكح الجميع يا كوتشو. -هل تظنين أنني سأستطيع أن أنساها بهذه السهولة، وبعد كل ذلك الحب العميق الذي كنتُ أكنه لها؟ -نعم تستطيع فعل ذلك، أحرق كل صورها وجعد كل الأوراق التي لطختها باسمها، مزقها وانثرها في بحر كازابلانكا وهكذا ستنساها. -لن أستطيع يا لمياء، أنا لا زلتُ أحبها، أنتِ مخطئة يا لمياء. صرختُ ضاربا على العُشب براحة يدي. وتابعتُ: لكن لماذا تخلتُ عني وهي تعلم كم أحبها؟ لماذا ذهبت وتركتني وحيدا. قلت مذرفا الدموع. -إي ما لك تبكي؟ صاحت لمياء. كفكف دموعك فهي لا تستأهل هذه الدموع الغالية. وأضافت: أتركها تذهب حيث تشاء، فلتنطفئ كشمعة تحت زعيق الرياح ولتمض نحو الظلام، تبالها فهي لم تسمع المسكينة صوت السماء بعد. -وماذا يقول صوت السماء يا لمياء؟ -يقول إن أرض الله واسعة! - يا لمياء، إني أحبها وهي عندي أرفع من السماء وأعذب من الماء، أتفهمين معنى ذلك؟ -نعم أفهم، أفهم، ولا داعي لأن تصرخ في وجهي. رمتني بنظرة سامة. -أسف لمياء. ربتتُ على ظهرها بحنان وأضفت: أتعلمين يا لمياء لقد كنتُ أطيعها إلى حد بعيد، كنت أفعل كل ما تأمرني بفعله وكأني أمحضها الولاء. -يا لها من دناءة في النفس، لم

أكن أعلم أن أنير؛ الرجل الصارم، هو شخص ذليل في الحب. -لمياء عليك أن تعلمي جيدا أن ما إن يتنسم السيد الجبار ربح الحب ويتذوق طعمه، حتى يصير عبدا مطيعا لمحبوبه المولاء، فتتغير نظرتة القاسية إلى الحياة، حيث يرى ظلمات الأرض نجوما متألئة في السماء، وتبدو له الأسود الزائرة في البراري غزلانا باغمة في الحدائق الغنّاء، هذا ليس دناءة في النفس يا لمياء، وإنما الحب كذلك هو، فيه يغدو الأعداء أذلاء! -أف، أنا لا يهمني هراؤك الصوفي، ما يهمني هو أن لا تثق ثانية في أية أفعى من الأفاعي السامة، لأن الأفعى لا تستحق الحب، لذا كن حذرا ولا تتعامل بحسن نية، فما تجيده الأفعى هو التهام الطرائد السمينة ولدغ أنصاف الرجال! لا تثق مجددا يا كوتشو حتى تستطيع أن تتمدد على سريرك وأنت مفعم بالطمأنينة والهناء، وليس بعقل مصدوع وقلب موجوع، وعين مولعة بالدموع.

مر من أمامنا عجوز يعتصي عصا، وهو بائع قهوة متجول يحمل في يده مرجلا نحاسيا وعلب سجائر. اقتنيتُ منه بضع سجائر وكوبين بلاستيكيين من القهوة المنسمة بالأعشاب، وشرعت أرشف قهوتي وأرضع سيجارتي بلطف، بينما ألقى لمياء بكوب القهوة على العشب.

-ما هذا المذاق بحق الجحيم؟ قالت متقرزة. -ما بك لمياء؟ لم سكبت القهوة؟ -لم يعجبني مذاقها المقزز وكأن ابن العاهرة هذا قد تبول فيها. -لا أظنه يفعل ذلك يا لمياء، تلك مجرد نكهة القرفة. تمتمتُ

وضباب السيجارة يتلولب حول عنقي. -أنا لا أثق مطلقا في هؤلاء العجزة. -بالفعل هم مصدر كل الشرور في هذا العالم. -لأنهم يكونون على شفا حفرة من الموت يخربون العالم من ورائهم قبل أن يرحلوا. -تماما لمياء. -كوتشو هل أنت مدمن على التدخين؟ ربما هذه هي المرة الأولى التي أراك تدخن فيها. قالت دون أن يرف لها رمش. -أنا لا أدخن على الإطلاق يا عزيزتي. قلتُ بلهجة محترمة. -وماذا عن هذا الدخان المتصاعد من شفتيك المتفجّمتين؟ سألت مندهشة. -ذاك دخان قلبي وهو يحترق!

-7-

أثناء دردشتنا الفضفاضة التي دارت على موضوع الحب، استنتجتُ أن هذه المراهقة صارت ترقص على أحزاني وجراحي، حيث كانت تطفح سرورا إثر هجر حبيبتي لي، وما يعزز افتراضي هذا، هو إلحاحها عليّ بأن أنسى مولا، وأبدأ حياة جديدة باسم جديد هو كوتشو، وفي مدينة جديدة تدعى كازابلانكا. إن كل ما قرأته عن الحب في مجلدات الفُرس والعرب القدامى، غدا رمادا تنثره لمياء كيف شاءت، كل تلك الأفكار العظيمة عن الحب والوفاء، والتي أفنى من أجلها هؤلاء الفلاسفة أعمارهم؛ تبخرت أمام نهدي مراهقة. - كوتشو، كوتشو، اضحك، هيا لا تمكث هكذا مقطب الجبين. قالت بعدما دغدغتني في إبطي. -لمياء من فضلك ليس لدي رغبة في المزاح،

أفضل أن تنصرفى وتتركينى وحيدا ليتنى أجد نفسى. -كوتشو ما بك؟ بم تشعر؟ تخللت شعري بأناملها الرقيقة. -أشعر أننى بحاجة إلى الانتحار يا لمياء، بحاجة إلى السفر بعيدا، إلى مكان فيه ألتقط أنفاسى، إلى السهوب الموحشة حيث أمنح نفسى لغربان جائعة تنهشى، أو للسفن الراحلة فى الليالى المطيرة تحملنى، إلى هجير حيث يلهث الأسى وأطلق الرصاص على جبينى، حبيبتي ظلمتني يا لمياء، أسمعين، لقد ظلمتني يا صغيرة. -لا تقل هذا الكلام عزيزي فمولا ستجزي بما فعلت، وسهم الظالم يرجع عليه، أنا واثقة أنها خدعتك أول مرة بحلو منطقها، ومليح لفظها أو ما ضارع ذلك، أو ربما بابتسامة مصطنعة استطاعت أن تضعك فى جيها، أنا أعرف الفتيات على حقيقتهن، دائما ما يصطدن ضحاياهن بألسنتهن، لأن الكلام اللين مصائد القلوب كما يقال. -أنت شيطانة يا لمياء. -وأنت شكولاطة تذوب حزنا. -عندك حق يا لمياء، أنا فعلا حزين وقد أضناني الإطراق والوجوم وضيق النفس، منذ أن سمعت كلمات الوداع من حبيبتي ليلة البارحة، كانت كلمات قاضية وقاسية جدا، أتعلمين يا لمياء إن الفراق إذا ما حل بين الحبيين شبت فى قلوبهما نار الشوق التي لا تخمد، فحين يغيب المحبوب يبدو للمحب كل أبيض فى الدنيا أسود، حتى نضارة وجهه تبعد فيصير كعجوز أجعد، فبعد أن كان الحبيب نجمة متألئة فى السماء، يبعد بنوره وحشة

الظلماء، انقطع أخيراً حبل اللقاء، فأصبح ذانك المتحابان كالقوارب الزرقاء، تغدو باحثة عن رفيع الأسماك، فتصادف العواصف الهوجاء، لتروح إلى المراسى خاوية جوفاء، وهذا ينطبق عليّ وعلى مولا. -تبدو وكأنك كنت مسجوناً في كهف أفلاطون، هجرتك مولا فكدت أن تقلب العالم، هل هذه هي المرة الأولى التي ستحب فيها فتاة؟ -نعم. -صراحة سيكون الفراق شيئاً مريراً في هذه الحال، لقد عانيت أنا أيضاً مدة طويلة حينما تخلى عني إلياس الذي هاجر إلى العراق. قالت وهي تخفض أنظارها، وقد اغرورقت عينها من الدمع حينما تذكرت حبيبها الأول، وتحولت من فتاة تؤنس الوحشة ومعها تنجلي الأحزان، إلى مراهقة تجهش بالبكاء وتحتاج إلى من يكفكف دمعها، رغم أن علاقتها بإلياس قد عفا عليها الزمن، فحتى ما تبقى من صورته المجددة قد اغبرت في أرفف مكتبتها التي لا تضم سوى مجلات التجميل وبعض روايات الكاتبة الأمريكية "أليس ووكر". لقد أمسيتُ أواسيها وأضمتها إلى صدري مستشعراً دفاء أنفاسها، كان همي هو أن تنسى جرح الماضي، بيد إنَّ عناقى لها كان بمثابة منشط حيوي بعث فيها الحياة من جديد، وضح في قلبها دماء دافئة أغرتها على أن تنسى الذكريات وتسالني من جديد. -كوتشو هل تمنع إن سألتك عن طبيعة علاقتك بمولا؟ -لم أفهم. قلتُ في حيرة وتابعتُ: إن كنت تقصدين نوع العلاقة التي كانت تجمعنا فحتماً هي علاقة

عاطفية. -أعرف، لكن أقصد... يعني هل سبق لكما أن عانقتما بعضكما البعض..؟ صراحة لست أقصد العناق وإنما أقصد هل فعلتما ذلك؟ سألت متلعثمة. -ماذا تقصدين بالضبط؟ تكلمي بدون لف ودوران، إلام ترمين؟ -أرمي إلى ذلك الشيء الذي يخطر على بالك. قالت وهي تدلك أصابعها. -آه، كراخو، الآن فهمتُ قصدك يا مشاغبة، لكن منذ متى وأنت تستحيين مني؟ -سامحني هذه المرة سأصيغ السؤال بوضوح. اعتذرت بابتسامة فاترة ثم طرحت السؤال: هل سبق أن تضاجعتما؟ -كلا لم نفعل ذلك. -عجيب! فغرت فاهها وتابعت: هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن حب بلا جنس، يا له من حب مقرف هل كنتما تلعبان الغمضة طوال هذه الفترة؟ وأضافت: الآن عرفت لِمَ هجرتك مولا. قالت ساخرة. -يا لتفكيرك العاهر! قلت مستغيظا وتابعت: مولا فتاة متحفظة صعبة المراس ويستحيل أن تحركها هبة ريح. -وهل لثمت ثغرها يوما؟ -في الحقيقة لا، لأنها دائما ما كانت ترفض ذلك. -هل هذه فتاة أم تمثال أبو الهول؟ تأففتُ باستياء شديد. -أظن أنه ليس من الضروري أن يُرفق الحب بالقبلة أو المضاجعة. -نظرتُ إليّ بشرود ثم قالت: -اسمع جيدا أيها الأرملة، الحب من دون مضاجعة وقبلة كالسحاب بلا مطر؛ لأن القبلة هي حلاوة الحب، والذي لا يقبل حبيبته ستغدو شفته يابسة فتتهشم وتذروها الرياح، ما قيمة الحب إذا لم تروي ظمأك بشهد

لعاب حبيبتك؟ خفضتُ عيني بإذعان دون أن أنبس بكلمة، فسكتتُ لحظة تنظر إليّ ثم استطردت: - القبلة يا كوتشو بوابة نحو المتعة، والمتعة عصارة الحب ودوامه، أما الجنس الذي هو جزء لا يتجزأ من المتعة فهو شيء ضروري بالنسبة إلى الحب، بل هو أحد أسباب الوقوع في الحب، لأن العلاقة الجنسية السليمة والمنتظمة بين الحبيبين تفضي إلى حب صلد، متين ودائم، بتعبير آخر؛ الانجذاب الجنسي القوي يحفز الوقوع في الحب. -لست أظن أن هنالك علاقة بين الجنس والحب. اعترضتُ. -في نظرك أيها المخبول هل ستستطيع المرأة أن تحافظ على حبه لرجل لا يقضي وطرها ولا تبلغ معه رعشتها الجنسية؟ عليك عزيزي أن تعلم أن الحب هو رغبة في ممارسة الجنس مع الحبيب ومعه وحده فقط، ليس لأن المحب بلغ ذروة الشهوة، وإنما من طبيعة الحب الناضج أن يميل المحب إلى مضاجعة محبوبه، كما إن المرأة ليس بمكنتها أن تحب رجلا عيننا بغض النظر عن كونه جميل المظهر، جليل المخبر، وذو مال أوفر. أنا أعرف صديقة لي اسمها آسيّة ربما لا تكبرك إلا بعام واحد تقطن في حي سباتة، فتاة وذيلة ذات عينين زرقاوين، وقع في حبه جارها الشاب وهو بائع فواكه متجول، كان يعشقها أكثر من الوطن نفسه. يختلق صورتها في هاجسه أثناء نومه، وفي يقظته يمشي ذليلا خلفها يقفُّ آثارها ككلب وفيّ، ودائما ما كانت تتجافاه وتأبى الوقوع في شرك حبه،

لكن مع مُضي الوقت استسلمت لغرامه. كانت تقول لي إنها تبغضه وأن طموحها ليس يزيد على أن يكون رغبة في التسلية وقضاء أوقات ممتعة، ومع مر الأيام دخلت معه - كما أخبرتني- في علاقة جنسية ستكتشف على وقعها أن شريكها فحل لا يمل ولا يكل، وكأنه سفينة حربية تمخر عباب الموج في شتاء عاصف، مما جعلها تجنح إليه وتغار عليه غيرة عمياء، وأخيرا أضحت تحبه من أغوار الفؤاد، حتى أمست تفكر فيه باستمرار وتتشوق إلى سماع صوته. ألم تسمع أيها الكسول بالمقولة الجميلة التي ترددها النساء في غرب دولة النيبال؟ - أيُّ مقولة؟ - "ناسا باسيو، مايا باسيو" لقد شاهدت ذلك في برنامج وثائقي. -وما معنى هذا؟ أبديتُ عن استغرابي. -معناه: "يدخل القضيب، فيدخل الحب". فسرتُ ثم تابعتُ: أضف إلى رصيدك المعرفي أيضا أن أغلب أسباب الطلاق بين الأزواج هي مشاكل جنسية تقطع حبل الحب، وهذا كان سبب طلاق عمتي من زوجها، لا تنسَ كذلك أن بغضي لحبيبي الأول هو استخفافه بالجنس، بينما حبي العميق لك هو نتيجة لتلك الليلة الحمراء التي قضيناها معا، أألزمت تذكر أيها الفحل؟ -بِئندِرخا! ألم تنسى بعدُ تلك الليلة اللعينة؟ تأففتُ. -المرأة لا تنسى الجنس الطيب، الجنس الصحيح والمشبع يا كوتشو يزيد من مستوى الدوبامين في الدماغ. -ماذا تقصدين بالدوبامين هذا؟ -الدوبامين يا من يضيع وقته في قراءة الكتب الأدبية

الجافة هو الهرمون المسؤول عن الحب، وهو ذلك المرح الذي نشعر به عندما نكون برفقة من نحب، ينبغي أن تتذكر كذلك أن البيولوجيا في القرن الواحد والعشرين اكتشفت أن في لحظة النشوة الجنسية بين الشريكين يفرز المخ الأوكسيتوسين في المرأة والفازوبريسين في الرجل، وهما مادتان تحفزان الوقوع في الحب، وأنا واثقة من أن الشيء نفسه هو الذي دفع بي إلى أن أحبك. -هل أنتِ تحبينني؟ سألتها في دهشة. -نعم أحبك وأقولها بملء الفم. ربتت على كتفي. -ماذا تقولين أيتها الحمقاء، أتعرفين أولاً معنى الحب؟ سألتها بصوت مشروخ. -ليس يهم إن كنت لا أعرف الحب، المهم أن أشعر به، هزت كتفيها وأضافت: يهمني فقط أن أحبك أنت كشخص وكذات تحمل اسما هو أنير الذي لقبته بكوتشو، لكن هذا لا يعني أنني لا أحب صفاتك بل هي مسببات حبي لك. -وما هي هذه الصفات؟ سألتها من باب التوق إلى الإطراء على شخصيتي. -صفاتك هي أنك أفضل رفيق، هي إحساسك الرقيق، تفكيرك العميق، لفظك الذليق، أسلوبك الأنيق، ووجهك الطليق، هي كتاباتك المارقة، نيتك الصادقة، والأهم من ذلك فحولتك الحارقة. أجابت خافضة بصرها وهي تلف شعرها حول إصبعها وتبتسم. -يال لرعونتك أيتها المراهقة الغبية، لعقت شفتي وأردفت أقول لها: تربطين الحب بوتد الغرائز الحيوانية دون أن تتذكري أن الإنسان كائن عاقل. -الإنسان كائن

عاقل؟ تساءلتُ ساخرة. وتابعت: الإنسان ليس كائنا عاقلا يا من
 جننته الفلسفة، الإنسان كائن عاطفي وانفعالي يا كوتشو، حتى وإن
 كان عاقلا فإنه ليس يعقل إلا في أندر الحالات، الإنسان عزيزي هو
 توليفة من الحب، الشهوة، الحقد، الاعتقاد، الحماسة، الدعابة،
 الكراهة، الغيرة، والجنون، هذا الأخير الذي كان مصدر الإبداع لدى
 الكثيرين من الكتاب والفلاسفة والرسامين، رغم إنى لا أحب
 الفلسفة يا كوتشو كما قلتُ لك ذات مرة إلا إنى أعشق جنون
 الفلاسفة، المهم.. لا أعرف ماذا سأقول، لكن، فكرتى هي إنه توجد
 أشياء يعجز العقل حتى عن مصافحتها. -كيف ذلك لمياء؟ هل
 يمكنك أن توضحى أكثر أو على الأقل تعززي فكرتك بمثال من
 الواقع؟ -اسمع جيدا، هناك أشياء مثل الحب والاعتقاد.. -نقول في
 الفلسفة مفاهيم وليس أشياء، الأشياء -عزيزتى- هي الطاولة
 والحجارة والكأس وكل ما هو ملموس وجامد. للتوضيح فقط وأعتذر
 عن المقاطعة. -لا بأس بذلك. ارتبكتُ ثم تابعت تقول: كنت أقصد أن
 ثمة مفاهيم كالاعتقاد وطاعة الوالدين والحب ومفاهيم أخرى
 عديدة يستحيل أن نخضعها للعقل، لأن الحب على سبيل المثال إذا
 عقلته دمرته، أي إذا حاولت جاهدا أن تفصله عن المشاعر الجوانية
 فلا مرية ستجمده، كما إنك لن تستطيع أن تحتاز حبيبا إذا أنت
 جعلت من الحب معادلة رياضية، لأن الإنسان كما أشرتُ قبل برهة

هو كائن ذو انفعالات وليس عقلا. لزال الحيوان يا كوتشو يثوي داخل الإنسان، أنظر من حولك في الشوارع، في الساحات، في الحدائق وفي الباصات، هل تجد عقلا؟ لا يا حبيبي، ما ستجده هو انفعالات وأهواء وغرائز. أعدك أنك لن تجد عقلا بقدر ما ستجد حيوانا متطورا، اعلم يا عزيزي الفيلسوف الذي يمسك الفلسفة من إستها أن الإنسان حينما يشم رائحة الشواء أو النشيل يسيل لعابه كالكلب، والرجل عندما يرى امرأة ممشوقة المؤخرة ينتصب أيره كالحمار. حتى الحرب تدل على غريزة الافتراس لدى الإنسان، ماذا تعني الحرب غير تجسيد الغرائز الحيوانية داخل الإنسان، وإذا كانت الحرب تُدار من أجل المصالح فهذه الأخيرة نفسها هي غرائز حيوانية مهذبة لازالت تقبع في الإنسان حبيبي كوتشو. والدليل الآخر على حيوانية الإنسان المفترسة هو عادة أكل الحيوان، فمهما حاول الإنسان أخلقة طبيعته الحيوانية إلا أنه حسب رأيي لن يستطيع التجرد منها، ولن يستطيع التخلي عن عادة أكل اللحوم مهما بدا كائنا نباتيا. -أنى لك بكل هذا؟ استغربت وأضفت: أحيليني على هذه الكتب، أريد أنا أيضا أن أنشط هذا الدماغ الخامل. -أسفة، أنا لم أقرأ هذا في أي كتاب، كل هذه الأفكار التي تفوهت بها قرأتها في الواقع وبعض ما قاله لنا أستاذ مادة علوم الحياة والأرض، أنا لا أتبه مثلك بين ظلال الحروف، وضباب الكلمات، لذا أنصحك بأن تحرق

كل كتبك العقيمة وتستيقظ من سباتك العميق، وأن تذهب إلى السوق والمعامل والشوارع، وعند الجزار والخضار والبناء لترى بعينيك وتتعلم أفكارا مفيدة تعود عليك بالنعف. الكتب كاذبة يا كوتشو، أقسم أنها كاذبة، كل ما يُكتب فهو كاذب، وكل من يستطيع أن يكتب يستطيع أن يكذب، فلا تضيع نظرك في القراءة.

هبط الليل على كازابلانكا ففاحت رائحة الشبق في الحديقة، إنها لعنة المساء! ورغم ذلك استمرت لمياء في تلقيني دروسها حول خبايا الحب وحيله، فيما واصلتُ أنا الإصغاء إليها دون أن أحيّد أنظاري عن الأرض، وأحيانا كنت أدخل معها في سجال حاد، إذ كان النقاش بيننا حول الحب يحتدم فنغدو نتراشق بالأفكار كفيلسوفين من الحقبة الأندلسية، بل إن حدة النقاش قد أخدمت لهيب الجوع الذي كان يلکز أحشاءنا في كل لحظة.

من المعروف أن الغابة الخضراء تمسي أثناء الليل ملاذا للسكارى والعاشرات ذوات الجلابيب الرخيصة، حيث لا يستشعر هؤلاء لذة الحياة إلا تحت وطأة الظلام، لكن لمياء الكازاوية المشاكسة بدت غير آبهة بمخاطر الليل، وأمضت تتلخبط في الكلام عن الحب بعدما أقرت طواعية أنها تحبني. أشعلتُ سيجارة وألححتُ عليها بأن تغادر المكان للتو بدل أن نستحم في الظلام مع أولئك الصعاليك. -لمياء إنه الوقت المناسب لكي تغادر. همستُ. -لن تغادر حتى تجيب على سؤالي

بصدق. -وما هو سؤالك؟ -هل نسيت مولا أم ليس بعد؟ تُشِينْكَادَا!
كم تحبين النباش فى القمامات! حدجتها بنظرة شزررة. -أعتذر إذا
كنتُ نكأتُ جرحك، لن أسألك مرة أخرى فأنت تغضب بسرعة. -إذاً
هيا لننصرف. أمرتها بغضب بعدما رميت عقب السيارة. -كم
الساعة أولاً؟ سألتُ غير مبالية. -ليس بحوزتي ساعة يدوية وساعة
هاتفى غير مضبوطة للأسف. -معصمك بدون ساعة يدوية شبيه
بأرض قاحلة. سخرتُ وتابعت تقول: لكن لا بأس؛ السبت المقبل
سيعود بابا من إسبانيا وسيمنحني مبلغاً مالياً كما وعدني، حينها
سأشترى لحيبى ساعة يدوية باهظة الثمن كي تستطيع أن تذكرني
كلما اطلعت على الساعة. -آسف لمياء، أنا لست بحاجة إلى ساعة
باهظة الثمن فحيبى أهدتني الوقت كله. -أهدتك الوقت كله؟
سألت بنبرة ساخرة وأضافت مستغيظة: لو أهدتك الوقت كله ما
كانت لتتخلى عنك ساعة. لقد استشاطت لمياء غضباً من ردة فعلى
واحمرّت عيناها حينما نطقتُ بكلمة حيبى، ووقفتُ دون حراك
ترمقني بنظرات شزررة، فاعتذرت منها محاولاً أن أبين لها بأنها أساءت
قصدي وإن ما كنت أقصد إليه هو أن الساعة اليدوية لن تفيدني فى
شيء بقدر ما أنا محتاج إلى المال بغية سد نفقات الكراء. -حيبى
كوتشو، بمجرد أن نضع اليد فى اليد ونبدأ كلانا حياة جديدة مع
بعضنا وننسى ردهات الماضى، حتى يتغير كل شيء، حينها لن تعد

تفكر لا بالكراء ولا بصداق الجامعة. داعبت وجهى برؤوس أصابعها. -ماذا تقصدين ببدء حياة جديدة؟ سألتها مشدوها. -قصدي أن القدر شاء أن يجمع بيننا، لذا يجب عليك أن تنصاع لمشيئة القدر وتدفن بقايا حبك المنكسر، لتبدأ حبا جديدا لن يفنى. -المسألة تتطلب وقتا طويلا للتفكير لمياء. تهديت. -رجاء كوتشو لا تحاول أن تفكر في الحب مرة أخرى، فبالفكير يُهدم الحب عزيزي. وأضافت: الحب مُسَلِّمَةٌ يسَلِّمُ بها القلب، اسمع صوت قلبك الذي يقول نعم لأنه يشبه قلبي. نحن نشترك في كل شيء حبيبي، الفرق البسيط بيننا هو أنني عربية وأنت أمازيغي، لكن هذا الاختلاف هو الذي سيعزز علاقتنا ويؤبدها. مررت يدها على شعري وتابعت بإلحاح: أنت في السنة المقبلة ستنال شهادة الماستر في الفلسفة السياسية وستصبح أستاذة للفلسفة، وأنا سأنتقل إلى صف الباكلوريا وسأبلغ السن القانوني للزواج، وسنقيم بعد ذلك زفافا به نقلب الدنيا، لكن إياك أن ترتدي النظارات الطبية أثناء عرسنا، اتفقنا؟ أنا أريدك أن تبدو فاتنا أكثر، أريد أن أفقأ عيون صديقاتي الحسودات، ما رأيك حبيبي؟ عضت على لسانها. -نعم اتفقنا، قلت بعد شهقة عميقة محاولا إرضاء رغبتها، لأنى لا أحبها، أنا أحب فقط فكرة تلاشي كينونتها فيّ ومن ثمّ أتحوّل إلى ومضةٍ وأختفي إلى الأبد؛ كقنديل بحرٍ مُضيءٍ وشغوف. -لا يمكنني أن أصدق؟ قالت بعدما وافقت على رأيها

وشبكتُ أصابعها على رأسها ثم راحت تلثمى في خدى بعنف، حبيبي أنت يا كوتشو، سأحملك فوق أهدابي، أنا فخورة جدا حبيبي، أنا لست مولا حتى أتخلى عنك ولو طرفة عين. -يا لك من طائشة كالفراشة! كانت في تلك اللحظة تمسكنى من أذنى الصغيرتين بعنف دون أن تشعر، وعيناها شلالان من الدموع المنسابة على وجنتيها من شدة الفرح، بدت كسجين أُفرج عنه للتو بعدما أفنى سنينا في ردهات الزنازن، كانت تثرت كثيرا سكرانة برحيق الحب، فيما أنا غارق في صمت مطبق وناكس رأسي، لم أكن أفكر في شيء آخر غير مولا. - أنظر إليّ حبيبي، أنا وأنت سنكون أسعد شريكين في الكون بأسره، وبما أنك ستصبح أستاذا فإننا سنحظى بالاستمتاع بعطلك المتكررة، حيث سنسافر في عطلة الصيف إلى الصحراء ونسبح معا في شاطئ پورتوريكو ذو المياه الزمردية والمنعشة، وبعدها نتجه شمالا إلى شاطئ مارتشيكا في الناظور لنتلذذ بنشوة الحياة، لقد زار بابا وحيدا هذه المناطق في سفريات خصصتها شركة النقل الدولي لموظفيها دون أن يُقلنا معه للأسف، لكنه التقط لي صورا جميلة لتلك المناطق لازلتُ أحتفظ بها، إنها مناطق تتمتع حقا بمناظر بديعة. -اقتراح ممتاز لمياء، وماذا عن عطلة الشتاء؟ إلى أين تفضلين أن نسافر؟ طرحت السؤال كي أظهر لها اهتمامي الكاذب وأشعلت سيجارة أخرى. -أكيد سنسافر إلى جبال الأطلس الكبير العائمة في

الثلج. اقترحت. لم أملك نفسي غضباً حين ذكر الثلج فوثبتُ، فدنوتُ منها، فقلتُ مرتبكا: -الثلج؟ أنتِ حمقاء؟ وقد فعلتُ ذلك لأنني كنتُ أكره الثلج وأعاني من رهاب تجاهه، بحيث هو من سلبني أبي وممتلكاتنا الصغيرة، ولو كنت أملك نار جهنم لأحرقت الثلج اللعين، فهو الذي حرم أختي الصغيرة تيليليا التي كانت تبلغ من العمر حينذاك ثلاث سنوات، حرمها من أفضل ما كانت تملك وهو نعجتها التي أهداها لها أبي بمناسبة عيد ميلادها الثاني والتي أطلقنا عليها اسم تُودرتُ. كانت تيليليا المسكينة تطوف حول المنزل مثل الخذروف وتردد باكية تودرت.. تُودرتينو.. أريد تودرت، وعيناها نافورتان من الدمع. لقد سلها الثلج نعجتها ووالدها أيضا الذي كان يسافر كل فجر يوم أحد إلى مدينة ورزازات لبيع خروفا أو صندوقا من التفاح الطازج، ويشترى لنا صنوف الخضروات وأنواع الفواكه من السوق الأسبوعي، دون أن ينسى شراء الذرة المحمصة لأختي الصغيرة التي كانت تنتظره دائما بقدمين حافيتين أما باب منزلنا الطيني؛ واضعة سبابتها في فمها عليها سمات الحزن، إلى أن يظهر لها أبي عند الغروب بجلبابه البني يصعد الجبل مقاوما عثرات الثلج ووقفته الثقيلة على كتفه، فينبسط محياها وترتسم على شفتيها ابتسامة فاترة، والآن ذاب الثلج وذابت معه ابتسامة أختي البريئة، ذابت الذكريات، ذاب جسد أبي بين أحضان الثرى وذاب المستقبل بين عيني في وطن يُدعى

المملكة المغربية! لقد أثارت ردة فعلي عند سماع كلمة ثلج استغراب لمياء فسألتنى إن كانت لى مشكلة مع الثلج، بئد إننى أثرتُ الأّ أكشف لها عن سر الأمر، مع العلم أننى قد سبق وقلت لها إن الثلج كان قاتل أبى لكنها لم تتفطن إلى ذلك أبدا، إنها مشغولة بالحب على ما يبدو. -لى لى مشكلة مع الثلج إطلاقا، بالعكس أنا أحب الثلج. كذبتُ. -جمىل أنا أيضا أعشق الثلج وكثيرا ما كان بابا يحمىنا إلى مدينة إفران فلهو بكُرات الثلج، بل كنت أنا وأخى آدم نصنع رجلا من ثلج ونزىنه بأوراق الأرز، لكن للسفر مع الحبيب طعم من نوع آخر، ألى كذلك حبى؟ -بلى. أكدتُ. -إذا لن نتردد يا كوتشو بعد الزواج فى السفر شتاءً إلى جبال الأطلس الكبىر المتشحة بستائر الضباب، نرقص معا، نغنى معا، ونتضاجع فوق الجلىد، بىنا نُدْفُ الثلج تتساقط على رؤوسنا! -فكرة ممتازة. غمغمتُ محدقا فى الفراغ. استمرت فى ثرثرتها كالنساء الأرامل هائمة فى مستقبلها الخرافى وأحلامها الزائفة، دون أن تلتزم الصمت دقىقة، بل أكثر من ذلك أمضت تتفوه بكلمات ساقطة مما جعلنى أحرز أنها فتاة موصوفة بالذام، كثيرة الكلام. وقد كانت أمعائى الفارغة فى ذلك الحى تعزف سىمفونية الجوع بصرىر مجلجل، غىر أن هذه المراهقة العنىدة أبت أن تغادر الحدىقة، فجأة انقطعت ثرثرتها على وقع رنىن هاتفى الذى أبدى رقما غىر معروف، تسمرتُ فى مكانى دون حراك، ورحتُ أحملق

فى الرقم المجهول دون أن يطرف لى جفن. سألتنى لمياء إن كنت أعرف هذا الرقم فأجبتُ بالنفى، ثم استأذنتها لحظة كي أتمكن من الإجابة على المكالمة منفردا فأومأتُ موافقة. تواريتُ خلف شجيرة كانت تلهو مع الريح فى الظلام، ونقرت على الزر الأخضر. -مرحبا، من معى؟ حبستُ أنفاسى. -أهلا أنير كيف حالك؟ أنا لىلى. ردت. -أنا بخير لىلى، لكن من تكونين حضرتك أنا لا أعرف فتاة بهذا الاسم؟ أخفضتُ صوتى. -اتصل بهذا الرقم وستعرف من تكون لىلى، مع السلامة أنير. انقطع الاتصال. فاتصلتُ بالرقم نفسه فردت نفس الفتاة. -أهلا أنير، شكرا على الاتصال. -لا داعى للشكر لىلى، لكن هلا شرفتني بمعرفتك، فأنا إلى حدود الساعة لم أذكرك. -لا يهم صديقى، ثمّة فتاة ترغب بالحديث معك، هل أنت مستعد لذلك؟ -ومن تكون هذه الفتاة؟ -إنها مفاجأة. -أجل أنا مستعد. -ألو فيلسوفى العزيز، أجبني صوت فتاة أخرى. -هذا الصوت ليس بالغريب عني، أنت مولا فلا تكذبي عليّ. تلجلج لسانى. -أوه، لم تنس صوت حبيبتك. ردت. -أنت تخليت عني وحظرتني من جميع مواقع التواصل الاجتماعى، لم فعلت ذلك؟ -أسفة حبيبي، فى الحقيقة أنا لم أتخل عنك، ولن أفعل ذلك مهما يحدث، لقد وعدتك بأننى لن أتركك لمحة بصر، فقط كنت متوترة فى تلك اللحظة كوني تنازعت مع إحدى صديقاتى التى خاب ظنى فيها، مما أفضى بي إلى أن أكره الجميع مؤقتا، أرجوك اغفر لى،

أنت حبيبي الذي يستوطن قلبي. -أنا صفوح يا غاليتي لذا سأتجاوز
عن فعلك اللاإرادي، حتى وإن كان من نبع إرادتك فإنني لن أؤاخذك
على ذلك كونك حبيبتى، رغم أن قلبي كاد يتفطر، لقد عانيت مرارة
الشغف يا مولا فما طاب لي طعام ولا نوم، بل صرت في بعض
الأحايين أفكر بالانتحار، لم أتقبل فكرة أن حبيبتى مولا ستتخلى عني
بين عشية وضحاها. بالغت. -أنا بليدة.. أنا بليدة، أنا أستحق الجحيم
لأنني أحزنتك.. عفوا أنا لا أستحقك يا أنير، تأففت باستياء كبير من
شدة الندم وأضافت: أرجوك سامحني فأنا لن أستطيع أن أنساك
ولو مزقوا شراييني، لقد اشتقت إليك كثيرا. كانت تبكي. -لا داعي
للبيكاء حياتي، فأنا أيضا اشتقتُ إليك. -حبيبي أنا محتاجة إلى رؤية
عينيك، أريد أن أتحسس خديك بحنان، أليس لديك عطلة لتأتي إلى
مراكش، أنا لم أعد أستطيع الصبر حياتي، قالت بلكنة صحراوية. -
نعم حبيبتى يوم الثلاثاء القادم ستكون عطلة المسيرة الخضراء،
وسأسافر إلى مراكش حيث سيحتفل الوطن بأكمله بالماضي
وسنحتفل نحن بلذة الحاضر؛ إذ سنمارس الحب ونتبادل القبل بين
جدوع النخل في مدينة الحب، كما أنني سأبقى في مراكش أسبوعا
كاملا لأستلم النسخة الأصلية لشهادة الإجازة من جامعة القاضي
عياض، فلم يكن لدي الوقت لاستلامها من قبل، وهذه فرصة جيدة.
-أسعدتني حبيبي، إذا سأنتظرك بفارغ الصبر. وأضافت: قل لي حبيبي

كيف حال كازابلانكا؟ -كازابلانكا مشغولة هذه الأيام بالمظاهرات والمؤخرات الكبيرة، وأنا يا حبيبتي أحاول أن لا أقع في هذا الفخ. ضحكت ثم قالت: وداعا حبيبي، صديقتي تريد هاتفها، أحبك بعرض الصحراء حياتي. -وأنا أحبك بطول المملكة المغربية؛ من طنجة إلى الكويرة. -وداعا حبيبي. تودّعنا وأغلق الخط.

انتابتنى فرحة عارمة، إذ لم أصدق أن مولا ستعود إلى أحضاني، شعرت وكأنى ولدت من جديد، فركضت نحو لمياء التي كانت جالسة تعبث بهاتفها، وقفت مستغربة من ركضى فعانقتها عناقا طائرا معبرا عن موقف فرحي الطافح. -ما بك كوتشو ماذا جرى؟ لماذا فعلت كل هذا؟ تساءلت في مزيج بين الحيرة والابتسامة. -أنا جد سعيد يا لمياء. شهقتُ بعمق. -من اتصل بك اشرح لي؟ ترددتُ في الإجابة على أسئلتها إذ كنتُ حريصا على ألا تفر الحقيقة من بين شفتيّ محاولا اصطناع كذبة متقنة فقلتُ: -لقد اتصل بي صديقي الذي يدرس رفقتي بسلك الماستر وأخبرني أن المنحة الدراسية ستُصرف الأسبوع المقبل. تلعثمتُ. -أحقا؟ هنيئا لك سررت بذلك حبيبي، هذا يعني أنك ستدعونني إلى وجبة العشاء الأسبوع المقبل في مطعم باذخ؟ -ولم لا؟ أنت تستأهلين ما هو أفضل من هذا بكثير. -شكرا كوتشو كنت فقط أمزح هنيئا لك مجددا. -هيا لنصرف فالسماء مُثقلة بالغيوم. -أجل سننصرف الآن، لقد تأخرنا مما يعني أنه لزام عليّ أن أكذب على ماما

مرة أخرى فأخبرها أنني ذهبت مع ابنة عمي ندى إلى منزلها. ورحنا نتأهب لمغادرة الحديقة المخيفة حيث طفقت لمياء تربط شعرها الذي عاد نديا بفعل رطوبة المساء، بيد إنَّ رجلين عريضا المنكبين اعترضنا طريقنا على حين غرة واقتربا منا حتى صرنا نسمع أزيز أنفاسهما، يظهر من هئئتهما أنهما شرطين بلباس مدني، ودوي الراديو اللاسلكي الصادر من جيوبهما هو الذي جعلني أفترض ذلك. - مرحبا. غمغم أحدهما. - أهلا سيدي. أجبته. - ماذا تفعلان في هذا الظلام الدامس؟ سأل الآخر. - لا شيء حضرة الشرطي، كنا فقط نتسكع. - تتسكعان في العاشرة ليلا وفي مكان مظلم؟ وأضاف: أعطني بطاقة هويتك. - لم أحملها معي. ارتبكتُ في الكلام. - إذاً ستؤدي ثلاثمائة درهم كغرامة، هذا ما ينص عليه القانون. - لم أحمل معي ولا درهما حضرة الشرطي. تمتتُ. - سمير أنظر إنه كان يمارس الرومانسية مجانا، قال إنه لا يملك درهما. - إنه الحب في زمن المجاعة. رد المدعو سمير. - ورغم ذلك يبدو أن هذه العاهرة تحبه، قمة الوفاء يا صديقي. أجابه الآخر. - إنك لمحظوظ جدا أن تملك قبلة موقوتة وتعيش على نفقاتها. ربّت سمير على كتفي. - إي، ألا تملكين أنتِ ثلاثمائة درهم لإنقاذ حبيبك من التجمد أربعاً وعشرين ساعة في زنزانة نتنة؟ سأل الشرطي لمياء ساخرا. - أنا أيضا لا أحمل بصحبتى نقودا، لكني أفضل المبيت معه في الزنزانة. - يا لك من كلبة

وفية. غمغم أحد الشرطيين. وتابع: وماذا عن بطاقة هويتك أنت؟ -
 لم أبلغ السن القانوني للحصول عليها. -آه حسنا، كم عمرك؟ -ستة
 عشر. -إذا أنت تتسكع رفقة فتاة قاصر في دجنة الليل وفي مكان
 مشبوه، وأنت صرحتَ بذلك عندما قلت أنكما كنتما تتسكعان. -لا
 سيدي، أقصد أننا كنا نتسكع قبل غروب الشمس ولما حل الغسق
 والحق يقال قررنا أن نراجع دروسنا تحت ضوء الإنارة العمومية
 استعدادا لحصة الغد الدراسية. -فريد أنظر إلى هذا المخاتل قال
 أنهما كانا يراجعان دروسهما، وأنا لم أبصر أية ورقة أو كتاب، هل
 كان يهبط عليهما الوحي مثلا أم ماذا؟ سأل صديقه باستهزاء. -أعني
 أننا كنا نراجع شفهيًا. تلعثمتُ وأنا أمضغ ريقى. -أعدك أنك إذا
 أضفت كلمة أخرى فإني سأقتلع خصيتيك من مكانهما. اكتنف
 الغيظ شفتيه. -أخرجنا ثلاثمائة درهم حالا، لن أكررها ثانية وإلا
 لفقتُ لكما جريمة الإخلال العلني بالحياء العام، التي يعاقب عليها
 الفصل 483 المدرج في القانون الجنائي بالحبس من شهر واحد إلى
 سنتين، وبغرامة من مائة وعشرين إلى خمسمائة درهم. أما أن
 تخضعوا هذه الليلة لتدابير الحراسة النظرية لدى مركز الشرطة
 القضائية فهذا مما لا مرية فيه، وذلك كي يتحقق ضابط الشرطة
 من هويتكما المجهولتين. -أنت قلتَ جريمة الإخلال العلني؛ أي إن
 القانون اشترط توفر العلانية في هذه الحالة، ونحن كنا في الظلام

الدامس كما صرحتَ أنتَ بنفسكِ حضرة الشرطى، وأنتِ تعلم أن العلانية منعدمة فى الظلام، فكيف إذا سيعاين ضابط الشرطة القضائية جريمتنا هذه إن كنا حقا قارفنا جريمة؟ سألت لمياء وعيناها تقدح شررا فارتبك الشرطى وسقطَ فى يديه. وتابعتُ تقول له وهى تصرخ فى وجهه: إذا أتركنا وشأننا لقد مضى وقت القمع نحن أحرار فى فعل ما نشاء. -كيف تجرئين أيتها القحبة الصغيرة؟ أمسكها من عنقها. -وُلدتُ عام ألفين وتحدثت عن الحرية، سأعلمك إذا معنى الحرية أيتها الصبية. تتمم الآخر. -نعم بنت العام ألفين وأعتز بذلك، أبناء العام ألفين هم من سيغيرون مجرى الوطن ويبددون ظلماتكم القديمة. تسرب الغيظ من شفتي لمياء. -هل ستغيرونه بسر اويلكم الكاشفة عن مؤخراتكم، أم بشعوركم المزوقة؟ لا أظن أن جيلا يرقص فى التيك توك سيغير الوطن يا بنيتى. ضحك الشرطى ساخرا، فبصقت لمياء فى وجهه وراحت تسبه بألفاظ نابية دون أن تتوقف عن السباب قيد أنملة. -يا لك من مذياع ثرثار سأهشم وجهك أيتها العاهرة الشمطاء. ثم صفعها على وجهها فأدمى شفيتها حتى ارتمت أرضا، لم أستطع أن أتمالك أنفاسى فحاولتُ صفعه أنا الآخر، لكن زميله تدخل بعنف قبل أن أفعل ذلك فأمطرا وجهى بوابل من اللكمات حتى هويت على الأرض فراحا يرفسانى بأقدامهما، أحسست لقاء ضرباتهما أن الدنيا بدأت تتداعى فوق رأسى، خاصة عندما رأيت

إصبعى الملتهب ينزف من جديد، حينها أدركت أنني سأمتح مرة أخرى من معين الأسى، وأن البرد القمطير سيفتك بجسدى النحيف في إحدى الزنازن الآسنة، بعد ذلك قام الشرطيان بليّ أذرعنا خلف ظهرنا واقتادانا معا نحو سيارة الشرطة المركونة جنب الرصيف.

-8-

صعدنا سيارة الشرطة، وجلس على مقربة منا أحد الشرطيين الذي ما فتئ يحدق إلينا بنظرات تنبئ عن ليلة مأساوية، فيما جلس الشرطي الآخر في المقعد الأمامي إلى جنب السائق. كانت السيارة تمشي مسرعة فيما الطريق يذوب تحت عجلاتها، وما هي إلا لحظات حتى سحّت السحائب وبرقت البوارق، فصار المطر الغزير يدمغ سقف السيارة محدثا طقطقات تذكرني بسنوات الرصاص التي كان يحكي لي عنها والدي. ظلّت لمياء ناكسة رأسها والدموع تحفر خديها، بينما يديها مشدودتان خلف ظهرها، وعند كل منعطف تتمايل فيه السيارة التي تسير بسرعة؛ كانت لمياء المسكينة تتزحزح عن مكانها فتدحرج نحو قدم الشرطي الذي يجلس قبالتنا، لتفوز بركلة على الظهر، أما أنا فقد كنت مسمرا في مكاني دون حراك، أنظر إليها وأعض لساني، وفي تلك اللحظة بالذات قام الشرطي من مكانه فمسك لمياء من ذراعيها وأجلسها في مكانها. تلمظ لسانه وهو يجرها قائلا: -أف هذا ما كان ينقصنا، يا لك من فتاة ثقيلة! أمثالك هم من

ابتلعوا ثروات هذا البلد السعيد، لكن لا بأس، فهذه الليلة ستفقدون نصف وزنك. -كأبرون، تعتعت لمياء بإسبانية غير مسموعة. -هذا إن لم تتجمد من البرد. ارتجل الشرطي السائق وهو ينفث دخان سيجارته. -أمثال هؤلاء لا يتجمدون، فالحرارة تنبعث من مؤخراتهم. رد الشرطي المسمر أمامنا.

استمر رجال الشرطة الثلاثة في الثثرة غير مكترث لكلامهم، إذ مكثت أجول بنظري في أنحاء جسد لمياء الحزينة، كان يبدو لي جسدها النضّاح كمجرة تضيع فيها ملايين المذنبات المحترقة، كان ثمّة شيء ما يشدني إلى روحها المحببة إليّ مسبقا، وكأنني أحببتها يوما، أو كنت أحبها في عالم المثل، وما أقوم به الآن هو تذكر ذلك الحب، وفي نفس الوقت فكرت بحبيبتى مولاّ التي أضحت جزءا من وجودي، بل وجودي كله، وافتقدتها في هذه اللحظة بالضبط حيث أمسى كل شيء من حولي كئيبا ومفعما بالفوضى، ومولا هي الفتاة الوحيدة التي تجيد ترتيب قلبي كلما اجتاحتها رياح الحزن العاتية، لقد شعرت بحبيبتى في هذه اللحظة الحرجة وأحسستُ بها تدب في مفاصلي.

توقفت سيارة الأمن في إحدى المفوضيات، ففتح أحد رجال الشرطة الذي كان في الخارج الباب الخلفي للسيارة؛ كان يرتدي معطفا مشمعا ومبلا بزخات المطر، صافح السائق وقال له باستهزاء: -هل هذه خرفان جديدة سيدي المحقق؟ -نعم، بل سمينة كذلك، كانت

تقتات على أعشاب الحدائق. أجاب الشرطي دافعا إيانا للنزول من السيارة. لم ننبس أنا ولمياء بننت شفة طيلة رحلتنا القصيرة، وحينما نزلنا من سيارة الأمن نظرتُ إلي لمياء بعينين طافحتين بالدموع وقالت بصوت مبحوح: -كوتشو إني أشعر بالبرد، وأضافت: هل سيعيدوننا إلى المنزل بعد أن يستجوبوننا؟ الله أدري بحال ماما الآن، يالها من مشكلة يا كوتشو، أما إذا قدر الله وعاد بابا من السفر فالمشكلة ستكون أعظم بكثير. فلم أستطع أن أجيها وعبرنا مدخل مفوضية الشرطة، وقد تراءت لنا هذه الأخيرة هادئة وشاغرة مثل باحة مدرسة في فصل الصيف وكأن المجرمين مضربون ساعتئذ، لم يكن ثمة سوى رجلا مُكْرِشا ذو شارب بارز، يحمل في يده اليمنى الراديو اللاسلكي، يظهر من هيئته أنه رجل يقف على أعتاب الخمسين، حمله فينا باحتقار شديد ثم سأل الشرطي الذي كان يمسك بذراعينا كمجرمي حرب: -ما بال هؤلاء؟ -لقد وجدناهما حضرة الضابط متلبسين في إحدى الحدائق المظلمة، ولم تكن بحوزتهما بطائق هوية. -أنت، ما اسمك؟ وجه إلي الضابط السؤال وهو يحاول رفع سرواله. -أنير أزنالك. أجبتُ على السؤال. -ماذا تفعل في الحياة؟ -طالب ماستر في كلية ابن مسيك. -وأنت ما اسمك؟ سأل لمياء بعدما أمر الشرطي بالانصراف دون أن يفك قيودنا. -لمياء البصري. ابتلعت جارتى المراهقة ريقها. -هل تدرسين؟ -نعم أدرس. -أعطني رقم هاتف

والدك أو والدتك حتى يتسنى لنا إشعارهما. -لا أملك هاتفاً لأمدك بأرقامهما، ولا أحفظ الأرقام لسوء الحظ. -وأنت؟ أشار إلي وهو يحك لحيته ثم قال: أعطني رقم هاتف والدك أو والدتك. -ليس هناك أي رقم حضرة الضابط، فوالدي متوفى ولم يترك لأمي هاتفاً لأننا نقطن في قرية خارج التغطية والجبال تحيط بنا من كل جانب وليس لدينا... -كفى، كفى لم أمرك بسرد قصتك. أخرجني الضابط. وتابع: عموماً سيتم اعتقالكما حتى يأتي ذويكما. هذا ما يقوله القانون. -لا، لا تفعل، يمكنكم أن تحملوننا بسيارة الأمن إلى مساكننا، لا يمكنني البقاء هنا أرجوك، فمما ستفقد عقلها بالبحث عني. -لا أريد سماع أية كلمة أخرى. أشعل الضابط سيجارة واستطرد: أنا من يقرر هل ستمكثان هنا أم لا، ولا رقيب لي في عملي، ولي أن أحجز أي شخص لأيام وساعات دون إخبار النيابة العامة وعائلته، بل يمكنني حتى أن أسجل محضراً يخالف الحقيقة والواقع، فاغرباً إذاً عن وجهي. صبّ الضابط جام غضبه علينا وصاح بالشرطي: إي، أنت، أحشر هذا الخراء في الزنزانة حتى نرى ماذا سنفعل بهما. -حاضر سيدي الضابط. تمتم الشرطي في إجلال. -أف. بصق الضابط عند أقدامنا وهو يرفع سرواله من جديد.

جرجرنا الشرطي نحو القبو الذي كان شبه مظلم، وزجّ بنا في زنزانة تضوع برائحة الرطوبة التي تزكم الأنوف، فك وثاقنا دون أن يتكلم،

ثم أغلق باب الزنزانة ومضى حيث تلاشى في الظلام، لم نعد نسمع شيئاً سوى صليل حذائه وهو يضيع في المدى طَقْ، طَقْ، طَقْ... تفاجأت لمياء بالمكان الغريب وكأنها ولجت عالم نيفلهمايم المخيف؛ اليدان غارقتان في الجيب من شدة البرد، والفم فاغر والعينان مركزتان على سقف الزنزانة المُخضِرّ بفعل رواسب الرطوبة ونداوة الهواء، فيما صمتٌ مطبقٌ يكتسح المكان. طفقت لمياء ترتعش، ولما تلمستُ يدها وجدتها باردة كالموت، فخلعتُ عني معطفي وألبستها إياه خوفاً عليها من ضِرِّ الصِّرِّ، فرمتني بنظرة جريحة وقالت: - كوتشو لماذا لا يوجد أحد في هذا المكان، أين ذهب السجناء؟ - لقد ذهب الجميع إلى الجحيم، ذهب الجميع يا صغيرتي، أنا أيضاً ذهبتُ، لكنني عدت باكراً. باغتتنا صوت من الظلام أصدرت لمياء إثره صرخة مدوية وتمسكت بي من شدة الخوف. - كوتشو أين نحن؟ أنا خائفة. - لا تخافي صغيرتي أنتما في زنزانة الحكمة، مرحبا بكما عند الحكيم بيدرو.

لا أنكر أنني أضحيت جباناً رعيدياً أمام فخامة الصوت المجهول، حيث قَفَّ شعر رأسي وأخذتُ ألتفت ذات اليمين وذات الشمال، إلى أن وقعتُ عيني على رجل كهل؛ أشعت الرأس، ذو لحية كثة وشارب كثيف يملآن وجهه، كان في الزنزانة المقابلة يمسك بالقضبان الحديدية ويحدق إلينا تحت ضوء خافت، صمتٌ للحظات ثم صرخ

فى وجهىنا قائلًا: تبا لكما أيقظتمانى من نوم قريـر. ثم استدار نحو ركن الزنـانة وجلس، فضممتُ لمياء إلى صدرى وأخذتُ أربتُ على كتفها الأيمن وأقبل رأسها كي أهدئ من روعها. كان دمعها ينهمل وصدرها يخفق، رفعتُ رأسها إليّ فقرأتُ الخوف يرفرف فى عينيها. -
لاشك أن ماما فتّشت عني فى جميع بيوت صديقاتى ولم تجد لي أثرا، فىا ليتنى كنت أملك هاتفـا. -العالم بأسره يملك هاتفـا إلا أنتِ ولا أعلم ما سبب ذلك. -سيشترىه لي بابا هذه المرة. -لا أعلم متى سيحدث ذلك يا صغيرتى. -سيحدث قريبـا لن يتأخر ذلك، وأول شخص سأتصل به بعد اقتناء الهاتف هو.. -هو من؟ -احزر ذلك يا كوتشو. -البابا. خمنتُ. -أخطأت. -ومن سيكون إذاً؟ -أنتِ يا كوتشو. -وهل تعرفين رقمى؟ -سأحفظه ما إن يخرج من بين شفـتـيك. -هل أنتِ مستعدة لتحفظيه الآن؟ -بالطبع. -ركزي إذاً جيدا فرقمى هو: 066194447773 -يا إلهى رقمك سهل، لقد حفظته بسرعة اسمع: 066194447773. -أحسنتِ يا ذكية. -أنا ذكية وحزينة. -لماذا حزينة؟ -بشأن ماما. -لمياء لا تحزنى، أمك لن تبيت مكتوفة الأيدي، فهى امرأة ذكية وستبحثُ عنك فى مخافر الشرطة ومن ثمّ سيبلغونها بمكان وجودنا. -وبم سيتعرفوا إلينا ونحن لا نملك بطائق هوية؟ -بمجرد أن تصف لهم أمك ملامحك حتى يرسمك هؤلاء الأوغاد فى مخيلتهم وقياسا على ذلك سيتعرفون إلي. -وبم سنخبر ماما بعد أن تعثر

علينا؟ -لا مجال لصنع أية كذبة يا لمياء، إذ لا يمكننا أن نغطي الشمس بغربال، وأنت تعلمين أن الحقيقة يستحيل إخفاؤها لأن لها بذورا تنبت حتى في القفر ولو بعد ربح من الزمن. -في الواقع كنت غيبا يا كوتشو عندما نسيت بطاقة هويتك، ومن يزرع الشوك لا يحصد به عنباً، حيث لو كنت أحضرتها ما كنا لنقع في هذا المأزق. -
 الإنسان كائن ينسى بطبعه يا لمياء، وما سمي إنسانا سوى لأنه عهد إليه فنسي، وإياك أن تنعتيني مرة أخرى بالغبى. حذرتها. -الإنسان مفرد أناسين وتصغيره أنيسيان وهو مشتق من الإيناس أي الإبصار، أما سبب تسميته إنسانا فلأنه يحتاج إلى المؤانسة أيها الغبى، ألا تراني حزينا فقط لأنني وحيد ولم أجد من يؤنس وحشتي؟ فسّر المعتقل بصوته الغليظ وهو يتأهب للوقوف. -أصمت، إياك أن ترد على كلامه، إنه ثمل ولن يكف عن الثثرة. همست لمياء. -اطمئني لن أفعّل.

استقام الرجل السكران واقفا داخل زنزانته، وأضحى يعرّب بأعلى صوته: -أطلقوا سراحى يا أبناء العاهرة، أفرجوا عني وإلا تغوطت على رؤوسكم جميعا. فانفجرت لمياء ضاحكة دون أن تستطيع كبت ضحكتها، ثم سكت العرّيد بعدما أعياه الصراخ وجلس في ركن الزنزانة. -حبيبي هل تأذن لي أن أدرش معه قليلا؟ أحب الحديث إلى السكارى حيث أحظى بقهقهات تفرج الكرب. -وما هذا التناقض؟

قبل قليل كنتِ تحثيني على الصمت خوفا من ثرثرة هذا السكير
والآن تودين الحديث معه، على أيّ، أظنه لن يجروا على عضك مادام
محجوزا داخل قفصه، ونهضتُ من مكانها مقترية من باب زنانتنا
وهي تهفو لطرح أحد أسئلتها البليدة. -سيدي لماذا جاؤوا بك إلى هنا؟
فقام السكران برشاقة لما سمع سؤالها وأسند يديه على القضبان،
حملق فيها جيدا من القلّة حتى الحضيض، ثم صمت برهة وقال:
هذا لا يعنك، سحقا لكم أيها المغاربة، كم تحبون إقحام مناقيركم
في الوحل كالديجاجة البرية. تفاجأت لمياء من رده العنيف وتراجعت
خطوتين إلى الوراء. -وأنتما لماذا جاؤوا بكما إلى هنا؟ سألهما وهو يكرع
خمرا. وتابع: آه، فهمتُ، أظن أنهم وجدوكما تمارسان الجنس خلف
جدران الثانوية كما تفعل الكلاب الضالة، يجب عليكما أن تشكرا
رجال الأمن لأنكما كنتما ستمارسان الرذيلة تحت المطر، وبذلك
كنتما ستقعان فريستين للمرض. قهقه السكير في حين استشاطت
لمياء غضبا من كلامه. -أنظرا من حولكما كم هو دافئ هذا المكان
ومناسب للحب، هيا ماذا تنتظران؟ سأصفق لكما بحرارة، فقط
متعا عيوني الناعسة.

تركناه يستمر في نباحه كما يشتهي دون أن نتفوه بحرف واحد، حيث
كانت لمياء تجلس بعيدة عني في ركن من الزنزانة خافضة أنظارها
والدمع يظفر من عينيها، بدت نادمة على جسارتها التي جلبت علينا

هذه الثثرة القميئة، لأنه لولا سؤالها الفضولي لكان الآن شخير هذا
 السكر بلغ علياء السماء. -هيا أيها العندليب الأسمر، تشجع، لا
 تخجل أيها المحظوظ، التهمها، إنها تبدو مثل تفاحة طرية وطازجة،
 افعل هذا الآن، لا تثق بغصن الفاكهة، أقطفها هنا والآن، لو إنني
 كنت مكانك أيها العنين لقفزت فوقها كفارس من العصر الأموي،
 لكن الله لا يهب الفول إلا لمن لا أضرار له. غمزني لاعقا شفثيه
 ويداه ممددتان خارج القضبان ثم شرع يقهقه كالمجنون، فيما
 واصلتُ أنا ولمياء صمتنا غير آبهين بترهاته. -لم لا تجيبا؟ ألم يعجبكما
 كلامي؟ حك لحيته. فلم نرد عليه. -إي، أيها الأسمراني لم لا تنطق
 بكلمة؟ ناداني السكر وتابع: يالك من بليد؛ العشاق يحملون
 عشيقاتهم إلى قاعات السينما ويشتروا لهن الفُشار وأنت جئت
 بحبيبك إلى أقبية المتشردين لتتفرج على مؤخرة سكير يدعى بيدرو
 الوسيم. كبتت لمياء ضحكها ومسحت دمعها. -سيدي، لم تشرفنا
 بعدُ بشخصك؟ اقترحتُ رغبة في أن يغير هذا العرييد موضوعه
 الحقير. -أشرفك بنفسي؟ أصدر قهقهة مطولة ثم تمتم: ذكرتني بأول
 لقاء كان لي مع حبيبتي، لكن على أية حال سأعرفك بنفسي: أنا اسمي
 بدر لكن في حومتنا ينادونني بيدرو، أنظر، بيدرو الوسيم. صرّح وهو
 ينظر إلى أسماله المهلهلة. -وهل أنت كازاوي؟ سألته لمياء. -أنا كازاوي
 يا يمامتي، ترعرعتُ في كنف حي سيدي مومن داخل بيت قصديري،

لكن أصولى تنحدر من مدينة الشَّمَاعِيَّة التي كنت أقضي فيها العطل الربيعية عند جدتي، وأنا الآن أبلغ من العمر تسعة وأربعين عاماً. بدا بيدرو رائق المزاج. -وأنت ألا تملك اسماً؟ وجه إليّ السؤال. -أنا اسمي أنير. -لا، إنه يكذب، اسمه كوتشو وليس أنير. اعترضت لمياء. -كوتشو؟ ضحك بيدرو وقال: لو كان أشقراً ويتحدث الإسبانية لصدقتك، لكن بما أن الاسم أمازيغي واللكنة أمازيغية فسأصدقه هو. -حتى كوتشو اللاعب لم يكن أشقراً. فسرت لمياء. -وأنت ما اسمك؟ إياك أن تقولي لي إيستريلاً أو مانويلاً. ضحك بيدرو. -اسمي لمياء. -اسم جميل ويظهر من لكنتك أنك كازاوية صرفة. -تماماً، أنا من حي مولاي رشيد. -حي مولاي رشيد؟ تساءل بيدرو مشدوها. وأضاف: ذاك حي خطير حقاً، يجسد الشعور بفقدان الأمان والخوف من حُمرة الدم، لقد قام مرة بعض المجرمين بفرم لحمي هناك بسيف حاد وحاولوا قتلي بدم بارد، ولم ينفعني غير الفرار. قال بيدرو ذلك وزمّت لمياء شفرتها. -عموماً لقد تشرفت بمعرفتكما، ومحظوظ جداً لأنكما ستؤنسان وحشتي هذه الليلة، كما أتمنى أن يفرج عنا أولئك الأوغاد قبل طلوع الشمس. ابتسم بيدرو.

بدا بيدرو هادئاً شيئاً ما، بل متعقلاً كما يظهر من أسئلته، وكأن الخمر بدأ يفارق روحه، سراويله الرثة ووجهه المدفون في لحيته لا يوحي أبداً بأنه رجل مجرم، بقدر ما يدل على رجل بسيط، عاقر

الخمير فخانه هذا الأخير. لم يكن بيدرو من عشاق الصمت أو ليقع ضحية النوم على بلاط بارد، لكن صمتنا غلب ثرثرته، فاستسلم هو الآخر لحكمة الصمت إذ غدا القبو هادئاً كهدوء يوم ربيعي. كانت لمياء لا تتحدث معي إلا نادراً وذلك بعد أن أبادر أنا أولاً بالكلام، حيث كلماتها تندلق على قلبي مثل نداوة الشتاء، إنها تتحدث بعد صمت رهيب، وفي كل مرة تتحدث فيها كانت كلماتها تخترق حجاب الصمت، كان سكوتها يذكرني بأن الصمت هو أصل كل الأشياء، منه انبثق كل شيء وإليه سيعود العالم بأسره؛ سيبتلعه الصمت الفسيح لا محالة في لحظة ما. وحتى خلتُ أن بيدرو قد نام إلا إنه للأسف قام من على البلاط بعد مدة وجيزة يترنح من شدة الثمالة، فكدر صفاء الصمت من جديد. -إي، أنتما، لم تخبراني بعدُ لم جاؤوا بكما إلى هنا؟ -لأن كوتشو لم يكن يحمل معه بطاقة هويته. أجابت لمياء متأففة. -آه، للأسف، لقد ارتكبتما غلطة. وأردف: أألزمتما تدرسان؟ - نعم، أنا أدرس في الثانوية وكوتشو يدرس الفلسفة بسلك الماستر، ألدك سؤال آخر؟ -ماذا قلتِ؟ يدرس الفلسفة؟ اندهش بيدرو واستطرد: أصحيح ما تقوله صديقتك يا ولدي؟ -صحيح يا بيدرو. تنهدتُ. -وأخيراً وجدتُ صديقي الذي كنتُ أبحث عنه منذ زمن طويل. ابتسم بيدرو وطرطق أصابعه بنعومة، فتبادلتُ أنا ولمياء نظرات تبعث على الحيرة قبل أن أوجه إليه السؤال: -لم أفهم سيدي، ما

الذى تقصده بالضبط؟ -أقصد يا بني أنني أنا أيضا كنتُ أدُرُس الفلسفة في شبابي، وكان الجميع يكرهني بسبب ذلك، بمن فيهم أقربائي. -مجتمعنا يمقت الفلسفة وأهلها يا بيدرو. غمغمتُ. -حتى الدولة تكن الكراهة للفلسفة يا أنير، وليست تبغي أن تعترف بأن الفلسفة هي الحل الوحيد للقضاء على الإرهاب الذى أضحي يفتك بمجتمعنا. -وكيف ستقضي الفلسفة على الإرهاب سيد بدر؟ سألته لمياء. -بيدرو وليس بدر، دُون بيدرو الوسيم. صحح لها. -عفوا، بيدرو. اعتذرت لمياء. -عموما يا أبناءى الفلسفة هي السلاح الوحيد لمحاربة الإرهاب وجميع ألوان التطرف، وذلك عن طريق التعليم؛ أي أن نعمم الفلسفة على جميع المسالك التربوية؛ منذ السادس ابتدائي حتى الجامعة. ونقسم ذلك على مرحلتين: تكون الأولى من سن السادسة إلى الحادية عشرة، وفي هذه المرحلة ندفعهم إلى قراءة القصص الفلسفية التي تثير الأسئلة والشك، ثم المرحلة الثانية التي تبتدى من سن الحادية عشرة فما فوق؛ باعتبار هذه السن هي مرحلة العمليات المجردة حسب السيكلوجيا المعرفية؛ وفيها يستطيع التلميذ أن يقوم بالعمليات العقلية من قياس واستدلال ونقد وما جرى مجراه، وفي هذه المرحلة بالضبط نعلمهم مفاهيم أساسية مثل مفهوم الخير، والشر، والجمال، وكذا الحرية والديمقراطية وما شابه ذلك، بغية تطوير الروح النقدية والتفكير

المستقل لدى الأطفال. وهو ما سيجعلهم يتشربون منذ نعومة أظافرهم روح الاختلاف، ويتشبعون بقيم التسامح، والتعاضد، والنزاهة، والسلم، والحوار، ويتحررون من السذاجتين الفكرية والعاطفية، ومن التعصب والكراهة، ويسعون إلى كل ما يضطلع إلى أفق الكونية. ولا أظن أن أطفالنا سيرفضون تعلم التفلسف، بالعكس، يولد الأطفال برغبة جامحة في التعلم، وبفضول كبير في معرفة أشياء العالم، فهم مندهشون دائما، وأسئلتهم من طبيعة فلسفية؛ من قبيل "لماذا؟" و "كيف؟" فهم دائما ما يبحثون عن المعنى وعن علل الأشياء. لذا لا يجب أن نقمع أسئلتهم ونفرض عليهم طريقة معينة في التفكير تدجن قدراتهم الفكرية، وتقتل فيهم كل إبداع محتمل، ولكن يتوجب علينا أن نطور أسئلتهم كي يترعرعوا في أجواء تنويرية تجعلهم يفكرون بحرية وعقلانية، وبذلك سنصنع جيلا مغربيا واعيا بذاته، مؤمنا بقيم الديمقراطية والحدائة، جيلا يفكر وينتقد كل ما يقال، وذلك استنادا إلى تجربة الفيلسوف الأمريكي ماثيو ليبمان، وهي تجربة رائدة حاليا في العالم تعتمد على أفضل الأنظمة التعليمية مثل سويسرا وفرنلندا وكوريا وغيرهم. أما إذا نحن أجّلنا تدريس الفلسفة إلى سلك التعليم الثانوي كما نفعّل الآن؛ فإننا سنكون حينئذ بمنزلة من أراد تقويم ظل معوج قبل تقويم صاحب الظل، إذ عبر تعجيل تدريس الفلسفة نكون قد تجنبنا

السقوط فى مهواة الخطابات التى تعادى الأجانب وتهدد استقرار البلاد، والتى تبخس الحداثة، وبالتالى نكون قد جففنا كل المستنقعات ذات النزعات القومية الواهية، والعنصرية التى تفوح من بعض القلآت العرقية أو الدينية التى يمكنها أن تهدد وحدة الوطن وتماسكه. إن جوهر الإنسانية يا بنيتى هو وحدتها المخصصة ووطنها هو الأرض قاطبة، هذا الوطن الكبير الذى يسمى الأرض والذى يستدعى منا أن نتواصل فيما بيننا ونتوحد وننبذ العنف، لأننا فى نهاية المطاف كائنات تنتمى إلى كوكب واحد هو الأرض. ينبغى أن تعلّمى يا يمامتى أن الفلسفة ليست شيئاً آخر غير محبة الغير، محبة شيء ما كيف ما كان جنس هذا الشيء، ووطننا إذا استمر فى ازدياد الفلسفة ومحاربتها وإلغائها من المناهج التعليمية؛ فسيكون بذلك قد حارب القيم البشرية الكونية وذبح الإنسانية بسيف الرجعية، وحفر قبره بيديه، وبذلك سوف يستمر الوحوش فى قطع رؤوس السياح فوق قمم الجبال. -شكرا دون بيدرو على توضيحك. تمت لمياء بلطف. وأضافت: والفلسفة أيضا هي أم العلوم أليس كذلك دون بيدرو؟ -صدقت وبررت أيتها البارّة. ابتسم بيدرو. -هي برورة وبارّة وبريئة قبل أن يبرأ البارئ البحر والبر. قلت له ضاحكا. -وليس بيننا براء ولا مبارأة فى هذا. ضحك بيدرو وأضاف: على أيّ، إن ما يدل على أن وطننا يناهض الفلسفة يا أبنائى؛ هو هذا العبد الصالح الذى

يقف أمامكما خالى الوفاض، أنا يا أبنائي كان من المفترض أن تقلدني الحكومة أستاذاً للفلسفة مذ كنت أبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، لأنني مُجاز في الفلسفة، وكان حلمي الوحيد أن أصبح أستاذاً لمادة الفلسفة وأدرس تلامذتي القيم الإنسانية المثلى، بيد إنه دائماً ما كان يتم رفض طلبي لأن الفلسفة لا تدرس إلا في السلك الثانوي؛ ومن ثم كان عدد المناصب في شعبة الفلسفة ضئيلاً جداً. وها أنا ذا الآن بلغت من العمر عتياً وخطط الشيب رأسي؛ أظل أدفع عربتي اليدوية أجوب دروب كازابلانكا وأهلل بأعلى صوتي: "سردين.. سردين..". بل اليوم لم أستطع أن أبيع ولو كيلوغراماً واحداً للأسف، كون السردين أصبح مرتفع الثمن على الرغم من أن المغرب يملك سواحل شاسعة في المحيط الأطلسي، فضلاً عن ساحل البحر المتوسط في الشمال، فتحسرتُ على حالي وعاقرت لثراً ونصف اللتر من النبيذ الرخيص ثم خرجتُ أعربد في الشوارع وألعن رئيس الحكومة الفاشل، وكانت النتيجة أنني واقف أمامكما الآن أروي لكما حكاياتي كالعجائز. بكى بيدرو وتشظت روعي إثر سماع قصته الحزينة، أما لمياء فتأسفت كثيراً وقالت: -أسفة جداً يا بيدرو، في الواقع قصتك هاته تُقضُّقُ الصدر. -لا داعي للتأسف صغيرتي. جفف بيدرو دمه وأضاف: بنيتي أخبريني؛ ما هو حلمك؟ -حلمي هو أن أصبح زوجة كوتشو. أجابت لمياء دون أن تفكر فضحك بيدرو

حتى بان ما تبقى من أسنانه وقال: - ليس هذا ما قصدتُ عزيزتي، وإنما أقصد ماذا تتمنين أن تصبحي في المستقبل. - آه فهمتُ الآن. ابتسمت لمياء وتابعت: حلمي أن أصبح مهندسة. - ممتاز. أشاد بيدرو ثم استطرد: الحلم حق مشروع بنيتي، قاتلي من أجل حلمك، وبمناسبة الحديث عن المهندسة سأروي لكما قصة جرت لي مع أحد المهندسين المعماريين كنت أشتغل رفقته ذات صيف حار في إحدى شركات الأشغال العمومية. وأخذ بيدرو يحكي قصته بكل هدوء:

كنتُ واقفا في صباح باكر أنتظر صديقي المهندس ليقلني في سيارته إلى العمل، كان ذلك عام 1989 حينما كنت أبلغ من العمر عشرين عاما، وبعد لحظات أتى المهندس فصعدتُ السيارة، أخذ يسألني عن أسرتي الفقيرة وعن ظروف الدراسة، إذ كان ذلك العام هو عامي الأول في الجامعة، فجأة سألني عن أي مسلك دراسي اخترتُ، فلم أتردد في أن أخبره بأنني اخترتُ شعبة الفلسفة مما جعله يرمقني بنظرة احتقار حيث قال لي: - يقعُ لي أنك كنتَ بليدا يا صديقي حينما اخترتَ الفلسفة، أكنتَ وقتها سكرانا؟ سألني وهو يدخل سيجارة من نوع جيتان. - لا سيدي لم أكن سكرانا عندما اخترت الفلسفة. - ولم اخترت الفلسفة إذا؟ - لأغدو مهندسا. أجبته فانفجر ضاحكا وهو يضرب براحته عجلة القيادة. - ماذا، مهندسا؟ ألم تخجل من نفسك يا هذا؟ مهندس عن طريق الفلسفة، يالها من نكتة جديدة.

قهقهه المهندس. -أقصد بذلك أن أصبح مهندسا إنسانيا؛ أهندس قضايا الإنسان المعقدة عبر تحليل شخصية الفرد في علاقته بذاته وبالوجود، ومن ثم السعي الدؤوب نحو تغيير الإنسان عن طريق إخراجه من نير البؤس المحيق به. وضحتُ له. -لن تصبح كذلك يا عزيزي الطالب، فقط ستصير مهرطقا كما تفعل الآن، وما يزيل عن الإنسان بؤسه هو البنية الاقتصادية، هو رخاء المعيشة، هو توفره على شغل قارّ، هو المال، وليس هرطقتك التي لن تفيد الناس في شيء، لأن ما يحتاجه الإنسان هو الخبز وليس الكلام. واصل المهندس قهقهته بكل سخرية. -سأصير مهرطقا؟ وما الهرطقة سيدي المهندس؟ سألته. -الهرطقة؟ مرر المهندس يده اليسرى على لحيته وهو يبحث عن جواب ثم قال: آه، الهرطقة عزيزي بدر هي الفلسفة ليس إلا. أجاب وهو يتحرش بإحدى المرات على الرصيف. -وما الفلسفة صديقي المهندس؟ تشجعتُ في طرح السؤال. -هي كلام فارغ. أجاب ببرودة. -وما الكلام الفارغ؟ سألته مجددا. -هو أن يتحدث المرء في أمر لا يفقه فيه شيئا. -وهل تفقه أنت يا سيدي الفلسفة؟ ارتجلتُ. -لا، أبدا. رد المهندس ثم أردف: اللهم إني بريء منها. -ألست تخوض الحديث في الفلسفة؟ سألته بابتسامة فاترة، فرفع قدمه من على دواسة السيارة وتوقف جانبا ثم قال: -بلى عزيزي بدر وإلا ماذا تراني أفعل الآن؟ -إذا أنتَ كلامك لا شك فارغ، وبالتالي فأنت مهرطق

وستحتاج لا محالة إلى مهندس إنساني يعالج شخصيتك المتناقضة.
علقتُ بكل ثقة في النفس.

شبك المهندس عشره على رأسه، تذوق خمس سيجارات متتاليات
بشكل عنيف، وطفق يرمي بالأعقاب المتوهجة في شريط الورود
المتراص جنب الرصيف. أمرني بالنزول من سيارته بغيظ شديد
فنزلتُ، ثم مضى سريعا وترك لي الدخان والغبار. نظرتُ يمنا ويسرة
ثم واصلت المسير نحو مقر العمل مشيا على الأقدام، متسللا بين
أحياء كازابلانكا المليئة بالنشالين إلى أن وصلت إلى الورشة متأخرا
بعض الشيء. مضى اليوم ممتعا كعادته يا أبنائي على الرغم من
بعض المتاعب والحق يقال، وفي المساء لما انتهيتُ من العمل، عدت
أدراجي قاصدا منزلنا القصديري في حي سيدي مومن وأنا ملطخ
بالأسمنت. في طريق عودتي وبينما أنا أغذ السير على الرصيف
وأدندن كالمعتوه؛ لمحتُ شريط الورود الممتد على طول الشارع والذي
كنتُ أمر عليه كل صباح، لمحته يا أنير وقد استحال رمادا تذروه
الرياح، والعصافير الحزينة فوق أعمدة الإنارة ترقب من بعيد وهي
تبكي، حتى الأزهار البعيدة والمعزولة في الأصائص لم تسلم المسكينة
من أوار النار وصارت ذابلة، أمعنْتُ النظر جيدا فتذكرت سجائر
المهندس.

انتهى بيدرو من سرد قصته فقالت لمياء: -مسكينة هي العصفير الحزينة، من اليوم فصاعدا لن أفكر بأن أصبح مهندسة، سأغدو فيلسوفة مثل حبيبي كوتشو. قالت ذلك بنبرة بريئة ثم سرقت من خدي قبلة. فَبَشَبَشَ بيدرو وقال لها: -عموما ركزي على دراستك في هذه الأثناء، وداومي على قراءة الكتب فبالقراءة وحدها يمكنك النجاة من الجحيم! -أعلم ذلك سيد بيدرو رغم إنني لا أحب القراءة في الكتب إذ هي كاذبة، المهم أنا أدرس جيدا وأحصل على مراتب متقدمة خاصة في مادة اللغة الإسبانية، وكذلك أخي الأصغر، وكوتشو هو أيضا طالب مجتهد. -أحسنتم أبنائي واصلوا طريقكم ولا تلتفتوا إلى الفاشلين، فبينما هم يتكلمون؛ التزموا أنتم الصمت، وبينما هم يرددون ترهات الأولين؛ أكتبوا أنتم حاضرکم، وبينما هم في الليل نائمون؛ اصنعوا أنتم مجدکم، واعلموا أنکم لن تستطيعوا صناعة مجدکم إلا ليلا بعد أن ينام الثرثارون، حتى وإن شعرتم يوما بأنکم تعثرتم، فانهضوا من جديد ولا تستسلموا، فلا مكان للفاشلين في هذا العالم، عليكم أن تتحللوا بالعزيمة الكاسرة حتى تستحقوا النجاح ولو بعد ربح من الزمن. هنا أصابت بيدرو نوبة سعال حادة وبعد انتهائها سأل قائلاً: أخبراني هل أنتما عشيقان؟ -نعم، ونحب بعضنا كثيرا. أجابت لمياء بحماس شديد. -أتمنى لكما دوام الحب. قال بيدرو. ورددت لمياء كلمة أمين بشكل مطول فيما التزمت أنا

الصمت. -بيدرو وهل أنت تحب زوجتك؟ سألته لمياء. -ومن قال لك
بأنى متزوج؟ أنا لست متزوجا. -أسفة، ظننتك متزوجا. -لا تتأسفى
صغيرتى، فلا أحد منا سلم من وخزة الحب. استدار وجلس على
البلاط. -إذاً لا شك أنك عشت لحظات غرامية يا بيدرو. بادرتُ.
أخرج علبة سجائر من سترته الممزقة وأشعل سيجارة ثم قال: أه كم
أحن إلى ذلك الزمن الجميل حيث كنا نلصق أظرف رسائل الغرام
بلعابنا، تخيل معى يا بنى كيف كان الحب حينها يقف شامخاً أمام
إكراهات الحياة، تخيل معى كلمات من نحب وقد امتزجت بشيء من
رضابه، فقط تخيل كيف كنا. أصدر بيدرو آهة عميقة ورمى بعقب
السيجارة ناكسا رأسه. -إذاً احك لنا عن قصة عشقك سيد بيدرو.
أوعزت إليه لمياء. -لقد أحببتُ يا يمامتى فتاة جميلة قبل أن يأخذ منى
الموت أبى وأمى. -يا إلهى هل ماتا والديك؟ فلترقد روحها فى سلام.
تمتت لمياء. -ماتا يا صغيرتى وهيلَ عليهما التراب منذ زمن بعيد، ماتا
ولم يتركا خلفهما سوى الذكريات الأليمة، حتى أمى -فلىترقد روحها فى
سلام- لما أخذتها المنية بعد وفاة أبى بتسع سنوات لم تترك لنا تركة
غير كلمة "الله" مطروزة فى لوحة ومعلقة على جدار من القصدير،
ماتت أمى، ولازلنا نحن نبحث عن الله. لقد ثبطني الآلام الممضَّة يا
أبنائى وتبَّيع الحزن فى صدرى منذ سنوات خلت، حتى الفتاة التى بلَّغ
حبها شغافَ قلبى خذلتنى وقالت لى إن الحب مجرد كذبة يصدقها

الحمقى والمغفلون، ومنذئذ كرهت كل نساء المسكونة وأبئت أن أتزوج. أشعل سيجارة أخرى. -كم كان عمرك حينما أحببت هذه الفتاة وكيف التقيتُما؟ سألتُه. -على مهلكما، سأحكي لكما كل شيء بالتفصيل، رغم أنى لا أحبذ النباش فى مثل هذا الخراء. وشكرته لمياء على مبادرته.

-رغم مَكْرِ الأيام، ومَمَرِ الأعوام، إلا إننى لازلت أذكر بالتفاصيل المملّة، والأحداث المُخَلّة، قصة جرت لى فى عطلة ربيعىة من العام 1986؛ إذ كنت فى منزل جدتى التى تقطن وحيدة فى حى يسمى لاكار بمدينة الشّماعىة، وذات لىلة باردة كنت سابرا أغوار كتاب حكمة الإشراق للفيلسوف العظىم؛ السهروردى المقتول، كانت الساعة وقتئذ تشير إلى الثالثة وثلاث عشرة دقيقة بعد منتصف اللىل، وقد كان الجو مناسبا للقراءة حى الصمت الرهىب يسود المكان، فجأة صرت أسمع صوتا أو كلمات غرىبة تقطع هدوء اللىل، كانت تُسمع بصوت منخفض ومتقطع، وكأن رىاح الشّماعىة العاتىة اجتلبتها من فج عمىق. توقفتُ عن القراءة رىثما يتلاشى هذا الصخب الآتى من اللامكان، فلم ىنقطع ذلك الصوت الغرىب، وقررت حىنها أن أخرج من غرفتى لأتفقد منبعه؛ فخرجتُ، فإذا بى أجد حُلُكة الظلام تخىم على الزقاق بسبب تعطل عمود الإنارة. بعد برهة سمعتُ أغنىة شوش على كلماتها صفىر الرىاح، فاعتاص على استىعاب كلماتها،

كانت تُسمع تارة منخفضة وأخرى بصوت مرتفع. وما سمعته أخيراً كان كالتالى: (يانا يانا ... ينا يانا ... فى حببى أموت أنا ... بحببى أموت أنا بلهيبى وعذابى ... لحببى ... على شانو أموت أنا ...) هزت هذه الكلمات العذبة فؤادى الرقيق هذا، ورجّت عقلى المريض رجّاً، وبُعَيْدِها اكتشفتُ أن هذه الكلمات آتية من فوق، ليس من السماء هذه المرة؛ وإنما من بيت الجيران، حيث كانت إحدى غرفهم فى الطابق الأول مُضاءة ومُصاقبةً لعمود الكهرباء. وحتى تستريح نفسى وينزاح حدسى، ارتقيتُ درجات عمود الكهرباء مثل العقربان، حتى تقابلتُ ونافذة الغرفة المُضاءة التى كانت مواربة بعض الشيء، فصدمت بما شاهدتُ. لقد رأيت بنت الجيران وحيدة فى غرفتها وفى أبهى حُلّة، ترتدى تنورة شفافة وحمالة صدر وردية، وهى ترقص على ألحان صباح الشحرورة، كانت بهية الطلعة، ممشوقة القد، بارعة القسمات. أبصرتنى فجأة وقالت: تبالك أيها المجنون، انزل وإلا أبصرك أحد المارة. فقلتُ: وهل من مارة فى وقت الحب؟ إن الجميع هنا ناموا وكُبلوا بالقيود فلم يبقَ فى الوجود غير أنا وأنتِ وكوكب الزُهرة يلمع من بعيد، فأه يا بنت الجيران كم تمنيتُ لو كنتُ حمالة صدركِ فأعقد مع نهديكِ معاهدة السلام ونعيش كلينا فى أمان واطمئنان، ألا يمكننا يا سيدتى الوديلة أن نقضى هذه الليلة بقية العمر على سريركِ ذاك حتى ذلك اليوم الذى نتحلل فيه معاً ويمتلئ

المكان بالعناكب وبرائحة العفن، ونتحول إلى هياكل عظمية تسكنها العقارب؟ سألتها متلهفا. ثم ردت محتجة: أف على وضاعتك أيها الحقيير، أنصت قليلا إلى عقلك علك ترقى إلى رتبة الحكماء. أنا أيضا أنتهى إلى الحكمة يا سيدتى: قلت لها. فاستشاطت غيظا وقالت: لو كنت تنتمى إلى الحكمة كما تدعى ما كنت لتتصرف بمثل هذه الفسولة، أنسيت أن الأهواء حتى أجملها لا مكان لها في الحكمة؟ فأجبتها: إن العقل يا سيدتى الذى تأمرينى بالإنصات إليه هو الذى كان مسؤولا وراء صنع قنبلة ذرية فقتل أرواحا وشوّه أجسادا، وإن العقل الأناني كان سببا في سلب الإنسان إنسانيته واستلاب الطبيعة طبيعتها. ألم يكن العقل يا سيدتى سببا في نشب الحروب المعاصرة الطاحنة، وصنع أذكى الآلات الحربية الفتاكة، والفيروسات المتحوّرة التى تقتل البشرية بلا دم، زيادة على الإضرار بالبيئة؟ لقد ساهم العلماء والمهندسون، والأنثروبولوجيون بشكل مباشر أو غير مباشر، في غزو الشعوب والقضاء على ثقافتها البديلة، بدعوى أنها شعوب متخلفة. وطالما كان العلماء الكولونياليون موظفين للدولة وعبدا لها، يمهدون لها الطريق نحو اضطهاد وتعنيف الشعوب في أميركا الجنوبية وأفريقيا وغيرهما، كما أنه ليس يمكننا أن ننكر بأن العلم كان شريكا في الهيمنة كالجغرافيا، علم الاجتماع، الجيولوجيا وخاصة علم المحيطات؛ وليد الإمبريالية. لكن يا من يدعى الحكمة -

وهنا قاطعتني بنت الجيران- ألسنت ترى أن هذه الشعوب المتخلفة التي تدافع عنها بكل تعصب، تتبنى ديانات تزعم من خلالها أنها تملك الحقيقة المطلقة، وتعتبر الغير المختلف زنديقا أو مهرطقا أو كافرا، فتضطهده هي الأخرى وتعنفه وتصادر ممتلكاته معتبرة إياها غنيمة، وربما كان أي ذلك رضوخهم للعاطفة دون العقل؟ لا يا سيدتي - قلتُ- لم تكن العاطفة مسؤولة عن ذلك، وإنما مبادئ الحق والكراهة، التي نُحِتت في عقولهم عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية، وخطب الواعظين. أما إيمانهم الخاص بالحقيقة المطلقة فلن يضر العالم في شيء، بقدر ما سيزيده تساؤلا وغنى وتقدما، فأئى شعب هو حر فيما يعتقد ويؤمن به، واعتقاد شعب بأنه يملك الحقيقة المطلقة هي أيضا حرية، لكنها مشروطة، أي أن يعتقد هذا الشعب الذي يشكل أغلبية في بلده بالحقيقة المطلقة في حدوده الجغرافية، فإذا هو تجاوزها وحاول أن يفرض علينا اعتقاده زجرنا، وأنا أتحدث عن الشعب وليس الجماعة، فهذه الأخيرة إذما نحن تعاملنا معها بنفس المنطق فلا ريب ستشكل لنا دولة داخل دولة مما سيزعزع استقرار مجتمعنا. فنحن بحاجة إلى ما أسميه بالاختلاف الشعبي في العالم ضدا للعولمة، نحن بحاجة إلى ثقافات مختلفة وحقائق متضاربة ومنطق متناقض، شريطة أن يكون هذا الاختلاف نابعا من غالبيات كبيرة وليس جماعات تمثل الأقلية. وعلى

أية حال يا سيدتى فإن عواطفنا تتقزز بالفطرة من شق الصدور
ونبش القبور، ومن هدر الدماء، فكيف لها أن تكون مسؤولة عما
نعيشه من شرور؟ العقل يا سيدتى قتل عواطف الجنود باسم مبدأ
عقلي يسمى الواجب المهني، وقضى على عواطف العلماء والمنظرين
السياسيين، وهو الذي أفسد براءة طبيعتنا الجسدية مذكنا في جنة
عدن. علينا يا بنت الجيران أن نثور في وجه شبح العقلانية الصارمة
والجلفة، لقد حان الوقت لأن نؤسس فلسفة إيروتيقية جديدة
غابت عن أجدادنا في عرصتي بغداد وقرطبة، أن نؤسس فلسفة لا
تختزل الإنسان فقط في العقل؛ بل في كل ما هو إنساني في الإنسان،
فلسفة تلقي بظلالها على الحب، والجنس، وكل الأهواء التي حينما
تثور تخلق المعجزات، وتجعل من الشراسة ليونة، ومن العنف لطفًا،
وترد الاعتبار إلى البيئة التي لا يمكننا أن نحافظ عليها إلا إذا
أحببناها بهوىً جامع. إن العقل يا سيدتى - كما يقول باسكال - "لا
يكفي نفسه بنفسه، فهو غير قادر على صياغة مبادئه الخاصة التي
تنجم عن الأهواء والعواطف التي لها أسباب يجهلها العقل". نحن
نحب، ونعتقد، ونرغب، ونحس، ونشعر، ونؤمن، ونتحسس الجمال
والفنون بحساسيتنا وأهوائنا وعواطفنا، وللعقل دور هزيل في مثل
هذه الشؤون. أنهيتُ كلامي وأنا معلق ومتمسك بعمود الكهرباء،
وبعد ذلك تكلمت بنت الجيران بعدما صمتت طويلا فقالت: صحيح

ما قلته، حقا أنت تبدو حكيمًا، وما علينا الآن سوى أن نشرع في إبادة
صرامة العقل، وإلا بدا عالمنا غريبًا أكثر.
وقد طال الكلام وتمادى المرام، ثم أفل كوكب الزهرة وانقشع نور
الصباح، فإذا بي أسمع صوت جدتي العجوز وهي تناديني وتحمل في
يدها مكنسة من سعف النخل: إي، إي، ووه.. انزل من هناك أيها
المجنون وإلا صعقك الكهرباء، اهبط أيها البغل. فضحكت بنت
الجيران حتى بان أسنانها وأغلقت النافذة، وهناك بدأت قصة حبنا
يا أبنائي التي لم يكتب لها الدوام، لأن الحب في نهاية المطاف ليس
شيئًا آخر سوى سيناريو يصنعه المُحبُّ وفق خياله، وليس واقعة
موضوعية تقبل الدرس والتعميم.

-يا إلهي قصتك هاته شبيهة بفيلم هندي كتبت أطواره على يد مخرج
محنك، بيد إن أغلب الأفلام الهندية خصصت لأفناء الناس بينما
قصتك هاته عبرة لأولي الألباب. استحسنت لمياء قصة بيدرو
وأضافت: لكن من يكون هذا الفيلسوف الذي كنت تقرأ له؟ أنا لم
يسبق لي أن سمعتُ باسمه ولا يوجد أي نص من نصوصه في
مقرراتنا التعليمية، وهل هو مازال على قيد الحياة؟ فضحكتُ على
سؤالها الأخير قبل أن يجيها بيدرو قائلاً: كلُّ البشرِ راجلٌ؛ من الخلايا
حتى النجوم، كل شيء يمضي إلى النهاية يا صغيرتي، هكذا دورة
الحياة؛ نموت لنترك المكان لغيرنا، لكن رغم ذلك فالفلاسفة لا

يموتون، إذ تصافحنا أرواحهم من بين السطور في كل مرة نتصفح فيها كتبهم المغبرة بين الرفوف. تهديت لمياء وسألته مجدداً: -ومن أي بلد هو السهروردي؟ -السهروردي عزيزتي لمياء هو شخصية قلقة في الإسلام، ولحظة جوهريّة في تاريخ الفلسفة، ولد بين سنتي 1150م و 1155م في بلاد فارس، وظلّ يجوب بلاد الروم والشام، إلى أن قُتل في مدينة حلب السورية وهو في سن الثالثة والثلاثين تقريباً على يد الطغاة المستبدين؛ قاتلي الفكر الحر وماقتي حرية التعبير، وأمثال هؤلاء لازالوا للأسف لم ينقضوا بعد، وهم سبب التخلف في أوطاننا، لقد كان السهروردي يا عزيزتي ذا عبقرية فذة وكان سابقاً للفيلسوف المأصود الشيرازي ولاحقاً على ابن سينا؛ شيخنا العظيم. أظهرت لمياء إعجابها بالفيلسوف المغترب، وسألت بيدرو إن كانت ستعثر على كتاب حكمة الإشراق في مكتبات كازابلانكا، فكان جوابه: لا أعتقد ذلك يا يمامتي، أما أنا فقد كنتُ استعرتُه من عند أحد الأصدقاء الذي كان يسافر مراراً إلى مدينة بيروت وكان قد نسيه عندي، إلا أنني أرجعتُ إليه كتابه إقتداءً بمبادئ الأخلاق. -أحسنتَ صنعا يا بيدرو لقد طبقتَ مفهوم الواجب الأخلاقي عند إيمانويل كانط. علقتُ. -وما مفهوم الواجب الأخلاقي؟ -هو الفعل الأخلاقي النابع من الذات، وغير الخاضع لأية سلطة خارجية إلزامية حسب الأستاذ كانط. أجبتُ. -كانط مجرد مخرف. صرّح بيدرو. -ولماذا؟ -لأنه

يحاول أن يؤسس أخلاقاً من دون دين، وهذا ما يستحيل صنعه؛ إذ يأمرنا بكل ثقة في النفس بأن نمثل للواجب الأخلاقي النابع من ضمير الفرد؛ كأن نصادف مثلاً هاتفاً باهظ الثمن على ناصية الطريق بعدما وقع من جيب صاحبه فنسلمه إلى هذا الأخير بإرادة منا، دون الاضطرار إلى أن يجبرنا أحدهم على فعل ذلك أو يرانا أصلاً، ومن ثمّ نكون قد قمنا بفعل حسن صدر عن اقتناع شخصي، وهذا طبعاً ما يقصده كانط بالواجب الأخلاقي، وهو ما أشرت إليه أنت قبل هنيئة، ونحن نتساءل يا بني، ما الدليل على أن هذا الفعل الذي قمنا به هو فعل حسن؟ أي ما هو المصدر الذي استند إليه أستاذك كانط في معرفة أن هذا الفعل حسن؟ فإذا كان المصدر هو العقل فإن هذا الأخير يصدر أحياناً كثيرة أحكاماً تُترجم إلى أفعال منافية للذوق العام؛ كتسويع الحرب الهجومية التي تحيل الشوارع إلى أنهار من دم، والدفاع عنها تحت اسم الحرب المقدسة أو الحرب العادلة - كما فعلت ضدنا نحن العرب مملكة أراغون وليون، وغيرهما من الممالك النصرانية، وهو ما فعلناه نحن بدورنا في حروبنا ضد الفرس والسند ومن لفّ لفهما من الشعوب التي لا تدين بدين الإسلام - وإذا كان المصدر هو الدين فإن الدين على هذه الأرض أديان؛ واحد يأمر بحرق الميت، وآخر بتعليقه في أبراج الداخما، ودين يأمر بمقاتلة الكفار والآخر يدعو إلى المحبة، وإذا كانت الأهواء هي المصدر، فإن

هذه الأخيرة تزين لبعض الشعوب أكل لحوم البشر وأخرى تحثها على تناول فاصوليا السنغال الطرية، فليذهب يا بني كانط وواجبه الخرائى هذا إلى الجحيم. -قلت يا بيدرو في معرض حديثك إن الأستاذ كانط يحاول تأسيس أخلاق من دون دين، وهذا يستحيل صنعه كما أشرت، ونحن نعلم أن اليابانيين ليس لهم دين ومع ذلك لهم أخلاق تبعث أحيانا على الدهشة. اعترضت. -لليابانيين دين يا غبي وهو ديانة الشينتو التي سرت مبادئها في دمائهم منذ غابر الأزمان، عبّر أجدادهم وثقافتهم التي تشكل ذواتهم، لأن الذات ليست في نهاية المطاف منحة إلهية ثابتة، بقدر ما إن الذات تبني عبر الخلفيات الثقافية، الدينية، الاجتماعية والسياسية.. إلخ، وإذا جردنا الذات من كل هذه الخلفيات انعدمت، كما تنعدم البصلة أثناء تجريدتها من القشور، إن الذات في صيرورة دائمة، وتتغير في كل لحظة، ومن هنا وجب إعادة النظر يا بني في مفهوم الوعد، وفعل الإمضاء؛ لأن الذات التي وعدتني في الماضي ليست هي الذات نفسها التي أخلفت بوعدا في الحاضر، والذي أمضى العام الماضي ليس نفس الشخص الذي عليه اليوم. لذا فالذات متغيرة عقائديا وثقافيا وسيكولوجياً، وحتى بيولوجيا بسبب الخلايا التي تتجدد مرارا، وبناء على هذا فإن اليابانيين حتى وإن كان جلهم غير متدين فإنهم متشبعون بتعاليم ديانة الشينتو. وضح بيدرو.

سكتتُ وتثاقلتُ أجفاني من شدة التعب، أما بيدرو الذي حنّكته التجارب وهذّبتَه المذاهب، فقد بدأ صامتا كالقبر، وانصاع للنوم أخيرا. لمياء هي الأخرى لم تعد تقو على الحديث وطرح الأسئلة الفضولية، فتكومت عند ركن الزنزانة في محاولة لمحق الهلع الذي مازال رابضا على محياها، إذ كان التعب هو الآخر يقدح من عينيها، وسرعان ما أسدل النوم أهدابها، فبدت ظريفة أكثر من أي وقت مضى. دنوتُ منها، وأسندت رأسي على صدرها الذي بات بالنسبة إليّ أحد الطرائق الناجعة للنجاة في هذا العالم القدر، فتوقعتُ كالطفل الصغير وعانقتُ النُّعاس، إلى أن استيقظنا جميعا بعد نوم هنيء لم يدم طويلا، إذ أيقظنا أحد رجال الشرطة صارخا في وجوهنا: -إي، استيقظوا جميعا أيها الجرذان، أحسبتم أنفسكم تنامون في فندق خمس نجوم؟ هيا انهضوا بسرعة، لقد أمر الضابط بالإفراج عنكم. ركلنا الشرطي. ولزالت لمياء تعانقني مسرورة ومخدرة في نفس الوقت بغيوبة النعاس حتى اقتادنا الشرطي نحن الثلاثة، وأخذنا إلى خارج مفوضية الشرطة. -إذا أنتم عاودتم نفس الخطأ مرة أخرى فستعلمون ما الذي سيحيق بكم. صرخ الشرطي في وجوهنا، فتجاهلنا وعيده ووقفنا مندهشين جنب الرصيف؛ حيث كنا نرتجف من شدة البرد. أشعل بيدرو سيجارة وأعطاني واحدة، ثم أخذ يجول ببصره هنا وهناك، ثم تمتم قائلا وهو ينفث الدخان:

إيخوس دي بوتنا! إننا بعيديون جدا عن مقر سكنانا. -وأين نحن بالضبط. سألت لمياء. -نحن في الحي الحسني؛ شارع ابن سينا، وهذه المفوضية التي كنا فيها هي التي يطلقون عليها اسم الدار الحمراء، لا أعلم يا بنيتي لماذا جاؤوا بنا إلى هذا المخفر البعيد، هذا غير معقول، لقد كنت مطأطأاً رأسي في سيارة الأمن ولم أدر أين أنا. -وأنتى لنا السبيل إذاً للذهاب إلى بيوتنا؟ سألت لمياء. -الحل هو أن نستقل التاكسي. اقترحتُ ثم أشعلتُ سيجارتي. -وهل تملك ثمن الرحلة؟ سألتني بيدرو فأجبتُ بالنفي. -لديّ اقتراح. بادرت لمياء. -هيا انقذينا. غمغم بيدرو. -الحل هو أن نستقل التاكسي إلى شارع إدريس الحارثي، حيث نكون أقرب جميعاً إلى بيوتنا، ونطلب جميعنا من سائق التاكسي أن يتوقف بنا عند أرضية شاسعة ستكون الآن مدفونة في غبش الظلام، وحينما نهبط من التاكسي نلوذ بالفرار، ما رأيكما؟ -إنك لتعلمين من أين تؤكل الكتف. قال بيدرو وتابع: لعلها فكرة شيطانية، لكنها مفيدة وقابلة للتحقق وبالتالي سنعمل بها حالا، فهيا لنلوح إذاً للتاكسي.

كان شارع ابن سينا مقفراً ومبلاً بالمطر، لا بشر يدب ولا سيارة تمضي، باستثناء الريح التي كانت تعوي، وبعض أوراق الشجر التي كانت تتراقص على الإسفلت. -واااااا كوتشووووو إنى أشعر بالبرد. قالت لمياء وهي ترتعد مثل سعفة في يوم ريح عاصف. -أعلم ذلك يا لمياء

حتى شفتيك أصبحت متشققة. -نعم أحسستُ بذلك، لكن لا بأس،
فإن التين إذا حَلَا تَشَقَّقَ. ضحكتُ من ردها، وبعد نصف ساعة
تقريباً من الوقوف على الرصيف متجمدين من البرد، وقف تاكسي
فحدّق السائق جيداً إلى هيئة بيدرو الغريبة ثم ابتلع الطريق بأقصى
سرعة، وبعدها بحوالي عشر دقائق وقف تاكسي آخر، فركبنا هذه
المرّة ووصلنا إلى شارع إدريس الحارثي، وبينما يمر التاكسي من جانب
أرضية شاسعة كانت غير مبلطة وشديدة الظلام، تقول لمياء للسائق:
توقف هنا من فضلك. -حسناً. رد السائق وتوقف جنب الخلاء
المظلم. -كم ثمن الرحلة؟ سألته لمياء. -سبعة وثمانون درهماً. رد
السائق بهدوء. -نتأسف جداً صديقي، لن ندفع لك ثمن الرحلة.
سخرتُ لمياء. -لم أفهم، هل تمزحين معي؟ ابتسم السائق. -لا، إنني
أتكلم بجد. ردتُ لمياء، فاستشاط السائق حنقا، فنزل من سيارته
بعنف، ثم أخرج من تحت مقعده هراوة ضخمة وقال: -ادفعوا لي
ثمن الرحلة يا أبناء العاهرة وإلا سأهشم وجوهكم جميعاً. -سيدفع
لك الله. غمغمت لمياء بنبرة ساخرة ثم نظرتُ إليّ وصرخت قائلة:
Escapate! فأطلقنا أرجلنا للريح ونحن نلهث وسط الظلام بينما
الكلاب تنبحنا من بعيد. جرى السائق من خلفنا فانقضَّ على بيدرو
الذي تعثر في الطريق، فأمطره ضرباً بالهراوة، بينما نحن الاثنان
واصلنا الجري وصرنا نسمع صراخ بيدرو وهو يهيم في الظلام. وصلنا

إلى المنزل فى الهزاع الأخرى من الليل حيث ففتح لمياء الباب بهدوء تام، ودخلنا المنزل فى صمت جنازى مهيب. نزعتم لمياء حذاءها وارقت الدرء حافية القدمين، فيما ففتح أنا باب غرفتى وأشعلت الضوء، استلقيت على فراشى حبا فى النعاس، إلا أن قطار النوم كان قد فاتنى ثم مددت يدي نحو كتاب كان ملقيا على البلاط ومكسوا بصوف الرطوبة الأخضر، مررت عليه مسحة بكفى فألفيت عنوانه كالتالى: الأوبانيشاد، ففتحتم الكتاب من باب الفضول وأخذتم أقرأ، إلا أننى لم أقدر على إكمال سطور هذا الكتاب العجيب فى هذا الوقت من الليل، حيث نجمة الصباح تتلأأ فى الأفق والنوم ما فتى يداعب أجفانى، حتى قبلم الكتاب ووضعتة فى مكان عالٍ ونظيف، ثم أطفأتم المصباح واستسلمتم للنوم. وأثناء هذا الأخير راودنى حلم مخيف؛ إذ رأيتنى واقفا فى جوف الليل أمام قاضٍ فى قاعة محكمة خاوية، كان القاضى بجسد إنسان ووجه بوم مخيف يرتدى مئزرا أسودا، وعلى يمينه شمعة توشك على النفاد، والريح تعبث بما تبقى من نارها يميننا وشمالا، لم يكن ثمّة أحد يجلس إلى جانب القاضى، ولما التفت خلفى ألفت مقاعد القاعة كلها فارغة وهى مضاءة بضوء القمر المتسلل من النوافذ فوقانية فى يمين القاعة، وعلى إحدى تلك النوافذ يوجد غراب ينظر إلى خلصة من تحت الهباب الفضى، كان القاضى يجبرنى بفضاظة على التكلم؛ إذ كان يصرخ وهو يضرب

براحة يده على الطاولة: تكلم! تكلم! هيا تكلم أيها الأخرس! وحينما أردت تحريك شفتيّ محاولاً الكلام تعالت صيحات الغراب الذي ما انفك يخفق بجناحيه في مكانه وهو يردد من عِلِّ: الصمت، الصمت، الصمت المقدس! لم أعبأ بما يردده الغراب، والتفتّ مجدداً نحو القاضي فتكلمتُ، فانطفأت الشمعة بمجرد أن تكلمتُ، وطار الغراب خارج القاعة، حلق بعيداً باتجاه القمر وهو ينبعب. بعد ذلك سمعتُ نداءً أيقظني بإجفال. -كوتشو، كوتشو.. افتح الباب، لقد أعددتُ لك القهوة، استيقظ فإنك نمتَ أكثر من اللازم.

-9-

أبعدتُ عني الملاءة ونهضتُ بعيون نصف مفتوحة، كانت أشعة الشمس قد انسلت من النافذة التي كانت مواربة شيئاً ما، فتحتُ الباب ملبياً نداءً لمياء فرأيت هذه الأخيرة مثل نادلة تضحك ببراءة القهوة الشهية. -صباح الخير كوتشو، لقد نمتَ أكثر من المعتاد. -كم الساعة؟ سألتها، فأجابت: -الحادية عشرة والنصف. -الوقت أمسى أسرع من الضوء، لكن في الحقيقة لم أنم ليلة البارحة، وأنتِ تعلمين كل شيء. -تفضل خذ قهوتك، لقد عرفت أنك ستستيقظ اليوم متأخراً بسبب ما جرى لنا الليلة الماضية. -شكراً لمياء. أخذتُ القهوة من يدها وتابعتُ: -ماذا عن والدتك، ألم تسأل عن سبب غيابك ليلة أمس؟ -أجل، نسيتُ، سأحكي لك أمراً عجباً حدث ليلة البارحة، يا

لحسن حظنا يا كوتشو. أبدتُ عن سرورها. -ماذا جرى يا مشاغبة؟
أخبريني. -لقد ذهبتُ ماما ليلة أمس إلى منزل ابنة عمي ندى الودادية
تسألها عني، فأخبرتها هذه الأخيرة بأنني ذهبت مع صديقاتي إلى ليلة
الفلاسفة التي نظمها المعهد الفرنسي الليلة الماضية، لم تتعمد ندى
الكذب عليها، وإنما حقا صديقاتي ذهبن إلى هناك ليلتقطن صورة
فوتوغرافية مع إدغار موران ضيف ليلة الفلاسفة البارحة. -وأين
يوجد هذا المعهد الفرنسي؟ -في شارع محمد الزرقطوني. -كم أنت
محظوظة أيتها المشاكسة، لقد تستر الفلاسفة على مصيبتك. فركتُ
عيني وأنا أضحك، ثم أردفت قائلاً من باب الفضول: لماذا تلقبين ابنة
عمك هاته بالودادية؟ -لأننا نتشابه في كل شيء إلا في كرة القدم فهي
فتاة تعشق نادي الوداد البيضاوي فيما أنا رجاوية حتى النخاع،
وسأظل مشجعة لفريق الرجاء البيضاوي حتى مماتي، وأضافت
مشدوهة: *أوه، خودان!* أنظر كم إصبعك متورم. -للأسف أزيحتُ
عنه اللفافة حينما طوقني الشرطي بعنف. -إنه أخذ في التقيح.
تفحصت لمياء إصبعي واستطردت: عندنا زجاجة بروكسيد ويود
وقطن وشاش ولاصق طبي كذلك، أظنهم سيفون بالغرض، سأجلهم
الآن وأعقم إصبعك ريثما تغسل أنت وجهك وتتناول فطورك.
دخلتُ غرفتي وبيدي فنجان القهوة، كان كل شيء في غرفتي مبعثراً؛
بطّانية غير مطوية، إبريق لم يُغسل، وكأس شاي نصف مملوءة

وَضِعْتُ فوق كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي منذ أسبوع. وحذاء
ديكون العسكري موضوع بالقرب من وسادتي، ناهيك عن جيش
عرمرم من النمل الصغير يقتات على فُتات الخبز، لم أرتب شيئاً من
ذلك وخرجتُ إلى الدكان فاشتريتُ خبزة فقط، لم تكن لدي رغبة في
إعداد إبريق من الشاي، ففجان قهوة من إعداد جارتى المراهقة،
يكفي لمؤانسة هذه الخبزة مدة أربع وعشرين ساعة داخل جوف
المعدة. وعند دخولي المنزل، ألفتُ لمياء تنتظرني وبصحبتهما الأدوية،
تبدو مثل ممرضة في المستشفيات العسكرية. تفحصتُ إصبعي جيداً
ثم قالت: يا إلهي إصبعك منفلح إلى شطرين! ظننته مجرد خدش
بسيط كما أخبرتني، وأضافت: ويبدو أنك لم تعالجه قط. -لا يهم،
فهذا الإصبع ليس لديه أدنى وظيفة، عقميه إن استطعتِ وكفى من
الإرشادات الطبية. فعقمتُ إصبعي على مضض ولفته بلفافة ناعمة،
وحين رفعتُ رأسها وجدتُ عينيّ مركزيين نحو فتحة نهديهما. -كما ترى
لقد عقمتُ سبّابتك جيداً، ومع ذلك فإن الأمر يحتاج إلى طبيب. -
إصبعي يحتاج إلى الطبيب، والطبيب يحتاج إلى المال وليذهب
الطبيب وإصبعي إلى الجحيم، لم يعد ثمة شيئاً يهمني. -إذاً حاول على
الأقل أن تبعدّه عن الماء. -منذ متى أصبحتِ طبيبة؟ -منذ أن قرأتُ
كتاباً عن الطب. -وما عنوانه؟ -عنوانه: كيف تصبحين طبيبة في
أربعة أيام. ردّت. -يبدو هذا كتاباً مفيداً للغاية. غمغمتُ.

-10-

وأنا مُنْدَسٌّ في وَهْدَةِ سريري، أهدق إلى إصبعي الذي عاد متعفنا بين عشية وضحاها، وأتساءل في دخيلة نفسي إذا ما كان الدواء الذي وضعته لمياء كفيلا بأن يعالج سبابتي. إن هذه التساؤلات مع نفسي جعلتني أتذكر نصيحة صديقي رشيد الذي اقترح عليّ أن أقتني أحد الأدوية، وهو عبارة عن حبوب مضادة للبكتيريا كما سبق أن قال لي، وهذا ما قررت فعله كيلا يتفاقم الداء ويتفشى المرض في سائر جسدي، بيد إن الإعضال يكمن هنا بالضبط؛ فأنا أحب حبيبتي مولا ومشتاق إليها، وقد وعدتها بأن أزورها هذا الأسبوع، وأنا الآن أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما أن أقتني الدواء، وإما أن أسافر إلى المدينة الحمراء، لأنه لم يتبقَّ عندي في آخر الأمر غير مائة درهم. وفي النهاية، قررت بشكل حاسم أن أشتري الدواء وأسافر إلى مراكش في الوقت نفسه؛ حيث سيكون الأوطوستوب أفضل وسيلة للسفر إلى مدائن الحب. وعليه، فقد قصدتُ أقرب صيدلية، فاشتريتُ عبوة الدواء بتسعين درهما، إذ اقترحتُ عليّ الصيدلانية أن أتناول ثلاث حبات في اليوم؛ واحدة بعد الفطور والثانية بعد الغذاء والأخرى مباشرة بعد وجبة العشاء، ومن هنا سألتُ نفسي عما هو الحل بالنسبة إلى طالب لا يتناول سوى وجبة واحدة في اليوم. عموما بقي عندي عشرة دراهم، اشتريتُ منها تعبئة بخمسة دراهم واحتفظتُ بالخمسة

الأخرى كمبلغ لوجبة الغذاء المنتظرة، ثم عدت إلى غرفتي وظللتُ أعبث بهاتفى أفتش عن رقم كمال وهو صديق لذيّ قديم من مدينة شيشاوة، طويل القامة كأعمدة هرقل. رغم أنه ودادى إلى حدّ الجنون، وأنا رجاوى حتى النخاع، إلّا إنّنا كنا أقرب صديقين في جامعة مراكش، لكن النجاح للأسف لم يحالف كمال، فرسب حيث لازال هناك يدرس في نفس الجامعة، ويقيم في المدينة نفسها. وبما أنه صديق وفيّ لي فلاغرو سيساعدني في هذه السفرية الرومانسية باستضافته لي في محلّ إقامته، لأن أمثالي لا ينزلون بالفنادق، وقد وجدتُ رقمه وبادرتُ بالاتصال: -أهلا صديقي كمال كيف حالك؟ -ألو مرحبا، أنا بخير، من معي؟ -هذا صديقك أنير، ألسن تذكرني؟ -أهلا، أهلا.. بلى، بلى، ومن ذا الذي لا يذكرك يا فيلسوفنا؟ أنا في أفضل حال يا أنير لقد اشتقت إليك كثيرا وحاولتُ في العديد من الأحيان أن أتصل بك، إلّا إنني أضعتُ رقمك للأسف. -لا بأس بذلك يا كمال، أنا أيضا بخير، فقط وددتُ أن أخبرك بقدومي إلى مراكش، ربما سأكون هنالك صباح الغد، من أجل أن أستلم شهادة الإجازة الأصلية، وليس عندي محلّ أنزل به. -اسمع جيدا صديقي أنير؛ أنا أقيم وحيدا في غرفةٍ هنا بحي الدّاوديّات، وإن شئتُ أقمتَ عندي الدهر كله، فمرحبا بك ولهي فرصة ذهبية لتشرح لي فلسفة ابن رشد فأنا لا أود أن أرسب مجددا، وأعلم أنك متأثر كثيرا بفيلسوفنا

العربي الكبير هذا. -اطمئن يا كمال سأشرح لك كل صنوف الحكمة من "بوذا" العظيم في الشرق إلى "فرانسيكو ميرو كيسادا" في المكسيك الحبيبة. فالمصالح المتبادلة هي التي تؤبد الصداقة وإلا لم نحن أصدقاء أصلا. -أشكرك كثيرا يا أنير، واتصل بي حالما تصل إلى مراكش. -حسنا سأفعل. -وداعا أنير. -حظ موفق كمال.

كانت الساعة تشير إلى الثانية وثلاث وعشرين دقيقة بعد الزوال، إذ أخذت حقيبتني ذات الجيوب المتعددة التي يلتقي فيها اللون الأسود بالأحمر، فوضبتُ فيها أفضل قمصاني المحددة، ومعطفا احتياطيا، وقنينة عطر لوكازيت الرخيصة، وآلة الحلاقة، وعبوة الدواء، وأخيرا كتاب رحلة في أقاصي الليل لـ "لويس فرديناند سيلين". وبعدما جمعتُ كل أغراضي الأساسية ارتديت الجاكت الأسود الذي كان معلقا في مسمار على الحائط، وبنطال الجينز الأسود، ووضعت كذلك ساعتني اليدوية في معصمي، ثم احتديتُ حذائي المفضل وهو حذاء عسكري من نوع ديكون ذو اللون الأسود اللّماع. وحملتُ الحقيبة على ظهري وأغلقتُ الباب بهدوء آملا ألا تراني لمياء، فتقصفتني بأسئلتها الفضولية أو قد تمنعني من رحلتي وأنا لا أشك في ذلك، وذهبتُ أغدُ السير بلباسي الأسود نحو الطريق المؤدية إلى المدينة الحمراء والتي أجهل اتجاهها أصلا، الأمر الذي دفع بي إلى الذهاب مباشرة عند أحد بائع المأكولات الخفيفة في الحي لأسأله: -أهلا سيدي، أريد أن

أسألك لو سمحت. -مرحبا تفضل. -من أين أسلك إلى الطريق المؤدية إلى مراكش من فضلك، وهل هي قريبة من هنا؟ -إنها بعيدة جدا يا أخي. أكد البائع وهو منحنيّ يمسح عربته بمنديل. -وأنى لي السبيل إلى وصولها إذاً؟ -الحل يا أخي هو أن تذهب إلى الجهة الخلفية للكلية حيث يوجد شارع عبد القادر الصحراوي، هناك على اليمين يوجد موقف الباص، قف ثمّ وانتظر قدوم الباص رقم 107 إنه يؤدي إلى الطريق السيار بخمسة دراهم فقط. أفاد بائع المأكولات. -شكرا جزيلاً سيدي على المعلومات. -العفو أخي.

اكتنفتني غبطة عارمة لأنني احتفظتُ بالخمسة دراهم، وتوجهتُ حيثُ أرشدني بائع المأكولات، وبعد لحظاتٍ قديم الباص، إذ لم يكن مكتظاً كالمعتاد، فصعدتُ من الباب الأمامي وأخذتُ تذكرتي، ثم هويت في مقعد بجانب النوافذ. غرزتُ سماعات الهاتف في أذني وطفقت أستمع لأغنية إيريس مِيَا لِ "روميوسانطوس" الهادئة، وأنا أستمع بمشاهدة بياض كازابلانكا من خلف الزجاج!

-11-

نزلتُ في موقف الباص الأخير، القريب من الطريق السيار المؤدي إلى المدينة الحمراء، وترجلت بضعة أمتار ثم توقفت على يمين الطريق أشير بإصبعي إلى السيارات المازّة، دون أن تتوقف أي واحدة منهن، حتى تعبتُ يدي اليمنى من كثرة ما لوّحتُ، وسرى العياء في سائر

جسدى من جراء الوقوف، استرحتُ قليلا على الرصيف، ثم عاودت الكرة من جديد دون جدوى، ومضيتُ أشير بإصبعى ما يزيد عن الساعتين، حتى عيلَ صبرى وفكرت في الاستسلام، نظرتُ إلى ساعتى فوجدتها السادسة والنصف مساء، ثم رفعت رأسى إلى السماء فرأيت شمس الأصيل ذات اللون الأرجواني وقد حولت غمام البحر إلى جمر يتوهج في الأفق. وما إن ابتلع الليل نور الشمس وطغى الظلام على سماء المدينة، حتى توقفت بمحاذاة سياره هامر إيتش وان في لونها الأصفر وعجلاتها الضخمة، لاحظتُ أنها تتكون من مقصورة داخلية تتضمن مقعدان أماميان وثلاثة مقاعد خلفية، وفي الخلف صندوق أمتعة غير مغطى. حدقت في السيارة بفضول فبدا لي رجل أربعيني يقود السيارة وبجواره زوجته الشقراء وثلاثة أطفال يقبعون في الخلف. -مرحبا أين تريد؟ قالت السيدة التي كانت على اليمين بلغة انجليزية. -مراكش لو تفضلتم. أجبت بنفس اللغة. - نتأسف سيدي فنحن مسافرون إلى مدينة ابن جرير لزيارة أصدقائنا هنالك. طمطم السائق بانجليزية ركيكة وأضاف: لكنه يُستحسن أن تصبر وتصعد إلى سيارتنا خير لك من أن تبقى طوال الليل هنا في البرد القارص، فلا أعتقد أن أحدا سينقلك بالنهار فما بالك بهذا الليل الحالِك. -أشكركما كثيرا على لطفكما، سأذهب معكم إلى

مدينة ابن جرير فآنذاك لن يتبقى إلى مدينة مراكش سوى أربعين كيلومترا تقريبا.

ألقى السائق نظرة إلى خلف السيارة وقال: للأسف كما تلاحظ لا يوجد حتى نصف مكان لتجلس فيه، فأطفالي كما ترى سمان كالأبقار الهولندية. قال ذلك ضاحكا وتابع: لكن عندي لك حل، اتبعني. فنزل من مقعده فتبعته إلى مؤخرة السيارة. -أنظر، ستصبر وتصعد إلى صندوق الأمتعة هذا، شريطة أن تترك جيدا فالريح قوية جدا وحاول ألا تجلس القرفصاء فثمة ماء سيبلل ثيابك. وفي الوقت الذي نزل فيه أطفاله كي يستنشقوا هواء الليل ويتبولوا في الظلام، اغتنمتُ أنا فرصة طرح الأسئلة الفضولية. -هل أنتم انجليز؟ -لا يا عزيزي نحن قدمنا من دولة إسرائيل، وبالمناسبة أنا إسرائيلي يهودي ذو أصول مغربية واسمي حاييم بن سودة، وهذه زوجتي أغاثا من أيرلندا. بشبش حاييم. -وهل أتيتم إلى هنا من أجل الاستمتاع بشمس المغرب الدافئة؟ -لا يا عزيزي فإسرائيل هي أرض الشمس المشرقة، وإنما جئنا لزيارة بعض الأصدقاء في مدينة ابن جرير، وبعد يومين سنتجه صوب مدينة ميدلت للاحتفال بموسم الهيلولة في ضريح الولي إسحاق أبو حصيرة. -آه حسنا، مرحبا بكم في بلدكم الثاني. قلت مبتسما ثم صعدتُ إلى عقب سيارة الهامر الضخمة بكل فخر واعتزاز، وتمسكت جيدا كيلا أهوي إلى الأرض

فأتشظى كقنينة مربى، كنت أبدو كراكب الأسد الذي يُخيف من رآه وهو أشد خوفاً، وهكذا شغلتُ حيزاً في مؤخرة السيارة قبل أن تشد طريقها مسرعة. حاولت ألاّ أجلس على صفيح السيارة المبلل بالماء وركزت أنظاري نحو كازابلانكا التي أحببتها من أعماق قلبي، بل كانت هي أفضل مدينة بالنسبة إليّ في المغرب برمته، لقد عشقتها روجي وعشقتُ أهلها الطيبين، لست أدري ما آي ذلك، هل هو بياض مبانيها أم زرقة بحرها، لكن السبب الذي يبدو لي وجيها هو أن أهلها يكونون للطالب الجامعي والمثقف، وكل ما له صلة بالكتاب، بالغ الاحترام والتقدير، وقد شاهدت ذلك بأم عيني غير ذي مرة، كما أنهم يرشدون التائه ويساعدون العاجز. لقد كانت كازابلانكا على مر السنين بوابة مشرعة على مصراعها في وجه كل مغربي، وصدرا رحبا لكل من يبحث عن لقمة عيش، إنها الأم الحنون التي أرضعت أبناءها، وأبناء القادمين من المناطق النائية في الصحاري والقرى، ومن أعالي الجبال. نظرتُ إلى كازابلانكا نظرة جريحة وهي تذوب في لحاف الليل، وكأنني سأتخلى عنها إلى الأبد، ربما سأتخلى عنها الآن، وسيكون ذلك بمثابة التخلي الأعظم، لأن مستقبلي، وبعد أن أفنيت عمري في الدراسة، بات غارقاً في الظلام، والطريق نحوه مفروش بالأشواك والقذارة، لم أعد أعرف مصيري ولا أي شيء آخر، وأعرف أن ما أجهله في مستقبلي الغامض هو الشيء الذي أعرفه جيداً. بكل

صدق؛ أنا خائف من مستقبلي، خائف مما تخبئه لي الطبيعة وقوانينها القاسية، ودعتُ كازابلانكا من باب الاحتياط، وأخفيت ما راكمتُ من الذكريات، ومضيتُ أوارى خيبتى وانكسارى العظيم. لقد كانت السماء مدججة بالنجوم، بينما الريح الصرصر العاتية تصفني من حين لآخر، وبقوة حتى أمسيت أرى طيف حبيبتى مولا وهو يراقصني تحت هذه السماء؛ حيث النجوم لوامع في فحمة الليل. لم أكتربث لقساوة الرحلة، بقدر ما كان شاغلي الأكبر هو أن أرى حبيبتى مولا، وأدعوها أن تضع يدها على روعي وتتحسس ما تبقى مني، فهي دوائي في هذا الوجود المريض الذي غدا عديم المعنى. لم أكن هذه المرة كسفينة بلا دفعة تبجر في بحر بلا مرسى، بل كان لي هدفا وهو أن أبصر وجه حبيبتى المشرق كالشعاع تحت السحاب، إن وجه حبيبتى هو وجمعي، وهو سبب مشاكلي العظمى، ومعاركي الطاحنة، إنى أحتاج وجهها لأغيب به المدى، إنى أحبها، ولو كنتُ نبيا لاتخذتها معجزتي، بيد إنه لا يمكنني فعل ذلك حتى ولو كنت نبيا، ليس لأن زمن المعجزات ولى، ولكن لأنني أحببها في البلد الخطأ.

كان سائق السيارة وزوجه بمعية أطفالهما الصغار يطفحون فرحا، إذ أخذوا جميعهم يرددون أغاني عذبة اللحن باللغة العبرية بأعلى أصواتهم، مشرعين نوافذ السيارة ومستمتعين بنسائم الليل البارد، لقد كانوا يغنون عن المحبة والسلام. وفي لحظة معينة، توقف الغناء

وخمد الصوت الجميل، إذ عمّ الهدوء وبرز قرص القمر من ناحية الشرق كبيراً وأحمر كالجمر، غير أن الذراري الصغار حطموا حاجز الصمت، وسرعان ما أخذوا يلهجون بأغنية إنجليزية بصوت رقيق وشجي. وأخيراً وصلنا إلى مدينة ابن جرير في حوالي منتصف الليل، إذ توقفت بي السيارة عند نافورة كبيرة مزينة بمصابيح، فنزلت وشكرت لهم كرمهم ولطفهم الإنساني. وقبل أن أودعهم، أعطتني أغاناً كيساً بلاستيكياً وقارورة ماء صغيرة، ومن ثم تودعنا ومضت الهامر صوب وجهتها. أخذت الكيس وجلست تحت شجرة أوكالبتوس ضخمة في الرصيف أفتش عما بداخله، كان ثمرة لحسن حظي نصف دجاجة مشوية وخبز، وأكياس صغيرة لصلصة الطماطم علاوة على الرز، تناولت كل ما في الكيس بشهـ شديد، ثم فتحت حقيبتى فتناولت حبة من الدواء أتبعتهما بشربة من الماء المعدني، وجلست هنالك تحت الشجرة بضع لحظات، يا له من كرم يهودي! قلت في نفسي.

كان ثمرة برداً قارصاً وريحاً قوية تعبت ببعض الأكياس البلاستيكية في الشارع المقفر، وما هي إلا لحظات حتى مر من أمامي رجل يرتدي جلباباً بنياً من الصوف. أوعزتُ إليه بالتوقف بغية أن أسأله عن الطريق المفضي إلى مدينة مراكش، إلا إنه أبى أن يستجيب لندائي، بل إنه لم يلتفت إليّ أصلاً. طفقتُ أنظر إليه طويلاً وهو يعترطُ وحيداً في الشارع ناكساً رأسه ومقحماً يده اليمنى في جيبه، يغذ السير بهدوء

حتى تلاشى بعيدا في الأضواء الخافتة، فيما هزىز الرياح يكسر صمت الليل. وبعد ساعة تقريبا مر رجل آخر عجوز يدفع عربته اليدوية، يظهر أنه بائع فشار رائح إلى منزله مطأطئ الرأس، خائر القوى. -أيا رجل! أريد أن أسألك لو سمحت. فردّ بصوت مشروخ: -مرحبا بني تفضل. -أريد الطريق المؤدى إلى مراكش، من أين أسلك إليه؟ -هل تريد أن تسافر إلى مراكش مشيا على الأقدام أم ماذا؟ ضحك الرجل. -كلا سيدي، ثمة شاحنة تنتظرني عند مخرج المدينة في الطريق المؤدى إلى مدينة مراكش، ولا أعرف من أين أسير إلى هنالك. كذبت. - اسمع جيدا، ستنعطف يمينا عبر هذا الطريق حيث أشير لك، وستطرقه حتى تجد بعض محلات الجزارة ومحطة الوقود، فذاك هو الطريق المفضي إلى مدينة مراكش. فشكرت له ثم حملت حقيبتى على ظهري، ولأزلت أمشي ثقيل الخطى باتجاه المكان الذي أدلني عليه الرجل، حتى إذا وصلت شرعت ألوح من جديد للسيارات والشاحنات الثقيلة اللائي نادرا ما يمضين، حيث وقفت ساعة ألوح بيدي دون أن يتوقف أحد ما، حتى كدت أتجمد من شدة الزمهرير. وبعد أن غلبني البرد، ذهبتُ خلف محطة الوقود فنمت هنالك عند الجدار، حيث توسدتُ حقيبتى وتقوقعت كالحلزون، وبعد هنيهة فتك بي النوم. وبينما أنا نائم دخلتُ نملة صغيرة أذني اليسرى، حتى أوشكتُ أن تخرم طبلة أذني، فاستيقظتُ بإجفال وحاولت إخراجها لكنني لم

أقدر على ذلك، أحسستُ بألم حاد جداً في أذني، ولازلتُ أصرخ كالمجنون دون أن ينتبه أحد لصراخي. كان الحل الوحيد لدي للقضاء على النملة الحقيرة، هو أن أذهب إلى مراحيض محطة الوقود وأعرض أذني لماء الصنبور البارد، وهذا ما فعلته دون أدنى تردد، إذ بمجرد أن دخل الماء أذني حتى خفف عني الألم وتوقفت النملة القميئة عن الحفر، مما يعني أنها غرقت في دوامة من الماء البارد. كانت الساعة آنئذ تشير إلى الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، وكانت المراحيض دافئة مثل الكانون، ونظيفة ترضع برائحة الخزامى. أغراني دفؤها في ذلك الهزع الأخير من الليل ذو الريح الزمهرير، فأثرتُ أن أمكث هنالك في أحد المراحيض فأتكوم إلى أن ينبجس الفجر، بدل أن يهراً البرد جسدي النحيف. هجعتُ هنالك في دورة المياه حتى أيقظتني بلجة الشروق المتسللة من الطاقة العلوية للمرحاض، ثم حملت حقيبتى وخرجت لأرى الشمس اللازوردية تتراقص فوق التلال الخضراء البعيدة، والجزارون في الجهة المقابلة يستعدون لفتح محلاتهم، ويتهيؤون لاستقبال أول سرب من الذباب، إلا إن أشعة الشمس البراقة لم تعمر طويلاً، فاتشحت السماء فجأة بملاءة من السحاب الداكن واستعدت للإمطار، وسرعان ما هطل المطر فردم نور الصباح بحلقة كثيفة. قاومت المطر وعبرت إلى الجهة المقابلة من الطريق، ثم وقفت ألوح ثانية للسيارات، وهذه المرة

توقفت شاحنة ثقيلة من نوع ضاف من أول إشارة فصعدتُ، فسألني السائق من أين أقبلتُ وإلى أين أنا متجه، فأجبتُه على سؤاله بالتفصيل. كما أخبرته بأن الغرض من سفري هو استلام شهادة الإجازة، فأشفق على حالي وأصدر آهة عميقة، ثم أخذ يحكي لي عن ابنته الكسولة التي تدرس القانون في جامعة سطات منذ خمس سنوات، ولا زالت لم تنل بعد شهادة الإجازة التي أحرزتها أنا في غضون ثلاث سنوات فقط، وبعد ساعة تقريبا وصلنا إلى المدينة الحمراء.

أثناء تأهبي للنزول من الشاحنة وتوديع صاحبها؛ قدم لي هذا الأخير مائتي درهم شفقة منه عليّ، غير إنني رفضتُ أخذها منه بكل عزة نفس. فحتّامَ سيبقى الغير يشفق عليّ؟ ألهده الدرجة أنا مثير للشفقة؟ فلطالما أشفق عليّ الآخرون، لا، لن أرضى لنفسي أن أكون شحاذا، متسولا وكثير الشكوى والبكاء مثل أرامل الحروب، كما إنني لم أكن كذلك، لقد كانت مرحلة ومضت، مرحلة كنت فيها طالبا عاطلا، طالب حرموه من المنحة الجامعية، وقبول أخذ العطية في مثل هذه الظروف من الممكن أن يكون مسموحا به، أما الآن وقد وجدت عملا مع رشيد طيلة أيام فراغي فلن أسمح لأحدهم أن يشفق عليّ وسأرجع كل الديون التي على كاهلي رغم صغر قيمتها لأصحابها، فسحقا لأخلاق العبيد والضعفاء، وللظروف التي ترسخ هذه الأخلاق الدنيئة، مع العلم أن الدول اللاديمقراطية وبمساعدة من تجار

الدين، هم من يرسخون مثل هذه الأخلاق القبيحة في المجتمع عن طريق منح بعض المساعدات المخجلة التي هي في الأصل حق من حقوق هؤلاء المحتاجين الذين لا يستفيدون من خيرات وطنهم، وأيضا عبر ترسيخ مفهوم الصبر والتوكل على قوى خفية في عقول النشء من قبل تجار الدين، وذلك حتى يكونوا عبيدا للظالمين. لقد أكدت لسائق الشاحنة أن والدي قبل وفاته أوصاني بالأخذ درهما باردا من دون أن يعرق لي فيه جبين، ومع ذلك طلب مني أن أصعد إلى عربة الشاحنة فأعدل المشمع الذي بعثرته الريح العاتية، حتى يتسنى لي تغطية شحنة أكياس الإسمنت وحمايتها من المطر، وذلك كيلا يحنث بقسمه. وقد فعلت ذلك بشق الأنفس نظرا إلى ثقل المشمع المبلل، وأخذت المائتا درهم وانصرفت راضيا مرضيا على الرغم من أن في هذه المائتي درهم شيء من الشفقة اللعينة.

-12-

توقفت زخات المطر عن الهطول شيئا ما فذهبتُ أرومُ إحدى المطاعم حيث تناولت وجبة الفطور، المكونة من كأس من الرائب الطبيعي وقطعة بسكويت ذيلتها بشرب الدواء المضاد للبكتيريا. وبعدها أشعلتُ سيجارة وعرجت نحو حي الداوديات حيث يقيم صديقي كمال، وغبَّ وصولي إلى هنالك حاولت أن أتصل به لأعلمه بوصولي، إلا أن هاتفه كان غير مشغل، حاولت الاتصال مرارا ولا

جواب. بعد ذلك سرت مباشرة وحقيبتى على ظهري إلى مقهى المدرّس في شارع علال الفاسي، كان مقهى جميلا يصاقبه فضاء للألعاب مرصع بالأصفر والأحمر، وفيه الذراري يلعبون، بينما المطر يهطل مرة ويتوقف أخرى. كان المقهى من الداخل أكثر جاذبية، نظيفا ودافئا، حيث لا يوجد فيه سوى رجل وفتاة يجلسان إلى طاولة ويتحدثان بخفوت، وفي الجهة الأخرى على اليمين يجلس مجموعة من الطلبة يراجعون مادتي الديدكتيك والبيداغوجيا بأعلى أصواتهم، نظرت إليهم نظرة انكسار وقلت في نفسي: أمثالكم لا يحالفهم الحظ في هذه الحفرة من الجحيم، لأنكم حتى وإن أصبحتم معلمين فستجدون الهراوة بانتظاركم.

هويت في مقعد في المقهى بعدما جلست بناظريّ هنا وهناك، كانت مقاعد المقهى ناعمة ومغلّفة بجلد رفيع بني اللون. أتى النادل يبتسم من بعيد، فطلبت قهوة سوداء داكنة فأتاني بها بُعيد لحظات مرفوقة بوريقة كتب عليها سبعة دراهم، مع الرقم السري لصبيب الواي فاي، فتساءلت في فكري كيف للطالب أن يضع مؤخرته على مثل هذه المقاعد بسبعة دراهم فقط، يا له من حب للطالب عظيم!

رفعت رأسي إلى جدران المقهى فكانت جميلة هي الأخرى ومزدانة بلوحات فنية؛ واحدة عبارة عن مراهقة عارية بشكل كلي تنظر إلى مرآة وهي للرسام السويسري بالتوس بعنوان عارية أمام المرآة،

والأخرى للرسام الإسباني بيردل بوريل بعنوان الخروج من الإطار وتجسد لمراهق يبدو من خلال نظراته أنه شخص متمرد، ويمد عنقه في محاولة للخروج من إطار أشبه بالنافذة، ولوحة شهيرة للرسام الهولندي يوهانس فيرمير بعنوان الفتاة ذات القرط اللؤلؤي، ثم اللوحة الأخيرة لبرينييه بعنوان حقول في الشتاء. وقبل أن أرشف من كوب القهوة تذكرت بأني لم أغسل وجهي بعد، فقصدت مباشرة حمام المقهى، وأنا أغسل وجهي بدالي هذا الأخير في المرأة مدججا بلحية مجعدة ومتفرقة، وشعري هو الآخر أمسى أشعثا لا يتلاءم مع لقاء رومانسي، فغسلت وجهي على عجل وأوصيت النادل أن ينتبه إلى حقيبتى ريثما أعود. ومن ثم دلفت نحو أقرب حلاق فحلقت شعري ولحيتى، حتى بدوت مثل كريستيانو رونالدو في بداياته، وبكل إعجاب بالنفس اتصلت بحبيبتى مولا. -صباح الخير حبيبتى، أمازلتِ نائمة؟ - صباح الورد حياتى كيف حالك؟ اشتقتُ إليك كثيرا، لقد استيقظت منذ ساعة تقريبا. -حسنا حبيبتى، أردت أن أخبرك بأني في مراكش الآن. -يا إلهي! أحقا أنت في مراكش أم تمزح معي؟ لا أكاد أصدق. -إني أتكلم بجد حبيبتى. -أينك بالضبط؟ -ستجديني في مقهى المدرّس، هل تعرفين المكان؟ - نعم أعرف، إذا انتظرني هناك سألتحف ملحفتى وأتى. -أنا في انتظارك. -حسنا حبيبتى، لن أتجاوز نصف ساعة. ثم أقحمتُ هاتفى في جيبى وقصدتُ مباشرة بائع الورود

فباعنى وردة حمراء زكية العطر، وعدت إلى المقهى أنتظر حبيبتي
مولا على أحر من جمر الغضا.

اتصلتُ بي مولا فأخبرتني بأن أخرج عند بوابة المقهى حيث تقف
هناك، فوضعت الوردة في الحقيبة وأخذتُ بسرعة عطر اللوكازيت؛
رششتُ به جسدي وأعدته إلى الحقيبة وأغلقتها ثم خرجتُ إليها.
كانت واقفة قبالة المقهى، ولما رأيته جريت نحوها فعانقتها عناقا حارا
وضغطت على يدها وابتسمتُ في عينيها. كانت تلتحف ملحفة صفراء
مرصعة بخطوط بنفسجية ونقاط وردية، ويدها منقوشتان
بفسيفساء من الحناء. أما معصمها الأيسر فمزين بأربعة دماليج
ذهبية، كما كانت تحمل حقيبة يدوية صفراء وحذاء ذو الكعب
العالي بلون وردي. أما شفيتها فيظهران وكأنهما بلون بُني داكن. - آه،
كراخو لقد أصبحت نحيفا. استغربتُ. - وأنتِ ازددتِ جمالا حبيبتي. -
ليس كثيرا. قالت مبتسمة وهي تمسح دموع الفرحة وتضغط على
يدي. - ألم تعد ترتدي نظارة؟ - لا، لقد نسيتها في كازابلانكا للأسف.
كذبتُ وأنا أضحك. - وهل ترى جيدا بدونها؟ - باستثناء الأشياء
البعيدة. - حسنا لا بأس في ذلك. - هيا تفضلي أنا أجلس في الداخل. -
ما بال هذا الإصبع؟ - لا تهتمي يا مولا، مجرد جرح بسيط بسكين
الخضر. كذبتُ مرة أخرى. - آه حسنا.

جلسنا معا إلى الطاولة وعرضت عليها أن تشرب شيئاً فأثرت كوباً من الحليب الساخن، وفي تلك اللحظة أخرجت الوردية الحمراء من حقيبتي وأهديتها إياها حتى تضحج وجهها حياءً، وغطت محياها بكفيها. -لا تخجلي حبيبتي فأنت تستحقين أكثر من وردة. ربتتُ على كتفها بحنان. -أحبك كثيراً حبيبي. قبلتُ يدي وهي تنظر في عيني. -وأنا أيضاً مولاً. -أتمنى أن لا يحرمني الله منك لحظة. وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث حول حيواتنا ونعبر لبعضنا عن مكنونات مشاعرنا رنّ هاتفي فجأة، لقد كان صديقي كمال هو من يتصل. -أهلاً كمال لقد... -أعتذر صديقي أنير آسف جداً. قاطعني وتابع: لقد كنت نائماً ونسيت أن أشحن هاتفي، أعلم أنك اتصلت بي مرات عديدة، فبإمكانك أن تأتي إذاً، أنا في غرفتي أعد الغذاء وحباً فيك سأطبخ هذا اليوم طنجرة من الفاصوليا البيضاء فهي سلاح فعال لمحاربة برد الشتاء القارص. ضحك كمال. -أشكرك على كرمك صديقي كمال، أنا الآن في المقهى وسأتي بعد ساعة تقريباً. -حسناً، حاول ألا تتأخر. انقطع الخط ووضعت الهاتف على الطاولة. -مولاً أتذكرين أول لقاء لنا؟ -بالطبع حبيبي، كان في تلك الليلة المطيرة. -تملكين ذاكرة قوية مثل أئمة المساجد. ضحكتُ. -لازلتُ أتذكر كل تفاصيل تلك الليلة، حيث التقينا في دار الثقافة أثناء انعقاد ندوة هناك، كانت على ما أذكر عبارة عن قراءة في كتاب لهيب الماء الذي ألفه أحد

أساتذتنا، أليس كذلك؟ رشفتُ من كوبها. -كذلك هو يا مولا، وكنتُ أدرس في الفصل السادس فيما أنتِ تدرسين بالفصل الرابع، وقد طرحتُ أنا أثناء الندوة سؤالاً طويلاً استعصى على ذلك المتلعثم أن يجيب عليه، أتذكرين؟ -نعم لازلتُ أذكر كل شيء، كانت مداخلتك عميقة جداً، حتى لا أخفيك الحقيقة فإنني أعجبتُ كثيراً في تلك الليلة بأسلوبك الجميل ولغتك الفصيحة. -أحقاً؟ -أكيد، لقد اتخذتُ المنطق ذريعة تلك الليلة حينما طلبتُ منك رقم هاتفك، وقلتُ لك إنني كسولة في مادة المنطق وأنت من سيشرح لي دروس هذه المادة ويخلصني من هذا الإحضال، في الواقع يا أنير لم يكن ذلك هو شاغلي، بقدر ما كان غرضي هو التعرف على شخصيتك الغامضة والعميقة. لقد ظهرت أول مرة أراك فيها مثل رجل مثالي، كفيلسوف أو كروائي مرموق، وكنت كعادتك أنيقاً وكثير الصمت، منعزلاً لا تتحدث إلى الناس؛ بل إنني لم أرك قط تتحدث مع فتاة وقد أعجبتني فيك هذه الخصلة كثيراً، يجب أن تعلم يا أنير أنني لم أكن أنتبه حينما كنت تساعدني في مراجعة دروس منطق القضايا في الحدائق، لم تكن عيني منصبة على الدروس وإنما كانت مركزة على عينيك، لقد بلغ حبك يا أنير شغاف قلبي ولا زال حبي لك يتضاعف درجات. ضغطت على يدي اليسرى بشدة وابتسمتُ في عيني. -أنا مثلك يا مولا أحبك كثيراً وأتمنى أن تغفري لي كل أخطائي إذا كنتُ أسأتُ إليك. -لا

يا حبيبى، أنت لم تسمى إليّ، بل أنا من أسأتُ إليك، أعتذر مرة أخرى حبيبى. -كفى اعتذارا مولا، ربّثتُ على كتفها واستطردتُ: حبيبتي ما رأيك أن نتمشى قليلا تحت هذا الجو الرومانسي، فمنذ مدة لم أتجول في هذه المدينة. -بالتأكيد حبيبى ولمَ لا؟ كنتُ أيضا سأقترح عليك نفس الفكرة لكن خشيتُ أن تكون متعبا من شدة السفر. ازدردتُ كأس الماء التي قدمها لي النادل ودفعتُ ثمن المشروبين، ثم حملتُ حقيبتي وخرجنا مشبكين الأنامل نمشي بخطى وثيدة على رصيف شارع علال الفاسي، وقد كانت على جانب الشارع حدائق غنّاء وبرك ماء صافي خلفها هطول المطر. وصلنا إلى نهاية الشارع حيث يوجد متجر مرجان تحت سفح جبل صغير، وقررنا أن نصعد إلى قمة هذا الأخير، ففعلنا رغم المشقة التي عانتها مولا خلال الصعود، وأثناء جلوسنا في القمة كنا نرى مدينة مراكش عبر منظر بانورامي وننظر إلى الجبال الشاهقة التي تجاور المدينة، مستمتعين بهواء الشتاء المنعش، كل شيء هادئ وجميل، والشمس تطل خلصة من خلف الغيوم الرمادية وتختفي مُخَلِّفَةً وهجا براقا على المدينة الحمراء. أشعلتُ سيجارة وقلت لمولا: أنظري هناك، إلى تلك الجبال البعيدة حيث يجثو الضباب فوق الصخور، تلك الجبال الشوامخ يا حبيبتي هي التي تفصل بين إقليم ورزازات ومدينة مراكش، هناك تقطن أمي يا مولا في بيت بسيط وهادئ كالغابات المطيرة، السقف

متداعٍ وخيوط الوحل تنساب على الجدران كدموع الأطفال. –
أصحيح؟ يا إلهي. تساءلتُ في استغراب ثم نفثتُ سحابة من دخان
السيجارة وقلتُ ناظرا إلى عينيها: أعلم يا مولا أن عيونك الجميلة لم
ترَ من قبل بيتا في قمم الجبال، بقدر ما كانت تلمح صُفرة الرمال
وزرقة المحيط الأطلسي، أما عيوني أنا فلم تلمح سوى غبش الضباب
وسواد الغربان وهي تحلق في الأعالي. ثم رميتُ بعقب السيجارة. -لقد
عانيتَ كثيرا يا حبيبي. -وصبرتُ كثيرا. -أنت رجل مثالي. أسندتُ رأسها
على كتفي الأيسر. -ليس ثمة رجلا مثاليا على هذه الأرض اللعينة يا
مولا، الشفاه التي نراها تبتسم هي نفسها التي تنفث سَمًا كالثعابين،
لذا وجب أن نعرف مع من نحن نتعامل ونكون أكثر حذرا. – أصبتَ يا
أنير، لكنك لستَ من هؤلاء المثاليين المخاتلين، أنت مختلف عنهم،
ودود وطيب، أنا أعرفك جيدا لذا أحببتك. كانت تقول ببراءة وهي
تأمل المدينة الحمراء تحت أجواء المطر.

لعل مولا فتاة ناضج عقلها، لم تكن مثل لمياء المراهقة التي لَجَّ بها
التفئُشُ والإدلال، كانت تحدثني عن إشكالات فلسفية من قبيل
منطق الاعتقاد والمنطق الغائم، وعن نظرية الفوضى. مولا فتاة
جميلة أيضا، وقد كان جمالها معيونا لعيني وحبها معلوما لقلبي، وأنا
بدوري أحبها كثيرا وهي عندي أعذب من الماء وأصفى من الهواء. -
حبيبي أراك حزينا تفكر في شيء ما، هل ثمة شيئا تخفيه عني؟ -هكذا

أنا يا حبيبتي، حزين منذ بدء الخليقة، وسأظل حزينا حتى أحصل على وظيفة وأعيش كمواطن مغربي. -لا تفكر كثيرا في المستقبل كيلا تصاب بال اكتئاب، وعش حاضرك، وامنح الوقت الكافي لدراسة الماستر حتى تنجح. شدت ملحفها بسبب هبة ريح. -الماستر؟ تبا للماستر في هذا الوطن! إنه معاناة وعذاب أليم يا مولا، لقد سئمت من انتظار المنحة الدراسية حتى فكرت في شنق نفسي، لقد أصبحت مثيرا للشفقة بسبب ذلك. -مؤسف حقا، لكن والحق يقال يظهر لي أنك تهدر الوقت فقط في ذلك الماستر من دون فائدة والعمر يمضي سريعا. -وما الحل يا حبيبتي؟ أشعلت سيجارة أخرى. -الحل يا حبيبي هو أن تتخلى عن هذا الماستر الفارغ وتبحث عن وظيفة مُدرّة للدخل، تقيك وتقي أسرتك الصغيرة جحيم الزمان. -وظيفة؟ أي وظيفة مثلا؟ -وظيفة التدريس، أقصد أن ترشح لمباراة التعليم المزمع إجراؤها في السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر، أولم يكن حلمك من قبل أن تصبح أستاذا لمادة الفلسفة؟ -بلى يا مولا. -أتذكر عندما قلت لي إنك ستتزوجني ما إن تصبح أستاذا؟ -لا زلت أذكر ذلك. -أنا متأكدة يا حبيبي أن أحلامنا ستتحقق. -في أي شهر قلت ستُنظّم المباراة؟ -في كانون الأول/ديسمبر. -يعني الشهر المقبل؟ -أكيد. -يا إلهي! لم يتبق الكثير. -عشرة أيام من المراجعة تكفي. -وماذا عن ملابسى وأثاى وكتبى التى تركتها فى كازابلانكا؟ -تخلّ عن كل شيء

وانسَ أمر كازابلانكا، أحظر كل أرقام أصدقائك هناك، خاصة المؤجر الذي تقطن في منزله. -الواقع يا مولا أنّ التخلي عن كتيبي وأصدقائي في كازابلانكا سيكون تخليا عظيما، لكن التخلي عن الدراسة هو التخلي الأعظم. -ليس يهم، قلت لك انس كل شيء هناك وامكث هنا في مراكش. قالت بامتعاض. -وما الذي سأفعله هنا في مراكش؟ -تستعد لمباراة التعليم عبر مراجعتك لدروس الديداكتيك وعلوم التربية. -وما الذي سوف أكله؟ هل سأكل علوم التربية والديداكتيك؟ -ستبحث هذه الأيام عن عمل هنا كيفما كان نوع هذا العمل، في البناء أو غيره، أعلم أنك مثل الفأس أينما ذهبت تحفر، ثق في نفسك إنك رجل من حديد يا أنير. -وأين سأستقر ريثما أنجح في مباراة التعليم؟ -تأكد جيدا أنك ستجد عملا في هذه الأيام بسرعة، هكذا هي طبيعة العمل الشاق في المغرب، فحيثما وليت وجهك ستجده مثل الفقر، وستقيم عند صديقك كمال بينما أنت تشتغل نهارا وتستعد للمباراة ليلا، وتتعاوننا كلاكما على مصاريف الكراء والمعيشة، هو طالب لطيف جدا إنه يدرس رفقتي ولا أظنه سيرفض ذلك. فكر جيدا يا أنير فأنا تهمني مصالحتك كثيرا. ضغطت بيديها على يدي. -لكن ماذا لو لم يتم قبولي في مهنة التدريس؟ -أنا متيقنة جدا أنه سيتم قبولك، أنت كفؤ يا أنير ولا مندوحة من ذلك ستنجح؛ لأنك تتنفس الفلسفة وتعيش بها، والقروش لا تموت غرقا

ما دامت تعيش في الماء. غططتُ في صمت عميق سارحا في أفكاري وأنا ألهج بما قالتة لي مولا. -إي أنير مالك صامت؟ ألم يعجبك اقتراحي؟ فكر بنفسك جيدا يا حبيبي، أنا لا أفرض عليك رأيي. - اقتراحك صائب يا حبيبتى، لن أعود مجددا إلى كازابلانكا، سأتخلى عن شيء عظيم، إنه التخلي الأعظم يا مولا!

-13-

تمسكت بي مولا جيدا حتى نزلنا من الجبل وركبنا التاكسي متجهين إلى حي الداوديات حيث ذهبنا إلى منزلها، في حين وقفتُ أنا قرب دار الشباب أنتظر كمال بعدما اتصل بي وطلب مني أن أنتظره هناك حتى يأتي ويستضيفني لتناول وجبة الغذاء التي أعدها. لم يتأخر كمال كثيرا، إذ جاء بقامته الطويلة وجسده النحيل يبتسم من بعيد. عانقني عنقا شديدا حتى ألمني إصبعي، وأعرب لي عن اشتياقه الشديد لي، وبعد ذلك اتجهنا إلى غرفته التي توجد في الطابق الأرضي. كانت غرفته مرتعا للدفء ومرتبعة على نحو جيد، أرضٌ مرصعة بالموزاييك وجدران مطلية باللون السماوي، ومعاطف سوداء أنيقة معلقة في الشماعات. لم تكن الغرفة مفروشة بالكامل، لكنها أنيقة، كل شيء وُضع في مكانه المناسب، كانت الكتب مرتبة في عبوة كبيرة من الكارتون، والخضروات وضعت في صندوق خشبي، وثمة أواني نظيفة وسجادة صلاة، وعطر من نوع روش نوار. لقد استقبلني كمال

استقبالا طيبا، وافترش لي كساء سميكا، وأعطاني وسادة وملاءة، وبعد لحظات تناولنا الفاصوليا اللذيذة وأعددتُ أنا إبريقا من الشاي، قبل أن أتناول الدواء وأبدل ضماد إصبعي. -يا إلهي ما بال هذا الإصبع؟ اندهش كمال. -لقد أُغلق عليها باب الباص. كذبتُ. -بالشفاء العاجل صديقي. -أمين. وتابعتُ وأنا أربط أصبعي باللفافة: كمال إني أسمع قهقهات فتيات ماذا يجري بحق الجحيم؟ -إنهن طالبات يستأجرن الغرفة التي فوقنا. -وماذا عن صاحب المنزل؟ -إنها امرأة عجوز قد نام العشب في أذنيها تعيش على أجرة الكراء، وتقطن في الغرفة التي في الطابق الأخير. -أنت محظوظ إذاً. -ولم أنا محظوظ ماذا تقصد؟ وضع كأس الشاي على أرضية الموزاييك مع ابتسامة عريضة. -ألم يسبق لك أن زرت إحداهن؟ -عمّن تتحدث لم أفهم؟ -الطالبات اللاتي فوقك، هل سبق لك أن زرت مؤخرة إحداهن في منتصف الليل مثلا؟ فاستعاذ كمال بالله وتمتم قائلا: أستغفر الله العظيم! -إذا أنت لا تصلح لشيء. كنت أقول له مثلما كانت تقول جارتى المراهقة ذات يوم. -أخبرني، كيف تركت كازابلانكا والماستر؟ تعمد كمال تغيير موضوع حديثنا. -كازابلانكا مدينة جميلة، بيد إن دراسة الماستر قاسية جدا بالنسبة إلى فقير مثلي أنا، لذا قررتُ أن أجعل حدا لهذه المعاناة وأتخلى عن كل شيء هناك. -كيف ذلك؟ سأل كمال في حيرة. -سأتخلى عن الدراسة ولن أعود مجددا إلى

كازابلانكا. -وما البديل عن ذلك؟ -سأستعد لمباراة التعليم التي ستنظم في الشهر المقبل، وخلال هذه الأيام سأبحث عن عمل هنا في مراكش، وربما سأشاركك هذه الغرفة إلى حين يتم قبولى في وظيفة التعليم، ما رأيك؟ -أراه قرارا سليما يا أنير، كفى مضیعة للوقت، فأحيانا يكون التخلي عن الأشياء العظيمة مفيدا لنا؛ لأنه يجعلنا نشعر أن حيواتنا لا تتوقف على أي شيء مهما عظمت مكانته، أما بخصوص اللجوء عندي؛ فاعتبر يا صاحبي من اليوم فصاعدا أن هذه الغرفة هي غرفتك أنت أيضا، كل واشرب هنيئا لك، ولا تفكر في أن تخرج من جيبك فلسا واحدا، فنحن إخوة يا أنير. -لا أعرف كيف أشكرك يا كمال. -لا مجال للشكر بيننا يا أنير، لكن ثمة نقطة مهمة يجب أن أوضحها لك. -وما هي؟ -في الواقع لا أعتقد أنك ستعثر على عمل في هذه المدينة السياحية. -وما الحل يا تُرى؟ -الحل هو أن تستقلّ الباص رقم 22 عند باب دكالة، وتنزل في سيدي الزوين، هنالك توجد ضيعات فلاحية، وهنالك أضمن لك العثور على عمل، وحينما تنتهي من العمل في المساء، عُدْ في نفس الباص لتجع هنا في بيتك. -شكرا صديقي على مساعدتك، هذا ما سأفعله، لكن سأذهب قبل ذلك في صباح الغد إلى الجامعة لأستلم شهادتي الجامعية الأصلية. -إذاً هل ستذهب رفقتي؟ فأنا أيضا لدي حصة الفلسفة الإسلامية في العاشرة صباحا وأمل أن تحضر معي في قاعة

المحاضرة، فأنا متأكد أن المحاضرة ستنال إعجابك. -حسنا، سأحضر معك ولم لا؟ لكن شريطة أن أجلس بجانب زوجتي المستقبلية مولا. -آه، مولا، أعرفها جيدا دائما ما كانت تسألني عنك، إنها تحبك كثيرا، اعتنِ بها فهي حقا فتاة تليق بالزواج يا صديقي، ما عليك سوى أن تعمل وتوفر البيت الذي ستعيشان فيه، ويكون بيتا حصينا، فأنت ترى كم مولا جذابة. ضحك كمال. -إذا كانت المرأة حصانا فلا داعي لأن يكون البيت حصينا يا كمال. قلتُ له وقهقهنا معاً.

-14-

في صباح اليوم التالي ذهبت بمعية كمال إلى الجامعة في التاسعة والنصف، وبعد وصولنا توجهنا مباشرة إلى مصلحة الدبلومات؛ حيث كانت ثمة فتاة رشيقة تظهر نهدىها الناتئين من بين قميصها المنفرط، وتبتسم أكثر من اللازم، وعلى مكتبها توجد أبراج من الدبلومات المترابطة تنتظر الطلبة من ذوي الحظ السيئ. -صباح الخير. قلتُ مبتسما. -صباح النور. نغمتُ بنبرة ودية وأضافت: هل أساعدك في شيء؟ -أريد شهادتي الجامعية، سلك الإجازة. -بطاقتك الوطنية لو سمحت. فأمدتها ببطاقتي الوطنية وراحت تقرأها وتبحث عن شهادتي من بين ذلك الركام من الشواهد، وبعد خمس دقائق تمكنتُ من العثور عليها فقدمتها إليّ بمعية بطاقتي الوطنية. -

أتمنى لك حظاً موفقاً. قالت لى مبتسمة وغادرننا. ثم أخذتُ شهادتى الأصلية وأنا أطفح بالفرح، إذ كنت قد تسجلت بسلك الماستر فى كازابلانكا بوصل يعادل هذه الشهادة كنت قد تسلّمته فى حزيران/يونيو المنصرم من نفس الجامعة. وفى التاسعة وخمسين دقيقة، وبعدما تسكعنا فى باحة الكلية، صعدنا الدرج نحو القاعة رقم 42، حيث ستقام المحاضرة، رمقتنى حبيبتى مولا فهمت مسرعة بالدخول إلى القاعة لتضع دفترا على الكرسي الذي يحاذيها قبل أن تكتظ القاعة بالطلاب. دخل كل الطلبة إلى القاعة وبعد ذلك بقليل لحقهم الأستاذ يحمل فى يمينه حقيبة من الجلد الفاسى، وفى يسراه مكبر الصوت، وهكذا جلست إلى جانب مولا مشاركا إياها الطاولة، وقد احمرّ وجهى على وقع تلك النظرات الغيورة التي كان يسلطها علىّ طلبة الفصل، إذ بات الكل تقريبا يدرك أنني شخص غريب عن الفصل مثل بجة سوداء داخل سرب من البجع الأبيض. شرع الأستاذ يلقي محاضرة عن مفهومى الإمكان الأخرى والحركة فى الجوهر عند الملاءمة الشيرازى، وهو أحد رواد الفلسفة الشرقية الجافة، بيد إن الأستاذ كان يستغرق وقتاً طويلاً فى مدحه أكثر من شرح فلسفته المملة، حيث كان يصفه بكل مبالغة بشيخ المتألهين، والحكيم الإلهى، والفيلسوف الربانى، ومجدد الفلسفة الإسلامية، حتى خلّتني فى زاوية صوفية. وبينما كانت مولا إلى جانب الطلبة

يدونون فى دفاترهم محاضرة الأستاذ، أخرجتُ أنا شهادة الإجازة من
الظرف بكل سرور وأخذتُ أتفحصها وأقرأ ما فيها، وفيما أنا أقرأ
تلقيت صدمة جعلتني أرتجف فى مكاني وأبتلع ريقى، بل فكرت فى
تمزيق الدبلوم فى تلك اللحظة. وقد قرأت فى الدبلوم ما يلى:

الإجازة فى الدراسات الأساسية:

يشهد رئيس جامعة القاضي عياض

أن الأنسة: أنير أزنالك.

المزداة فى: 17 مارس 1996

بن إغرم نوكدال-ورزازات

قد أحرزت على الإجازة فى الدراسات الأساسية.

مسلك: الفلسفة

بميزة: حسن

إمضاء: السيد عميد الكلية.

بَلْبَلَنِي القلق دون أن تشعر مولا بذلك، وتساءلت كيف يعقل أن
أقضي ثلاث سنوات فى جامعة مراكش متجرعا شظف العيش
وضنك الحياة؛ من جوع وبؤس، وحر وبرد، وعمل شاق، ومراجعة
للدروس تحت جذوع النخل، وفى الأخير تضرب الجامعة رجولتي
عرض الحائط وتجعل مني أنسة؟ انتهت الحصّة فى تمام الثانية
عشرة ظهرا فأخبرتُ مولا بالخطأ الشنيع الموجود فى شهادتي، ثم

توجهنا مسرعين إلى إدارة الكلية بغية تصحيح الخطأ، فأخبرتنا الكاتبة أنه ليس يكون خطأ جسيماً ويمكن تصحيحه بقلم الرصاص. نغصت عليّ تلك الشهادة الخرائية سعادتى فى ذلك اليوم، حيث راودتنى شكوك بأن هذا الدبلوم لن يُقبل منى فى الترشح لمباراة التعليم، إذ يشكل هذا الدبلوم أول شرط من شروط الترشح لهذه الوظيفة. ولنسيان هذه المعضلة اقترحتُ على مولا أن نخرج معا فى جولة متواضعة إلى بساتين النخيل المجاورة لحي الداوديات فأومأت بالقبول. لكن قبل ذهابنا إلى حيث يوجد النخيل، مررنا بسنالك شُعب المتاخم للحي الجامعي، حيث اقتنت مولا زوجين من السندوتش المحشو بالسجق، واشتريت أنا قنينة ماء معدني وعلبة سجائر بالإضافة إلى علبتين من علكة الكلوريتس. كانت السماء محيطة بستار من الغيوم، والجو بارد ينهش العظام، فأرقت مولا ذراعها بذراعي وحملتُ أنا الكيس بيدي اليمنى ومشينا بخطى ثقيلة نحو النخيل نضحك معا ونغني، إذ تناولنا غذاءنا تحت نخلة يانعة ذات قطوف دانية، وبعد انتهائنا صرنا نضرب عروش النخل بالحجارة دون أن نسقط ثمرة واحدة. كانت مولا مسرورة جدا إذ أخذت تردد بصوتها الجميل أغنية حسّانية مغربية، وكانت مراکش رائعة للغاية، وشبيهة بشقيقتها قرطبة وسرقسطة زمن الحكم المغربي. فرغم الحب الذي تكنه لي مولا، إلا أنها لا تتجرأ على النظر

مباشرة في وجهي، وفي تلك اللحظة مسكتها من ذراعها وأوضحت لها بأنني حبيبها وينبغي عليها أن تنظر إلى عيني، وعندئذ تذهب وجهها خجلا وهي تحاول أن تنظر إلى عيني، ففسرت لي ذلك بأنها تخجل مني رغم كل شيء. ألححت عليها كثيرا بأن تتجراً وتفعل ذلك الآن، وأخيرا نظرت إليّ فوقعت عيني على عينيها الواسعتين، فابتسمت وعانقتها أمام عشرات النخلات المتمايلات مع ربح تشرين الثاني/نوفمبر.

أشعلت سيجارة، ثم حثنا الخطى تحت حمرة الشمس التي أطلت علينا خلسة من بين الغيوم إلى ساحة متحف الماء، حيث التقطنا صورة مع ناعورة الماء الضخمة هناك والتي تعود إلى عهد الموحدين. لم يكن أحد غيرنا في تلك الساحة، وقد كان بريق الشمس الأحمر في ذلك المساء ينعكس على مياه النوافير المتلألئة. جلسنا في أحد مقاعد الساحة وطفقنا نتبادل القبل حتى جفت شفاهنا، كانت مولا تغمض عينيها ويتضجج محيّاها خجلا، وعلى شفيتها ترفرف مئات الابتسامات. -مولا، لا أظن أن أباك سيقبل بي زوجا لك. -ولماذا؟ -لأنني لست صحراويا. -وما العيب في ذلك؟ -لأنك صحراوية وأنا أمازيغي، وسمعت أن الصحراويين يكتنون الكراهة للأمازيغ، وأن المرأة الصحراوية لا تتزوج إلا من رجل صحراوي وهذا الأخير كذلك لا يتزوج سوى امرأة صحراوية. -إياك أن تكرر هذه الخزعبلات مرة أخرى يا حبيبي. حذرتني واستعطفت: أنا لا أنكر أنني صحراوية من

مدينة العيون وأصولي تنحدر من قبائل أولاد دليم فى أقصى جنوب المملكة، لكن هذا لا يعنى أنى من بلد آخر، هناك أمازيغى وزنجى ويهودى ونصرانى وطوارقى وحسانى وعربى ومسلم وأندلسى، لكنهم فى نهاية الأمر شعب واحد يعيشون داخل وطنهم الواحد والأوحد الذى هو المملكة المغربية؛ متعددة الأعراق والثقافات، إن المغرب ليس عربيا صرفا ولا محض أمازيغى، وإنما تركيبة من الأجناس والأعراق التى بنت هذه المملكة العريقة والمتماسكة، لبنة، لبنة، عبر مر العصور، هذه الدولة التى يزيد عمرها بكثير عن ألف وأربعمائة عام، والملك المغربى "يوكوس الأول" -الذى كان حاكما على الأمة المغربية حوالى 110 قبل الميلاد - خير شاهد على ذلك. صحيح يا حبيبى أن الكوديو الإسبانى حاول يوما ما أن يبدد الأخوة بين المغاربة ويفرق الشمل مثلما يفعل الضراط، لكن هذا الديكتاتور مات عام 1975 وماتت معه العنصرية، وما زالت الأخوة حية بين كل المغاربة. نحن شعب واحد يا أنير من طنجة فى أقصى الشمال، إلى الكويرة فى أقصى الجنوب مهما تعددت ثقافتنا، لأن المملكة المغربية هى الواحد المتعدد وهى الكل الواحد. وطننا بحاجة إلينا يا أنير، لن نخذله أبدا، وإن كنا نختلف مع من يبيعون لنا الوهم من رجالات الحكومة وباقي المسؤولين، لأننا سنموت جميعا وسيبقى الوطن. -أتفق معك حبيبتي، إننا نختلف مع سياسة الوطن، وليس مع الوطن نفسه. -لذا

ينبغي عليك أن تُخلى ذهنك من مثل هذه الأفكار السامة، لأن أبي سيسر كثيرا بزواج ابنته من رجل شاب وطموح لا يهاب الصعاب، بل إن أبي مستعد لأن ينحر عددا كبيرا من الإبل في زفافنا تعبيرا عن فرحته. -هل يملك أباك الإبل؟ -مائة وعشرون رأسا من الإبل. حدّدت. -مائة وعشرون؟ وأين يرعى كل هذا القطيع؟ -يرعاه راعيان بسيارتين من الدفع الرباعي؛ واحدة من نوع تويوتا والأخرى لاندرو فير، وذلك تارة في منطقة المسيد وأخرى في منطقتي النقوب وتزارين. -أعلم أن منطقة المسيد تقع في الصحراء، لكن لماذا ترعون أيضا في النقوب وتزارين التابعين لإقليم زاغورة؟ -لأنهما يقعان أيضا في المملكة المغربية مثل منطقة المسيد. -أعرف ذلك، كنت أقصد فقط مسألة القرب. -لا يهم إذا كان المكان بعيدا ما يهم هو أن يتوفر الكلاً والأ نرعى في أرض غير أرض مغربنا الحبيب. -مائة وعشرون رأسا من الإبل، مائة وعشرون رأسا يا أنير.. مائة وعشرون أيها الفقير! تمتمتُ بخُفوت. -ماذا تقول؟ -لا شيء، كنت أقول بأن زفافنا سيكون راقيا جدا. كذبتُ. -من دون شك. ابتسمتُ.

ترنحت الشمس جهة الغرب، فأدمى الغروب السماء، وبعد دقائق أرخى الليل سدوله حاملا بين طياته ريحا زمهريرا. شغلت مولا هاتفها وأخذنا نستمع معا لأغنية حسّانية بصوت مولايس بعنوان: *Sahara mi amor*. -حبيبي ما رأيك أن نرقص معا؟ -ليس لدي رغبة في

الرقص يا حبيبتي. -لا يعجبك الرقص، أليس كذلك؟ -كلا، ولكن لا أعرف الرقص. -وهل يعجبك أنتِ الرقص؟ -كثيرا، خاصة في الليل. -لماذا في الليل تحديدا؟ -لأنه حينما تلمع النجوم في السماء، تأتي رقصة المساء، فتتشابك الأنامل ويسري الحب المقدس في الدماء، وتتنفس القلوب وَقَع الرقصة ناسية كل عناء، لذا فالرقص في وطني فضلا عن الغناء، أفضل من طائرة حربية تعكر صفو السماء، وتقصف المباني والوهاد الخضراء، فتخلف في الجو مصيبة، وفي البر بلواء. وسائحة أندلسية شقراء، وأخرى من بلاد الإفرنج ذات عيون زرقاء، تتسكعان في ساحة جامع الفناء؛ واحدة ترتدي ملحفة من الصحراء، والأخرى تزين يديها بالحناء؛ أفضل من جنود غزاة يشنون على وطني حملة شعواء، فيسبون النساء ويقتلون الأبرياء. وصفير بلبل فوق شجر الأرز، أفضل من طلقة رصاص شاردة تفزع الحمام وتخرق الأذان الصماء. وعجوز تحت زيتونة يُحولق ويُحمدل، وفي يمناه سبحة، أفضل من شاب رث الهيئة يجعل من الكحول قديسا ومن الحشيش مَوْلًا، ورجل يقلب بفأسه الثرى كل صباح متنفسا نسيم الهواء، أفضل من جبان يتوارى خلف السطور فيعلن ثورة وهمية بين الحروف، وفي المساء يمشي كالكلب خلف النساء، فيطلب درهما لليلى أو دعاء! لقد كانت مولا تُعبّر بأعلى صوتها وبلكنة شعرية، وهي ترفع يديها مثل مجنوننة، وتضحك في أمسية جميلة

ورومانسية. وعندما أشعلت سيجارة وشرعتُ أروي لها نكتة
مراكشية مضحكة، قهقهتُ حتى انحنتُ واضعةً يدها على قلبها،
وكادت تسقط على وجهها من كثرة الضحك لو أنى أمسكتها من
خاصرتها وقبّلتها في خدها الأيسر ومضينا عائدين.

-15-

على مدار الأيام القليلة التالية، وتحديدًا ذات سبت عدت إلى غرفة
كمال في الخامسة عصرًا بعدما قضيت أنا ومولا يومًا ممتعًا في حدائق
جيليز وساحة جامع الفناء، وجدت كمال يرتدي معطفه الأسود
وحذاءه الإيطالي اللّماع، ويوضب بعض ملابسه في حقيبته استعدادًا
للسفر، فسألته عن سبب ذلك فأجاب أن أخاه الأكبر قد ازدان
فراشه بمولود، فعانقته وهنأته كمن كان هو الذي رُزق بالمولود. -
سأترك لك مفتاح الغرفة ومفتاح المنزل أيضًا لأنه يُقفل عند تمام
التاسعة ليلاً، لا تغادر الغرفة يا أنير، اعتبرها غرفتك، أنا سأعود
بعد ثلاثة أيام فقط وسأجلب معي كذلك دثارًا ووسادة وبعض زيت
الزيتون إن كانوا قد انتهوا من عصره. -حسنا كمال، سأمكث هنا
ريثما تعود. -اسمع جيدًا يا أنير، هناك بعض الخضروات في
الصندوق، والتوابل في تلك القارورة الزجاجية ذات الغطاء الأحمر،
والقارورة الأخرى ذات الغطاء الأبيض توجد بها قهوة، أما قنينة الغاز
فها هي ذي أمام باب الغرفة، فأنا كما ترى لا أضعها معي داخل

الغرفة حينما أريد أن أنام نظرا إلى خطورتها، للأسف لم يتبق الزيت، لكن سأعطيك النقود لتشتريه. -كلا يا كمال، دع نقودك في جيبك سأشتريه بنفسى، فلدى بعض النقود. اعترضتُ. -لا يمكننى أن أقبل بذلك فأنت الضيف عندي وليس العكس، خُذْ، هذى مائة درهم، اشترِ الزيت والخبز كذلك، وعُدّ عشاءك، تصرفْ وكأن كل شيء في ملكيتك. أكد كمال ثم استعطف: أه كدت أنسى، تلك القفة المعلقة في الحائط ستجد فيها عدساً وفاصوليا بيضاء؛ إنها مضادات حيوية لفيروس الجوع والبرد الفتاكين، بقيت ثمة نقطة واحدة؛ حذارِ أن تنام قبل أن تخرج قنينة الغاز من الغرفة فهي كما تعلم قنبلة موقوتة، اتفقنا؟. -اتفقنا صديقى. -وداعا سأذهب الآن. -أراك لاحقا صديقى، بلِّغ سلامى وتهانى الطيبة لأخيك. -شكرا على طيب التهانى. قال وانصرف.

حينما غادر كمال، كانت السماء حينها لا تزال تحفل ببريق الشمس الآخذة في الغروب، وفي نفس الوقت كانت الغيوم تداهم أجواء مراكش وتنبئ بعودة المطر من جديد، حتى أضحى السماء رمادية اللون في أقل من نصف ساعة، وبعد ساعات من ذلك طبختُ بعض العدس وأعددت وجبة عشائى، ثم تهيأت لإعداد إبريق الشاي فغسلت الكؤوس ووضعتها فوق المنضدة. أمسى المطر في الخارج يهطل بغزارة غير معتادة، وهو يخدش النافذة التي تطل على الشارع

حتى أحدث بها صدعا وأسقط طرفا من زجاجها، مما جعل الريح الهوجاء تتسرب إلى داخل الغرفة حيث أضحت كؤوس الشاي الفارغة فوق المنضدة تتمايل وتضحك؛ تخبرني كم أنا وحيد! تناولتُ وجبة العشاء بعدما اشتريتُ خبزا بلّله المطر غبّ عودتي من الدكان، وازدردتُ كؤوسا من الشاي الساخن الذي هدأ أعصابي، والذي كان يعادل بالنسبة إليّ خمر الجين ساعتئذ، ثم فتحت حقيبتى وأخرجت كتاب رحلة في أقاصي الليل الذي جعّدت الرحلة من كازابلانكا صفحاته، وأشعلت آخر سيجارة كانت في العلبة ثم أخذت أقرأ إلى أن ثققلت أجفاني بالنوم، فنقرت بعصا المكنسة قاطع الإنارة وأطفأت الضوء، بينما زمجرات المطر، وهزيم الرعد، ورنين هاتفي المتواصل في تلك اللحظة قد امتزجوا في نغمة واحدة مثل نوتة موسيقية دون أن أكثرث لذلك.

انقشع الصباح ومزقت الشمس الغيوم، فنهضت من فراشي وغسلتُ وجهي وأسناني، ثم خرجت إلى الدكان لشراء مستلزمات الفطور وبعض السجائر، وحين عودتي صادفتُ سارة تخرج من نفس المنزل الذي يستوطنه كمال. -سارة ماذا تفعلين هنا؟ -يا إلهي! أنت هذا؟ فغرت فاهها وتابعت: أه كم اشتقنا إليك جميعنا! أشعلتُ سيجارة وشرعتُ أقول لها: أنا أيضا اشتقتُ إليكم يا سارة، فكل من درس معي في جامعة القاضي عياض هو بالضرورة صديقي وسيبقى

صديقى إلى الأبد. -وما الذى جاء بك إلى هنا؟ -لقد جئت من أجل أخذ شهادة الإجازة اللعينة. -ممتاز، مبارك لك. -شكرا سارة. -العفو أنير. -ظننتك نجحت أيضا يا سارة، فما الذى جرى؟ -كلا لم أنجح للأسف وها أنا أعيد فصلا دراسيا بأكمله. -ليست نهاية العالم يا سارة. -بالفعل أنير. -أتمنى أن تنجحي هذه المرة. -أمل ذلك. رفعت أنظارها متهددة. -أنا متأكد من ذلك. -سمعت أنك تدرس الماستر في كازابلانكا، هل ذلك صحيح؟ -كلا، إنها إشاعات فقط. -وماذا تفعل حاليا؟ -مجرد عاطل في هذا الوقت. -اصبر، ستتحسن الأمور. رمقتني بنظرة ذابلة. -لقد عيل صبري يا سارة. -هل تمكث حاليا عند كمال؟ غيرت الموضوع. -نعم. -كمال طالب طيب الجميع يشهد له بذلك، إنه يدرس معي، للأسف هو أيضا رسب كما تعلم، رغم أنه لا يستحق الرسوب والحق يُقال. -طبعاً سارة، إنه شخص مجتهد، ولا يستحق الرسوب. -مع الأسف. -آه، نسيت، لقد حضرت الأسبوع الماضي إلى أحد الحصص في فصلكم ولم أرك. -صحيح لم أستطع الحضور أسبوعاً كاملاً بسبب المرض. -هل تحسنت صحتك الآن؟ -نعم، نسبياً. -حمداً لله. -أنير أراك لاحقاً، سأذهب الآن إلى الدكان صديقاتي ينتظرن الخبز. -حسناً، وداعاً سارة. -إي سارة، مهلاً. -ماذا هناك أنير؟ -دقيقة من فضلك. توقفتُ فسألتهما: -كم من فتاة تقطن معك؟ -ثلاث طالبات من مدينة الطائطان، لماذا هذا السؤال يا أنير؟

-يعني أن غرفتك مكتظة. ابتسمتُ. -وهل تريد أن تنام معنا؟
ضحكتُ. -كلا، أسألُ فقط. -لا بالعكس إن غرفتنا واسعة بما يكفي.
-وهل تعرفين مولا؟ -لا، هل درست معنا في السنة الفارطة؟ -كلا،
ولكنها تدرس معك الآن. -أسفة، لم أسمع بهذا الاسم في الفصل
فعدد الطالبات كثير جدا. -على أي اسمعيني؛ مولا طالبة صحراوية
تدرس معك، وهي خطيبة شقيقي. كذبتُ وأردفت: كانت تقطن مع
اثنتين من صديقاتها في إحدى الغرف هنا بحي الداوديات وهما
شقيقتان واحدة اسمها ليلي والأخرى لبنى، وللأسف سافرتا هذا
الصباح بسبب أبيهما الذي توفي عند فجر اليوم، حيث كان المسكين
ذاهبا إلى المسجد ليصلي؛ فإذا به يقع في حفرة الصرف الصحي الذي
كانت هوته مفتوحة ولم يرها بفعل الظلام حتى سقط فلترقد روحه
بسلام على قلة رأسه فمات من فوره، وبما أن مولا تعاني من رهاب
الظلام وتترأى لها الأشباح إذا هي بقيت بمفردها فإنها لا تستطيع أن
تنام وحيدة. فسرتُ كاذبا. -مسكين فلترقد روحه بسلام. -أمين. -أين
هي الآن خطيبة شقيقك لتمكث معنا؟ -أخشى في الحقيقة أن يشكل
وجود مولا حرجاً بالنسبة إلى صديقاتك يا سارة. -لا تقل ذلك
بالعكس سيرحبن بها وغالبا ستكون مولا هاته صديقتهن. -حسنا، إذاً
عندما تغيب الشمس ستجدينها تنتظرك قرب مدرسة رابعة العدوية
وخذيهما إلى حيث تسكنين، فأنا لن أكون هنا آنذاك، إذ سأنام الليلة

فى منزل صديقى بحى العزُوزِيَّة. كذبتُ مرةً أُخرى. -كن مطمئنا يا أنير.
-شكرا سارة. -العفو.

بعءما تناولتُ وجبة الفطور ذهبت مباشرة إلى مقهى الإمارات وطلبت
قهوة سوداء وسيجارة، كان يوم أحد مشمس وهادئ، أخرجت هاتفى
من جيبى لأتصل بمولا كى نستمتع معا فى جلسة رومانسية. وفى تلك
اللحظة بالضبط توصلتُ برسالة عبر الواتساب من رقم مجهول،
وقد كان ذلك الحساب على الواتساب يحمل صورة لفتاة مرسومة؛
إنها تلك التى تدعى فُولى، محبوبة البنات الصغيرات. أشعلت
السيجارة ثم حملت الهاتف باليد اليسرى وأخذت أقرأ الرسالة
واضعا ساقا على ساق، حيث قرأتُ ما يلى:

عزيزى كوتشو:

إنى فى هذه اللحظة أحمل بين أناملى المترعدة هاتفى النقال الذى
اشتراه لى بابا قبل يومين، وأكتب إليك كلمات من جمر، أتمنى أن
تصلك قبل أن يتعطل الهاتف على وقع هذه الدموع المندردة، التى
تهطل على شاشته. إنى لم أرك منذ عدة أيام؛ أخبارك اندرست،
أثارك انطمست، وابتسامتى من كثرة ما بكيْتُ شوقا احتبست، وكأن
الأرض ابتلعتك على حين غرة. اتصلتُ بك ليلة أمس مرارا وتكرارا
دون أن أتلقى منك جوابا. لقد اشتقتُ إليك، وأتمنى من أعماق قلبى
أن أسمع عنك أحسن أخبار، سواء أكنت فى عمل شاق يجمع بين

سواد الليل وبياض النهار، أوقابعا في حي آخر من أحياء كازابلانكا، أو مسافرا إلى مكان بعيد. أنا حزينة ومنهكة يا كوتشو، بالأمس عانيت من وجع شديد في بطني، فنزلت إلى غرفتك بعد منتصف الليل متربصة كي أشكو إليك وجعي، فلم أجد غير الصمت يكتنف المكان، نظرت من شرخ باب غرفتك فلم أر سوى الظلام وبخار الرطوبة يفوحان من غرفتك، وانعكاس ضوء القمر على زجاج النافذة يومض مثل حشرة الكوكويو، لا شيء آخر يا كوتشو. رجاء كوتشو، عُذ في الحال، فأنا لا أطيق غيابك، أُعدُّ لك القهوة في الصباح فلا أجدك، ثم أضطر إلى سكبها في البالوعة بغيظ ظاهر، وفي الليل أطرق بابك بُغية أن أمنحك كالمعتاد أوراقا بيضاء تكتب فيها يومياتك فلا أجدك؛ مما يجلني أجعدّها باستياء شديد. كما إنني أتيتك مهرولة أول أمس لأقدم لك جريدة المساء، كي تقرأ عن خبر التفجير الإرهابي الذي هزّ كابول ليتسنى لك أن تضحك مقهقها من أعماق قلبك، وللأسف لم تكن موجودا هناك. أه كم اشتقتُ إليك يا كوتشو وإلى نبرة صوتك الشعاعية، وتلك الأغاني المكسيكية الرومانسية التي لا تزال تتردد إلى مسامعي وخيالي؛ خاصة أغاني الفنان العظيم لويس ميغيل، وأيضا موسيقا فرقة المارياتشي فارغاس التي تصدح بها غرفتك، عُذ رجاء فحي مولاي رشيد كله يسأل عنك، لقد أصبحت كازاويًا يا كوتشو.

جارتك المراهقة لمياء: خالص الحب والوفاء.

قرأت الرسالة على عَجَل، ثم حضرتُ الرقم الذي بُعثتُ منه دون أن أبادر برد. كما إنني قمتُ بحظر رقم والد لمياء باعتبارهُ مؤجر الغرفة، و حضرتُ كذلك جميع أرقام الأصدقاء الذين تعرفت عليهم في كازابلانكا مع الإبقاء على رقم صديقي العزيز رشيد. بعد ذلك اتصلتُ بحبيبتي مولا وأخبرتها أنني أنتظرها في مقهى الإمارات، فجاءت بعد عشرين دقيقة تقريبا، طلبتُ قهوة بالكراميلاً وبدءنا الدردشة. -مولا، أتعلمين لِمَ اتصلتُ بك؟ -لا أعرف، ماذا هناك؟ استغربتُ. -هذه الليلة لن تنامي في غرفتك. -وأين سأنام بنظرك؟ -ستنامين مع بعض الطالبات أعرفهن جيدا لن يلمسن شعرة واحدة منك. -منذ متى أصبحت تعرف الطالبات؟ اندلق الغيظ من بين شفتيها. -لا تفكري بعيدا، واحدة منهن درستُ معي في السنة الماضية أما الأخريات فلستُ أعرفهن. -وهل جُننت؟ كيف يُعقل أن أنام مع طالبات لا أعرفهن؟ -ستعرفين هذه الليلة. -وبأي مناسبة سأنام معهن؟ -مولا! ضغطتُ علي يدها. -ماذا هناك؟ -هل تحبينني؟ -كثيراً. -إذاً نفذي ما سأقوله لك بالحرف وتأكدي جيدا أنه يستحيل علي أن أؤذيك أو ألقى بك إلى التهلكة. أخفضتُ صوتي. -وماذا سأفعل؟ اندهشتُ. -عندما تغيب الشمس، سوف تقفين أمام بوابة مدرسة رابعة العدوية حيث ستأتي إليك فتاة بيضاء قصيرة وغليلة ذات

وجنتين حمرابين ولها نَهْ.. - كفى، لقد وصفتها بما يكفي. قاطعتني متأففةً. -المهم أن اسمها سارة، أخبريها أنك مولا، وأنا الآن سأملئ عليك ما ستقولينه لها.

لَقَّنتُ مولا تلك القصة التي نسجها خيالي في الصباح، وحرصتُ على أن تحفظها حرفيا حتى لا تكتشف سارة أنني كذبتُ عليها، كما حرصتُ عليها بأن تقول لها أنني غير موجود في الداوديات وإنما ذهبتُ إلى حي العزُوزية. -يا إلهي كيف سأحفظ كل هذا؟ -ستحفظينه بسهولة أنا متأكد من ذلك. -ولمَ كل هذا؟ -انتظري لم أكمل بعد. قاطعتها وتابعتُ: وعندما سترافقينها إلى الغرفة، ستمكثين معهن هناك، حتى تتأكدي أنهن نِمْنَ جمعاوات، آنذاك سترسلين إليّ رسالة عبر الواتساب كي أعطيك الإشارة للنزول عندي إلى الغرفة التي أنام فيها، أعني غرفة كمال، فهي توجد أسفل أولئك الطالبات، لكن احذري من أن تنامي أنتِ كذلك فتفشل خُطتنا. -وماذا عن كمال؟ - لقد سافر البارحة ولن يعود إلا بعد ثلاثة أيام، تذكرني جيدا أن الغرفة توجد في الأسفل وبابها أصفر فاتح، أما الغرفة المجاورة لها فلا يقطنها أحد، وهما الغرفتان الوحيدتان الموجودتان هناك في الطابق الأرضي، وستنزلين بعد أن ينمن، متسللة عبر الدرج لتقضي معي ليلة غرامية تحت أضواء الشموع. -أنتِ أحمق؟ لن أستطيع فعل كل هذا، كما إنني لست عاهرتك. -اسمعيني يا مولا، أنا لم أقل

أنك عاهرة، أنتِ حبيبتى، وأنا حبيبك، أنا لك أنتِ وحدك يا مولا، وهذه الليلة قررتُ أن أعبر لك عن حبي بطريقة أخرى، عن حبي الحقيقي يا مولا، فنفذي يا غاليتي ما أقوله لك إن كنتِ حقا تحبينني. -ألا تبدو لك يا حبيبي أن هذه مغامرة؟- هذا تحديدا هو الحب يا مولا، إنه مغامرة وقفزة في المجهول. -حسنا، أعطني مهلة للتفكير. -لا مكان للفكر في ساحة الحب يا مولا. وهنا تذكّرتُ قول جارتى المراهقة. واستطردتُ: الحب سلام، تسليم واستسلام أيضا، فاستسلمي لقراري ولبيّ طلبى، يُور فاقور مولا. قلتُ لها ذلك ثم طلبتُ سيجارة أخرى، أشعلتها مُحدثا سحابة من دخان التبغ بينما مولا مطأطئة رأسها تفكر في الموضوع. -حسنا، أنا موافقة. رفعت رأسها متنهدة. -رائع، رائع جدا يا حبيبتى، قبّلتُ جبينها. -يا لك من مجنون. ابتسمتُ. -هل تذكرين كل ما أوصيتك به؟ -ولا كلمة واحدة. -كراخو، نسيتِ كل شيء بكل هذه السرعة؟ -ههههه إنى أمزح فقط، لازلّت أحفظ ذلك كلمة، كلمة. -ممتاز، إذاً أراك بعد أن تنام كل الطالبات. -ومتى ستأتى أنتِ إلى الغرفة؟ -في العاشرة. -قالى كرينيو، اتفقنا. تنهّدتُ. -مولا، إنى أراك خائفة، رجاء لا تخافى، الكل سيمر على أحسن ما يرام حبيبتى، أوكد لك، والآن يمكنكِ أن تنصرفى، أحبك. قبّلتُ يدها. -أحبك كثيرا. ختمت مولا الجلسة وانصرفتُ.

-16-

دخلتُ متسللاً إلى الغرفة في العاشرة ليلاً، أشعلتُ الضوء وشرعتُ أقرأ في إحدى الجرائد حتى باغتني الملل، فأرسلت رسالة لمولا عبر الواتساب أقول فيها: -مساء الخير حبيبتي، هل نفذتِ اتفاقنا؟ -مساء الأنوار، نعم، أنا الآن مع الطالبات، إنهن لطيفات جداً، وقد رحبن بي كثيراً. -جميل جداً، وماذا تفعلين الآن؟ كتبتُ لها، فلم ترد على الرسالة إذ يظهر أنها وضعت هاتفها جانباً. وبعد خمس دقائق ردت على رسالتي قائلة: -المعذرة لقد ذهبتُ إلى المرحاض، وتابعت تكتب: أنا الآن أراجع مع سلمى مادة منطق القضايا، هي طالبة في شعبة الفلسفة أيضاً، تدرس بالفصل الثالث، وأردتُ فقط أن أشرح لها المنطق لأنها متبوعة به في الفصل الرابع. -إذاً عندما ينمن وتتأكدين من نومهن؛ آنذاك يمكنك النزول إلى العالم السفلي ههه، أقصد غرفتي التي في الأسفل.

انتظرت ردها للحظات دون أن أتلقى جواباً، ثم قمتُ من مكاني لأعد وجبة العشاء، لم يكن لدي من خيار سوى أن أعد طاجينا مما تبقى من تلك الخضروات. تركتُ الطاجين يطهو على نار هادئة وخرجتُ بكل هدوء لأجلب الخبز والقهوة والسجائر، ولما عدتُ في أقل من خمس دقائق نظرتُ في هاتفي علني أعثر على رسالة من مولا، إلا أنها لم ترسل شيئاً للأسف فخشيت أن تكون قد نامت. وبعد مرور ساعة

أخرى، حيث كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل أرسلت رسالة تقول فيها: -حبيبي أنير أعتذر مرة أخرى، لقد كنا نتعشى وقد نامت سارة منذ نصف ساعة تقريبا ونامتا أيضا بعدها تانك الفتاتان الأخريان، ولم تتبق سوى نادية أشرح لها الطريقة الشجرية من منطق القضايا، لكنها هي الأخرى بدأ النوم يداعب أجفانها، هي الآن تنجز بعض التمارين، وبعدها ستخلد إلى النوم على ما يبدو، عموما سأخبرك بأي جديد، تشاو.

تناولتُ بعضاً من وجبة العشاء التي أعدتها، وانتابني شعور بالندم؛ أحسستُ بأنني أستغل مولا من أجل إشباع شهوتي الجامحة باسم الحب. وفي نفس الوقت فكّرت بأن الحب كما الإنسان، لم يكن فقط لاماديا، بقدر ما كان ماديا وملموسا أيضا؛ وماديته تتجسد في اتصال الأجساد عبر عملية الجنس الذي يكون في كثير من الأحيان وسيلة للتعبير عن الحب نفسه كما قالت لي جارتى المراهقة ذات يوم، وبينما أنا غارق في أفكارى يستبيحني الندم تلقيتُ رسالة من مولا: -أنير لقد نام الجميع وأنا الآن واقفة فوق أول درجة من الدرج، أنتعل خُفّ إحداهن لأن الموزاييك بارد جدا، وأعضُّ إبهامي بأسناني مترددة بين النزول إليك والعودة إلى استكمال مراجعة دروس المنطق بمفردي حتى يفترسني النعاس. فخفق قلبي بمجرد أن قرأتُ رسالتها وكتبت إليها ما يلي:

-إننا فى حضرة الليل يا مولا ، دعك من هراء العقل وترهات النهار،
كفاك من مراجعة دروس المنطق فإنّ القضايا كلها كاذبة، وتعالى
نتعانق فوق السرير نبحثُ عن صدق الحب، حتى يتبين لنا الخيط
الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. لا تترددى يا مولا ، اخلعى
نعليكِ وانزلى الدرج بهدوء ولا تحزنى، فإنّ الطالبات الكسولات
غارقاتٍ فى متاهات النوم وأغوار الكوابيس، أسمعُ شخيرهن من
غرفتي السفلية وقد عكّرتِ صمتَ الليل. أرجوكِ يا مولا لا تتأخري،
فأنا أنتظركِ كعود ثقابٍ أقاومُ الانطفاء فى وجه الريح، انزعى إبهامكِ
من فمكِ وضعى قدمكِ على الدرجة الثانية ولا تترددى فى الهبوط إليّ،
فإنى مستعدُّ لأفعل هذه الليلة كل الخطايا والآثام التى عجزت عن
فعلها الشياطين بينما تعانقيني أنتِ فوق السرير. لا تخجلي فى خلع
ملحفتكِ الصفراء والكشف عن ثدييكِ الناهدين، حتى وإنّ خجلتِ
فإنى سأطفئ نار خجلكِ بأمطار شفتيّ وأسافر فى أنحاء جسدكِ
مجتاحاً خصركِ وصدركِ العريض لأذيب كيانكِ، وأنقلبُ فوقكِ
لأتذوق شهد لعابك. وفيما أنتِ تزدادين خجلاً واحمراراً وتتصببين
عرقاً؛ أعضُّ أنا حلمتيكِ وشفتيك. لن أرحمكِ يا مولا ، سأضاجعكِ
بقسوة وبربرية، ودون رحمة منى، لأننى فى النهار فيلسوفٌ جادٌ أتقن
فنّ البراهين، وفى الليل رجلٌ عاميٌّ لا أعرف صناعة المنطق؛ كل ما
أتقنه يا مولا هو أن أصنع من جسدكِ كعكاً تبدو عليه آثارُ العضّ!

أعلمُ يا حبيبتي أنكِ خائفة ومترددة، وتحتاجين إلى شيء من التحفيز،
رجاء لا تمكثي هناكِ واقفة في الدرج فالطقس بارد هذه الليلة، وتعالى
لنتقاسم الوحدة جنباً إلى جنب كتلك التي تقاسمها جاك وروز في
فيلم التايتانيك قبل أن يتجمد جسده ويبتلعه المحيط، ولم يعثر على
جسده حتى الآن. أنتِ تعلمين يا حبيبتي كم أنا تائه وحزين، فدعينا
أرجوكِ نقترَب من بعضنا أكثر في هذه الليلة، دعينا نلقي بنا في هاوية
سحيقة، في ثقب أسود، في أي شيء يستطيع أن يبتلعنا معاً، فلَبِّي
ندائي يا مولا ولو مرّة واحدة في عمركِ، وتعالى أعطني موتاً حلوّاً على
صدركِ!

قرعتُ مولا باب غرفتي بهدوء مباشرة بعدما قرأتُ رسالتى
الإليكترونية، ووقفتُ قُدام العتبة حافية القدمين في هيئةٍ حسنةٍ
تنظر بعينٍ دعجاء من مُقلبةٍ بيضاء. كانت خائفة ترتجف وتحمل في
يدها اليسرى كتاباً قديماً ومهترئاً أحمر اللون، فأدخلتها وغلقتُ
الباب بإحكام. -حبيبتي، هل أنت جائعة؟ -كلا، أنا خائفة فقط.
تلعثمتُ بلكنة بريئة. -من ماذا حبيبتي؟ تحسّستُ خدّها. -من هذا
الكتاب. أشارت إلى الكتاب الأحمر. ألقيتُ نظرة خاطفة إلى الكتاب
الذي جاءت تحمله مولا، فقرأتُ عنوانه:
ضغريث:

"أسرارُ الشمس"

تفحصتُ الكتاب وأنا استنشق عبق صفحاته القديمة والمهترئة. -
مولا أين عثرتِ على هذا الكتاب؟ -لقد وجدته عند نادية، وقد قالت
لي إنَّ أحد المتشردين بحومتهم وجدته ذات ليلة في المقبرة، وقدمه
لأخيها الأصغر. أجابت متخوفةً.

قرأتُ أول صفحة من ذلك الكتاب، فاندعشتُ بما قرأتُ وانتابني
خوف شديد، اكتشفتُ أن ذلك الكتاب من عجائب الكتب، لا أعلم
إن كان هذا الكتاب المخيف من الكتب النادرة، أم الذائعة الصيت،
لقد شعرتُ وأنا أقرأ كلمات هذا الكتاب الملعزة وكأنني أكتشف عالماً
جديداً، أو أنني قد هويت إلى العالم السفلي، لقد قضيتُ أنا ومولا
وقتا طويلاً في عالم آخر يقبع وراء الكلمات، عالم مخيف جداً، عالم
من الأرواح الفظيعة والأشباح والظلال اللازوردية، ولو قرأتُ عليك
عزيزي القارئ صفحة واحدة من هذا الكتاب الذي يستدعي مني
إبقاء أسرارهِ طيّ الكتمان لوقعتَ تحت تأثير السحر الأبدي، ولنسيتَ
عالم الحياة اليومية، ولربما جننت إلى الأبد. لقد فرّت كل رغبة أو
شهوة من مولا جرّاء الخوف، وأمست صامتة كالموت، بيد أنني لم
أستسلم لتحجرها فراودتها عن نفسها حتى لانت عريكها، وأخذتُ
أكشف عنها كمن يكشف عن بيضة مكنونة، كانت ذات جسد أبيض
إذا رأيتهما في الظلماء حسبتها بدراناً. لقد خضعنا كلانا في الأخير لدفع
الشبق رغم مخاوف الكتاب العجيب، ورغم ترددات مولا التي كانت

تبدو فى البداية خجولة كونها فتاةً متحفظةً وحَصَانٌ، إلا إنى قاومتُ
خجلها وكنْتُ عنيفا الحِصَان. ولَمَّا التهمت الشمس القمر فى الصباح،
واختفت النجوم من السماء؛ انتعلتُ مولا حذائى ومضت إلى منزلها
دون أن تربط شِسْعَ الحذاء ناسية الكتاب المخيف.

-17-

بينما أحتُ الخُطى فى ذلك الصباح على رصيف شارع فلسطين الذى
لا يزال مبلا بمياه الأمطار، وعلى ظهري حقيبتى، أبتغى موقف
الباصات فى باب دكالة؛ مر من نفس الشارع شاب على دراجته النارية
من نوع سي 90 بأقصى سرعة ممكنة. وبما أن شارع فلسطين
ينعطف من جهة المسبح البلدى فإنَّ العجلة الأمامية للدراجة قد
زلت بفعل الإسفلت المبلل، وسقط حينها الشاب الذى لم يكن يرتدي
خوذة على رأسه تحت عجلات شاحنة كبيرة من نوع ميتسوبيشي
مُحمّلة بالخضروات، كانت ستنعطف إلى السوق المغطى المتواجد فى
عين المكان، حيث وقعت رأسه تحت ثقل تلك العجلات الضخمة
حتى تشظت جمجمته مثل بيضة، وتطاير بعضٌ من مخه على حذائى
اللامع، فكشطتُ تلك المادة الأدمية الدافئة برؤوس أصابعى،
وواصلتُ طريقي إلى حيثُ أنا ذاهب، فى حين تألّب جمٌّ غفير من
المصابين بحمّى الفضول على الجثة وسط الشارع، وطفقوا يلتقطون
أجمل الصور الصباحية كما جرت العادة.

وصلتُ إلى موقف الباص رقم 22 قرب مقبرة باب دُكَّالَة، وسألتُ امرأة هناك عمّا إذا كان الباص رقم 22 سيتأخر، فأجابتنى أنه انطلق قبل خمس دقائق فيما سيأتي الآخر بعد أربعين دقيقة تقريبا. وفي تلك اللحظة نفسها عبرت الشارع إلى الحديقة الموجودة هناك، والتي كانت تزدهي بالأشجار المورقة، والأزهار المونقة، والسواقي المُغدوْدِقة. جلستُ هناك على أحد الكراسي واضعا ساقاً على ساقٍ وأشعلتُ سيجارة كاميل الخفيفة، لقد كنتُ أصارع أفكارى وأفكر كثيرا فيما إذا كنتُ سأجد عملا هذا الصباح أم لا، وهل سأجتني النجاح بعد شهر في مباراة التعليم وأغدو أستاذًا، أم إنني أحلم بشيء مستحيل التحقق، والعديد من التساؤلات التشاؤمية. وفي الوقت الذي رميت فيه بعقب السيجارة وأردتُ إخراج الأخرى سمعتُ هرة تهرهرُ بمقربة مني، وكأنها تجلس على فخذي، التفتتُ يمنة وشمالا فلم أجد شيئا فأشعلت السيجارة. وبينما أنا ساهٍ أمجّ سيجارتى شعرتُ بشيء ما أسفل ساقى، أخفضتُ نظري فوجدتُ هرة صغيرة تلحق كُممً بنطالى، فألقيتُ نظرة على سبب لعقها للكُمم فإذا بها كانت تلحق بقايا مَخّ ذلك الشاب التي التاطتُ بنطالى الكالْح والتي لم أنتبه إليها. تركتُ القطة تتابع عملية التنظيف، ورفعت رأسى أدخن وأستمع برؤية المؤخرات وهي تتمايل على الرصيف.

قَدِمَ الباص بعد لحظات من الانتظار فانطلقت نحوه لأحجز مكانى،
جلس إلى جنبى رجل عجوز تفوح منه رائحة الموت، ويظهر من لكانته
أنه رجل قروى من تلك القرى العربىة التى لا يزال أهلها إلى اليوم
يتمتعون بالشمائل الدمثة والسخاء العظيم. مدّ الرجل يده إلى جيب
جلبابه فأخرج زوجين من حلوى السكاكر وأعطاني واحدة وتناول
الأخرى، ليرمينى بعدها بسهام من الأسئلة، إذ سألتنى أولاً عن بلدتى
ثم عن سبب ذهابى إلى "سىدى الزوين". ورغم أن أسئلته أوقتنى
تأويقا وكانت ثقيلة علىّ؛ إلا إننى أجبته بكل صدق بأنى من إقليم
ورزازات وأنى ذاهب للبحث عن عمل فى الضيعات الفلاحية. وفى هذه
اللحظة بالتحديد سمعنى رجل كان يجلس فى المقعد الذى أمامى
والتفت إليّ حتى سقطت طاقيته من على رأسه وبانت صلغته
اللامعة، كان رجلا كهلا عريض المنكبين، حليق اللحية وبارز الشارب،
يرتدى جلابا خشنا. -هل تبحث عن عمل يا ولدى؟ همس بلكنته
القروية وشدّ بيميناه طاقيته خوفا من أن تسقط مرة أخرى. -نعم.
أجبتُ. -أليس لديك مشكلة فى أن تعمل حارسا فى إحدى القبلاّت؟ -
ليس لى مشكلة فى ذلك. -ولكن لماذا؟ -لأنه توجد يا ولدى إحدى
القبلاّت بحى تارگة هنا فى مراكش ويحتاج صاحبها إلى حارس يحرسها،
لأنه لا يقيم فيها، فهو يقطن فى العاصمة الرباط بيد إنه يأتى من حين
لآخر لزيارتها، إنه رجل طيب يدعى جاد، ولا أخفى عليك أننى حرسْتُ

هذه القبلاً مدة تسع سنوات دون أن أواجه أيّ مشاكل، كون القبلاً تحرس نفسها بنفسها وتبدو كحصن حصين أو محل مكين، لقد مكثتُ فيها إلى أن تزوجتُ هذه الأيام. -تهانينا، زواج مبارك بدوام السعادة والذرية الصالحة. قاطعتُهُ لأهنئه فشكرني ثم تابع كلامه قائلاً: ولما تزوجتُ تركتُ حراسة القبلاً لأن جاد كما جرت العادة يشترط على الحارس المبيت، وأنا لا أستطيع أن أنام بعيداً عن زوجتي، وفي نفس الوقت لا يمكنني أن آتي بزوجتي إلى القبلاً لأن المدين تفسد طباع النساء، عموماً سأعطيك رقمه، اتصل به وقل له أنا من طرف الضُّو، فاسمي هو الضُّو. -شكراً على مساعدتك سيدي الضُّو. -هذا واجب يا ولدي. وأضاف: شرفني باسمك يا بني. -اسمي أنير. -تشرفتُ بمعرفتك. -وأنا كذلك. -إذاً دَوِّنْ رقم جاد سأمليه عليك الآن. -لكن ليس لديّ الرصيد للأسف. -لا عليك، سأتصل به بنفسى وأتمنى ألا يكون قد غادر مراکش هذه الأيام لأنه يقطن في الرباط. اتصل الضُّو بصاحب القبلاً بصوت جهير جداً حتى استدارت نحونا كل رؤوس الركاب، وعرفوا أنني سأشتغل حارساً في إحدى القبلاًت، كما عرفوا بأنني شاب أسمر صغير ولطيف من إقليم ورزازات، اسمي أنير وأرتدي معطفاً أسوداً تحته تيشرت أبيض وعلى إصبعي ضمّاد. لقد تحدثتُ معه قرابة الثلاث دقائق ثم التفتتُ نحوي ثانية بابتسامة ترقص على شفتيه. -يا لحسن حظك يا أنير! إنه لا يزال في مراکش. -

شكرا سيدي مرة أخرى. -اسمعي جيدا يا أنير، انزل الآن قبل أن يتعد الباص أكثر ثم استقل التاكسي إلى شارع فيكتور هيغو، وأخبر السائق أنك ستنزل عند مقهى سان خوان حيث يجلس الآن جاد، قف أمام المقهى وسينادي عليك، لقد وصفتك له كما أنت، وسمعت ذلك بنفسك، وأبلغه سلامي الحار، وداعا يا ولدي. شكرته وتهيات للزول، ثم أخرج العجوز الذي كان يجلس بجانبى تفاحة خضراء من قلنسوة جلابه ومنحنها وهو يتسم، فأخذتها من يده بابتسامة بريئة ونزلت فاستقلت التاكسي إلى مقهى سان خوان فيكتور هيغو، حيث لم أقف مثل تمثال أمام هذه الأخيرة كما أمرني الضو ودخلت أجول بنظري نحو كراسي المقهى وطاولاتها التي تنم عن أناقة باذخة. وفجأة لوح إليّ رجل بيده كان يجلس بمعية فتاة شقراء في مدخل المقهى المطل على شارع فيكتور هيغو دون أن ينتبه إلى دخولي منذ البداية. -إي أنير. صاح بي فذهبت نحوهما بابتسامة مصطنعة وصافحتهما، ثم كرّسالي كرسيًا جلستُ عليه، لقد كان رجلاً يقف على أعتاب الأربعين كما يبدو لي، وله شعر يربطه خلف أذنيه. يرتدي البذلة الرسمية؛ بقميص أبيض عليه صدرية سوداء وربطة عنق زرقاء مزدانة بخطوط بيضاء، وفي يده اليسرى ساعة فخمة، كما أنه كان يضع على رأسه قبعة سومبريرو المكسيكية، أما عيناه فلا تظهران من تحت نظارته الشمسية السوداء مثل القار. فيما تبدو

الفتاة الشقراء التي بجانبه أنها لا تعرف العربية، ومظهرها يوحي بأنها فتاة من العالم الجديد. كانت ترتدي هي الأخرى البذلة الرسمية بتنورة لا تتجاوز حد الركبتين وتحتذي حذاء الكعب العالي، وتدخن غليوناً. -هل أنت هو أنير؟ سأل الرجل فأجبتُ بنعم. -تشرفتُ بمعرفتك، أنا جاد وهذه زوجتي أنجلينا من أميركا. -تشرفتُ بمعرفتكما. ابتسمتُ في وجه أنجلينا. -هل تشرب شيئاً؟ -قهوة سوداء. -أيتها النادلة، قهوة سوداء لهذا الرجل من فضلك. هتف جاد. -هل أنت صحراوي يا أنير؟ -لا سيدي، أنا من جبال الأطلس. -ممتاز. رشف جاد من فنجان القهوة وأضاف: تعجبني تلك المناطق الشامخة. -شكراً. ارتجلتُ بخجل. -أنا كازاوي ولدت بكازابلانكا، بيد إن أصولي تعود إلى مدينة تزنيث، بحيث أن والدي تاجر مجوهرات قديم إلى كازابلانكا منذ سبعينات القرن الماضي ولا يزال يشتغل إلى حدود الساعة أمد الله في عمره كصائغ في قيسارية الحي المحمدي بكازابلانكا. قال جاد بينما زوجته أنجلينا تنظر إلى تلفاز المقهى وتنفت سحبا من الدخان بغليونها. -وهل لازلتي تزور مدينة تزنيث؟ -نادرا ما أزورها يا صديقي بحكم أن ظروف العمل لا تسمح بذلك، أكتفي فقط بزيارة كازابلانكا حيث اشتريتُ مؤخرا قليلاً هناك بحي عين السبع في شارع اللوز، كما أزور أيضا والدي بالحي المحمدي، أما مدينة مراکش فأزورها كل اثنين بمعية زوجتي أنجلينا إذ لدي تلك

القبلاً التي سترها بعد قليل، إنها جميلة وستعمل فيها بارتياح، لقد اشتريتها منذ عشر سنوات. -أكيد جميلة، لقد تحدث لي عنها الضو. -آه على الضو! تنهد جاد وتابع: كم هو طيب ذاك الرجل، لم أر فيه إلا حميد الغرائز وكريم الشيم، لقد اشتغل عندي كحارس في تلك القبلاً ما يزيد عن ثمان سنوات حتى تزوج وغادر، رغم أنني اقترحت عليه أن يقطن رفقة زوجته في القبلاً لكنه رفض ذلك. -نعم إنه لطيف جدا. -قل لي أنير، ما مستواك الدراسي؟ -الإجازة في الفلسفة. -أوه، فيلوزوفي! قال جاد بلكنة إنجليزية. -تماما سيدي. -أنت مجاز، فلماذا لم تبحث عن عمل أفضل؟ -في شهر كانون الأول/ديسمبر سأجتاز مباراة التعليم وأتمنى أن يحالفني الحظ. -خييرا ستفعل يا أنير، وأنا متأكد أنك ستنجح ما دمت تريد النجاح، الأمر لا يتطلب الكثير سوى العمل والصبر. أنا أيضا صبرتُ وحصلت على شهادة الإجازة في الحقوق من جامعة كازابلانكا، وبعد ذلك تابعتُ دراستي العليا بالولايات المتحدة الأمريكية حتى حصلت على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة شيكاغو وهناك تعرفت على أنجلينا. -أميركا؟. غمغمتُ بإعجاب وتابعتُ: لقد قرأتُ عنها في كتاب الديمقراطية في أمريكا للكاتب الفرنسي أليكسيس دو توكفيل، لقد أعجبتُ بأميركا حقا. -إنها بلد رائع يا أنير. -أتمنى زيارتها. -اسمع جيدا يا أنير، إذا لم تنجح في مباراة التعليم في الشهر المقبل

فسأساعدك على الهجرة إلى أميركا كي تشتغل في شركة التبغ التي يملكها صهري في مدينة شيكاغو. -أحقا؟ استغربتُ. -إنه وعد يا أنير، أقسم لك أنك ستهاجر إلى أميركا بكل سهولة. -ولماذا بسهولة؟ -إنه عملي. -أيُّ عمل؟ -إني موظف في السفارة الأميركية. -هنا في المغرب؟ -طبعا، في العاصمة الرباط حيث أستقر أنا وأنجلينا. -لا أعرف كيف أشكر حضرتك. -لا داعي للشكر أيها الفيلسوف.

أخذ جاد يتحدث مع زوجته بلغة إنجليزية لبعض الوقت، ثم قام من كرسيه ودفع للنادلة ثمن المشروبات. وبعد ذلك خرجنا نقصد سيارته المركونة جنب الرصيف، والتي كانت سيارة سوداء أنيقة من نوع جاغوار إي بيس 2018 تحمل لوحة معدنية صفراء عليها حروف عربية، وثمة إشارة فهد نحاسي يزين جبين السيارة، أما من الداخل فقد كانت أشبه بغرفة في فندق باذخ، وما إن هويت على المقعد الناعم حتى انطلقت السيارة نحو حي تاركة، كان الصباح قد ولى والشمس بلغت سِمتَ الرؤوس.

وصلنا في غضون دقائق إلى تاركة بعدما انعقدت بيننا أواصر التعارف، بادهني ذلك الحي الجميل لما يتميز به من نظافة وهدوء تام، إلى جانب النخيل الذي يحوطه من كل جانب. نزلنا من السيارة ودخلنا قليلاً جاد، وفي هذه اللحظة أخذت أجول بأنظاري في أركان القيلاً؛ إنها قِليلاً واسعة بما يكفي، بها حديقة صغيرة مزدهية

بأشجار البرتقال تجدها على يمينك مباشرة بعد أن تدخل من البوابة، وبها مسبح تحوطه الأرائك والمنضدات الزجاجية. -أنير، هل أعجبك المكان؟ ابتسم جاد. -حقاً رائع. -حسنًا، إذاً اتبعني لأشرح لك الوظيفة التي ستقوم بها كل يوم في هذه الثيلا.

تبعته فيما أنجلينا ابتركت على أحد الأرائك قرب المسبح، أشعلت سيجارة وأخذت تعبت بشعرها وتتصور بهاتفها عبر طريقة السيلفي؛ صورة بعد أخرى. -كما ترى عزيزي أنير هذه الحديقة ستقوم بسقيها كل صباح بواسطة هذه الخراطيم، وذلك قبل شروق الشمس بنحو نصف ساعة، لأنك إذا قمت بذلك بعد طلوع الشمس فإنّ العشب لا شكّ سيتضرّر. -اتفقنا سيدي. -وهنا المسبح؛ حيث في العاشرة من كل صباح ستقوم بأخذ سطل الكلور هذا، وتغرف منه كأساً كبيرة واحدة لا أكثر من مادة الكلور وتلقيه في ماء المسبح. -واضح جاد. -وعلى رُسلك حتى لا يرتطم الكلور بملابسك فإنه سيبيضها، أما إذا لحق عينيك فأنت تعلم ماذا سيحل بهما، وبعد ذلك ستأخذ هذه السلة اليدوية وتزيل بها كل الشوائب العالقة مثل الفراشات والحشرات وأوراق الشجر التي تسقط في المسبح فتطفو على سطح الماء، أما في المساء حينما تغيب الشمس؛ فإنك ستقوم بتغليظ هذه الأرائك وكذلك المنضدات بذلك المشمع الأخضر الموجود في القبو حفاظاً عليهم من نداوة الليل، لتزيله عنهم بعد طلوع الشمس، وكن

حذرا حتى لا تتكسر المنضدات الزجاجية. -كن مطمئنا، سأكون حذرا. -بقيت عملية واحدة وهي أنك كل ليلة في الساعة التاسعة ستقوم بكنس قعر المسبح، لا شك أنه سيكون مضاء، فإذا أمعنت النظر الآن ستظهر لك مصابيح مثبتة في قعر المسبح، إنها تضيء تلقائيا في الليل، على أيّ، ستكنسه بهذه المكنسة الكهربائية بعد أن تشبّك خرطوم المكنسة بالماسورة، ومن ثم تقوم بتحريكها داخل قعر المسبح مع الحرص على بقاء رأس التنظيف الخاصة بمكنسة المسبح دائما تحت الماء أثناء الاستخدام حتى لا يتسرب إليها الهواء فيتوقف المحرك، وكن متيقظا باستمرار كيلا يصل الماء إلى المحرك في القبو أسفل المسبح فإنه سيتعطل من فوره وستشتغل حينها عندي حولين كاملين بالمجان كتعويض عن خسارته. ضحك جاد وتابع: وبعد ذلك ستخلد إلى النوم، تعال معي لترى غرفتك.

تبعته مرة أخرى، وهذه المرة إلى الحديقة حيث كانت ثمة غرفة معزولة، وخلفها يوجد حمّام مزود بالماء الساخن ومطبخ صغير، كانت الغرفة من الداخل مطلية بصباغة بيضاء زيتية، لم تكن مفروشة باستثناء سرير خشبي كان موجودا في الركن من دون غطاء أو وسادة، وتزين الغرفة نافذة واسعة تطل على المسبح يمكنك أن تمد يدك منها لتقطف برتقالة طازجة من الشجرة المحاذية للنافذة، غير أن عيب الغرفة يكمن في سقفها القصديري. -انتظر لحظة،

سأعطيك بطانية ووسادة، وفراشا تضعه على السرير. قال جاد ودخل إلى غُرفِ القبلا التي لم تسنح لي الفرصة لرؤيتها، وأتاني بالفراش والبطانية. -خُذْ، إنه فراش دافئ. فأمسكتُ الفراش من يده وشكرته. -يبدو أنني شرحت لك بما فيه الكفاية الوظيفة اليومية المنوطة بك في هذه القبلا، هل بات كل شيء واضحاً بالنسبة إليك؟ - واضح جداً سيدي. -ممتاز، إذا سأغادر الآن بمعية زوجتي وسأعود الاثنين المقبل، لأنه دائماً في هذا اليوم تكون لدي أغراض في القنصلية الأميركية بمراكش، مع العلم أنني سأظل أزورك كل اثنين لأدفع لك أجرتك الأسبوعية. -تعلم مبلغ الأجرة الأسبوعية أليس كذلك؟ -كلا سيدي. -وَألمْ يخبرك الضو بذلك؟ استغرب جاد. - مطلقاً. -حسناً، الأجرة هي ثمان مائة درهم كل اثنين، هل توافق على هذا المبلغ؟ فكان من الأقمّن بي والأخلق لي أن أوافق، لذا أومأتُ بالقبول. -إذا سأعطيك الآن تسبقاً من مائتي درهم كي تشتري ما أنت في حاجة ماسة إليه كقنينة الغاز، وبعض الأواني أو شيئاً من هذا القبيل، وسأقتطعها لك من الأجرة الاثنين القادم، لأنّ جميع غُرفِ القبلا والمطبخ والحمام إلى غير ذلك سيبقى مقفلاً دائماً في غيابي؛ بمعنى أن لك حرية التصرف فقط في غرفتك ومطبخك والحمام الخاص بك، وفي الحديقة والمسبح، فضلاً عن باحة القبلا. -شكراً لك. -قلت لي في الصباح أنك ستستعد لمباراة التعليم أليس كذلك؟ -

بلى سيدى. -هل لديك الوثائق والمراجع التى ستراجع فيها؟ فأجبتُ بالنفى. -إذا دَوَّنْ لي بسرعة فى ورقة كل ما ستحتاجه فى الاستعداد لهذه المباراة، لا تخجل فى ذلك دَوَّنْ كل شيء، سأشتري لك كل الوثائق والمراجع من مكتبة الألفية الثالثة بالرباط ولن أقطع لك ذلك من الأجرة. فشكرته على إحسانه هذا ودونت على ورقة عناوين بعض المراجع الخاصة بعلوم التربية، وديداكتيك الفلسفة، وجميع كتب الفلسفة الخاصة بالمتعلِّمين بمختلف الشعب والمسالك، والوثائق المتعلقة بمستجدات علوم التربية، والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة الفلسفة، والمقررات الوزارية السنوية، والمذكرات الخاصة بمادة الفلسفة، وكتاب تاريخ الفلسفة لإميل برييه وقصة الفلسفة لويل ديورانت، ثم أعطيته الورقة. -طالما قرأتُ فى الجرائد أن الأستاذ فى المغرب أصبح يشتغل فى إطار ما يسمى بالتعاقد، والأساتذة فى الشوارع يطالبون بالإدماج فى أسلاك الوظيفة العمومية، هل هذا صحيح؟ سأل جاد. -الأمر صحيح للأسف. -يا للكارثة! إنها وصمة عار على جبين المملكة المغربية، سيضحك علينا العالم يا أنير حتى يضرط، لأننا قدّمنا التعاقد مكافأة على المجهودات التى يبذلها المعلم المغربى فى إنتاج "المواطن الصالح"، على الرغم من أن المعرفة التى يتلقاها المتعلم المغربى لا ترقى إلى المستوى الذى سيجعل منه مواطناً صالحاً يحب وطنه، ويدافع عن حقوقه، ويعبر

بكل حرية عن آرائه، ويناضل ضد الحيف واللاعدل. لكنه واضح جدا أن هذا الذي أراد تطبيق التعاقد في مجال التعليم -مع كل الخزي والعار له- لا يريد الخير للمملكة المغربية وللمغاربة أجمعين من طنجة إلى الكويرة، حيث لم يراعي مسألة استقرار الوطن، ويبدو أن همّه هو إبادة المدرسة العمومية التي يدرّس فيها المغربية أبناءهم، إنه لا يريد الخير لمغربنا بقدر ما هو متعطش لدماء المعلم وتقويض السلم الاجتماعي، لقد خطا هذا الذي لن يسامحه الوطن خطوة انتحارية بارتكابه هذا الخطأ الجسيم؛ وهو إثارة الفتنة في البلاد، وفعله هذا شبيه بمن زرع فيروسا فتاكا في جسم سليم ومتماسك فتفكك هذا الأخير. إن التعاقد يا أنير هو تكريس للهشاشة وثقافة الخنوع، وهو إهانة للمدرسة العمومية المغربية، وإهانة المدرسة هي إهانة للوطن نفسه والسعي إلى تفكيك بنيته. -يقولون يا سيد جاد أنها إستراتيجية جديدة مبنية على التزامات الحكومة المغربية مع البنك الدولي. -إستراتيجية خرائية يا أنير، إستراتيجية من استراتيجيات النيوليبرالية التي تبتغي تفكيك القطاع العام وبيعه لصالح الرأسماليين الكبار! استشاط جاد غضبا وأردف: أنا سأذهب الآن، وداعا يا أنير، وأنصحك إذا أصبحت في الغد أستاذنا أن تتشبث بمبدأ النضال والاحتجاج إلى جانب زملائك الأساتذة، وذلك اقتداء بالمملكة المغربية الشريفة التي وقعت عقد الحماية وبعد ذلك

ناضلت وطالبت بالاستقلال، فكل تعاقد فيه إذعان وظلم ينبغي أن نلغيه بدل أن نخضع له إلى الأبد. إلى أن تنالوا مسعاكم وتُدمجوا في أسلاك الوظيفة العمومية التي هي حق مشروع، وإذا لاحظت يا ولدي أن مطلبكم الوحيد الذي هو الإدماج قد تحول إلى مطالب أخرى شعبية، أو لامست في بلاغات نقابتكم شعارات ذات حمولة اندفاعية وعاطفية أو مفعمة بالحماس السياسي القائم على الانفعال لا الفعل، أو حتى عدائية، أو إقحام بعض المفاهيم ذات إيحاءات مذهبية، أو ركوب بعض الفصائل أو الأحزاب على قضيتكم ومن تم تسييسها، أو شيئاً من اللاتوازن القائم بين القول والفعل، فإني أنصحك آنذاك يا أنير أن تنسحب بكل اعتزاز وتلتحق بعملك خير لك من الشطط السياسي، لأن المبادئ الأخلاقية تبقى في نهاية المطاف أسمى من كل نضال ملغوم يُبنى على المخاتلة السياسية، وإني أقول لك ذلك عن تجربة شخصية عشتها في ثمانينيات القرن الماضي زمن النضال الحقيقي. على أية حال، الكلام طويل ذو شجون، لكنني سأغادر الآن، أراك لاحقاً. -وداعاً جاد. -أنير. -نعم سيدي. -بما أنك مجد وتسعى إلى النجاح فإني سأمنحك كل اثنين عندما أكون هنا في القفلا إجازةً من الصباح إلى غاية المغيب، وهو الأمر الذي لم يكن يحظى به الضوّ من قبل. -شكراً جزيلاً لك جاد. -لا شكر على واجب أنير، وداعاً. *Good bay Anir* - قالت لي أنجلينا مبتسمة وغادراً.

فطفقتُ أتجول داخل القيلا الشاسعة وأضحك مثل المجنون، وبعد ذلك أخذتُ أرتب أرائك المسبح تزجيةً للوقت. وأثناء تجوالي داخل حديقة القيلا ألفتُ بعض قنينات الخمر من نوع هينيكيين ملقية على العشب فأدركتُ أنّ جاداً لم يكن عدواً للكأس.

أرعى الليل أجلته وحاترت النجوم في أفق السماء قبل أن تغطيها السحب الثقال، فأخذت هاتفي واتصلت بصديقي كمال وأخبرته عن العمل الجديد، فعبر لي عن فرحته الكبيرة وسروره العظيم. وبعد ذلك اتصلتُ بحبيبتي مولا وأخبرتها هي الأخرى بأنني وجدت عملاً، وقد وصفتُ لها طبيعة هذا الأخير، وأكدتُ لها أنّ مقترحها الذي اقترحتُه عليّ صائب إلى حدود الساعة ويسير في الطريق الصحيح، فانتابها فرحة عارمة حتى أخبرتني بأنها لا تستطيع أن تفصح عمّا يعتلج في قلبها من سرور، كما أنني وعدتها بأن أراها كل يوم اثنين. ثم تودّعنا.

لم أقدر في تلك اللحظة على الخروج إلى الدكان لاقتناء شيء أتعشى عليه وذلك من فرط العياء الذي كان يستشري في بدني، فتمددتُ في سريري مهدود القوى، وبعد ذلك بقليل استأنف المطر نقره على السقف القصديري واكتسحني النوم فجأة.

-18-

بعد خمسة عشر يوما:

مرت الآن خمسة عشر يوما على استعدادى اليومي لمباراة التعليم، متوسلا كل الوثائق والمراجع التي اشتراها لي جاد، ومستغلا هدوء القيلا ونعومة الأرائك المتواجدة جنب المسبح، وتلك الطاومات التي كنت أقرأ عليها، بالإضافة إلى التحفيز الذي كانت تدعمني به مولا، وصلوات أمي في أعالي الجبال. وقد تعافى أيضا إصبعي بشكل جيد، ناهيك على أنني اشتريت نظارات طبية وصرتُ أرى العالم بوضوح. لقد سخر لي الله كل الظروف الملائمة لخوض هذا الاختبار المصيري، وذات صباح بارد وندى من يوم الخميس؛ الموافق للخامس من كانون الأول/ديسمبر؛ وبعدهما قضيت كل الأشغال الصباحية الخاصة بالقيلا، جلست على أريكة المسبح وأخذتُ هاتفي بكل رغبة في النجاح، وولجتُ إلى الموقع الإلكتروني الخاص بوزارة التربية الوطنية، ثم شرعتُ أسجل كل معلوماتي الشخصية المتعلقة بالتسجيل القبلي لمباراة التعليم. وفي يوم الأربعاء الحادي عشر من نفس الشهر، أودعتُ ملف الترشيح الذي يتضمن وثائقي الشخصية ونسخةً من شهادة الإجازة، لدى المديرية الإقليمية للتربية والتكوين بمدينة مراكش مقابل وصل. وفي السبت؛ أي الرابع عشر كانون الأول/ديسمبر على الساعة العاشرة مساء، تم الإعلان عبر الموقع

الإلكترونى الخاص بوزارة التربية الوطنية عن لائحة المترشحين المدعوين لاجتياز المباراة الكتابية يوم الاثنين المقبل السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر؛ على الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وقد كان اسمى حاضراً بين لائحة المدعوين. وما بين الإعلان عن لائحة المترشحين والمباراة الكتابية؛ حددوا لنا موقع اجتياز الاختبار الكتابى، إذ كانت مدرسة ابن حزم الأندلسى بمدينة مراكش، هي مركز الامتحان بالنسبة إلى المتخصصين فى الفلسفة، الذين أودعوا ملفاتهم لدى مديرية المدينة الحمراء. وقبل يوم من إجراء الاختبار الكتابى أى يوم الأحد، أعفانى السيد جاد من أشغال الثيلا تمهيداً للاختبار فى الغد، حيث استيقظتُ عند الفجر وطفقتُ أراجع كل الوثائق والمطبوعات التى كانت بحوزتى، وأستدرك ما يمكن استدراكه، وفى نفس الوقت كان جاد يحفزنى عبر الهاتف ويوصينى بالأأ أرهق نفسى أكثر مما ينبغى، فإذا أنا أخفقتُ فى مباراة الغد، فإنه سيقوم بمساعدتى على الهجرة إلى أميركا، بيد إننى كنتُ مصرأً على النجاح فى مباراة التعليم وأن أعمل كمدرس لأبناء الشعب المغربى؛ فأدرسهم القيم الإنسانية وحب الوطن وخدمته، ومبادئ الحرية والفكر النقدي والمسؤولية، وروح التسامح وقبول الاختلاف. كما إننى لا أجيد اللغة الإنجليزية ولا أطيع ضوضاء المدائن الكبرى

وضجيج السيارات، لذا لم أكن أستحسن فكرة الهجرة إلى أميركا على الرغم من أنني متيم بحب العالم الجديد؛ من ألاسكا إلى باثاغونيا. موعدا الاختبار الكتابى:

الاثنين السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر، استيقظتُ في الخامسة فجراً، واستقليتُ التاكسي أرومُ المدينة العتيقة لمراكش، حيث سأجري الاختبار الكتابى في القاعة رقم سبعة من مدرسة ابن حزم الابتدائية. وصلتُ بعد عشر دقائق فقط، إذ كانت الشوارع مقفرة ومراكش لا تزال نائمة يدثرها الليل، وكانت ثمة ربح باردة نسيم قادمة من جبال الأطلس الكبير التي تغطيها الثلوج، والتي تحوط بالمدينة. أخذتُ أبحث هنا وهناك عن مقهى مفتوح أتناول فيه وجبة الفطور مع فنجان من القهوة، دون أن أعثر عليه للأسف، إذ كانت أبواب المقاهى ما تزال موصدة، وهكذا طفقتُ أتجول في شارع آسفي بينما تلتقط أنفاسى برد الندى.

سألتُ أحد حراس السيارات في نفس الشارع عن أين يمكننى العثور على مقهى مفتوح في هذا الوقت، فأخبرنى أن المقاهى في المحطة الطرُقية تبقى مفتوحة طوال الليل، وقد كانت المحطة قريبة منى تصدح بضوضاء الحافلات وتنبعث منها رائحة البول، كانت مليئة وقتئذ بالمتشردين الذين يتشاجرون فيما بينهم عن قطعة خبز، وبالذين تفرقت بهم السبل في مدينة الأجانب، وبالمتسولين النائمين

جنب الحيطان، علاوة على العاهرات ممن يبحثن عن حُضن دافئ. جلستُ في مقهى المحطة وتناولت فطوري، ثم أخرجت من محفظتي بعض المطبوعات المتعلقة بمباراة التعليم وأخذتُ أراجعها إلى أن طلعت الشمس، فاتجهتُ صوب مدرسة ابن حزم حيث تجمّع عدد غفير من الشباب والكهّل الذين ظلوا سنوات طويلة يبيعون البطالة في المقاهي الشعبية. كان الجميع هناك يخمن أسئلة الاختبار، إذ صار كل واحد منهم يدلي للآخرين بتوقعاته حول ما يمكن أن يُطرح من أسئلة في الامتحان، لقد كان حقا مشهدا غريبا ومثل كازينو.

القاعة رقم 7:

دق جرس الثامنة والنصف فدخلتُ إلى القاعة رقم 7، حيث جلستُ في الطاولة ما قبل الأخيرة التي تحمل رقمي: 73951. وزع علينا الأستاذان المراقبان أوراق التسويد وأوراق التحرير، ثم أسئلة الاختبار موزعة على تسعة عشر صفحة، وأعلمانا أن المدة الزمنية للاختبار هي ثلاث ساعات. اطلّعتُ على جميع الأسئلة وكبتتُ ضحكتي نظرا إلى سهولة تلك الأسئلة الفلسفية بالنسبة إليّ، والتي كانت أجوبتها راسخة في ذهني بسبب كثرة القراءة. فرغتُ من الأجوبة على أسئلة الاختبار في أقل من ساعتين ونصف ثم قدمتُ ورقة التحرير الخاصة بي إلى الأستاذ المراقب، حيث أمضيتُ وخرجتُ إلى أقرب مقهى لأدخّن وأنتظر الاختبار الخاص بعلوم التربية في الثانية بعد

الزوال، الذي اجتزته هو الآخر بكل يسر من الثانية إلى الخامسة عصرا. فاجأتني مولا بانتظارها لي أمام باب المدرسة، إذ عانقتني وربّنت على رأسي مثلما يربّت مدرب على رأس لاعب سجل هدفا قاتلا في الأنفاس الأخيرة من زمن المباراة. -كيف اجتزت الاختبار؟ -في ظروف جيدة يا مولا. -هل كانت الأسئلة سهلة؟ -كلها. -ممتاز، ستظفر بالنجاح لا مندوحة من ذلك. -أتمنى ذلك. -اطمئن يا أنير، إني أراك أستاذا.

تحدثنا قليلا في الحديقة المجاورة لمدرسة ابن حزم الأندلسي إلى أن راحت الشمس وحلّ الليل، فركبت مولا التاكسي إلى حيث تقطن، بينما اتجهت أنا إلى قفلا جاد متوسلا الباص، كان جاد لا يزال ينتظرني ليقدّم لي أجرة الأسبوع، كما جرت العادة كل اثنين. وفي يوم الأربعاء خامس وعشرين كانون الأول/ديسمبر، على الساعة الثامنة وسبع عشرة دقيقة مساء، تم الإعلان عن أسماء الناجحين في الاختبار الكتابي عبر صفحة فيسبوك الرسمية الخاصة بأكاديمية جهة مراكش-آسفي للتربية والتكوين. وقد كانت مولا هي أول من قرأ الإعلان فأخبرتني بذلك، وهنأتني تهنئة بهيجة، بل إنها أكدت لي أنها كانت متيقنة من نجاحي قبل صدور الإعلان، كما سرّ كثيرا بنجاحي كل من صديقي كمال وجاد، بيد إنني لم أتصل بأمي وأخبرها بهذا الاستحقاق، مفضلا انتظار النجاح في الاختبار الشفوي حتى

تستطيع أن تكتمل الفرحة وحينذاك يمكنني أن أخبرها بنجاحي بكل
فخر واعتزاز.

الاختبار الشفوي:

الاثنين ثلاثون كانون الأول/ديسمبر، أوقف في صباح بارد على الساعة
التاسعة أمام بوابة المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بمراكش،
وأنظر إلى ساعتي اليدوية باستمرار، مرتديا زيا رسميا بحذاء بني
براق، إنها بذلة مهداة من مولا بغية اجتياز الاختبار الشفوي في
أفضل الظروف. لقد كان عدد المترشحين الناجحين في الاختبار
الكتابي هو ثلاثة وثلاثون فقط من أصل خمسمائة وثمان وسبعين
ممن أجروا الاختبار الكتابي، وقد كنت أنا واحدا من هؤلاء الثلاثة
والثلاثين بشكل طابورا أمام بوابة المركز، حيث كان يقف عند
المدخل شخص ينادي بأعلى صوته بعد كل خمس وأربعين دقيقة،
على اسم من أسماء المدعوين حسب الترتيب الموجود في اللائحة بين
يديه، وقد كنت أحتل أنا المرتبة الثالثة، وفي تمام الساعة الحادية
عشرة وسبع عشرة دقيقة، نادى عليّ فدخلت متجها نحو القاعة
رقم خمسة كما أمرني. كان في القاعة لجنة مكونة من ثلاثة أساتيد
عبوسي الوجه، طلبوا مني الجلوس إلى طاولة كانت قبالتهم، فجلستُ
وعرّفتهم بنفسي، ثم شرعتُ أتحدث باختصار عن موضوع بحثي
الخاص بالإجازة بأمر منهم، وقد تحدثت بطلاقة ولغة فصيحة. بعد

ذلك أمرى بترجمة مفهومى "الوجود فى ذاته" و"الوجود لذاته" إلى اللسان الفرنسى، فتفوقت فى ترجمتهما. أمّا الأسئلة التى طرحوها علىّ فكانت كالتالى: "ما المقصود بمفهوم الدَّيْمُومَة عند بَرِّجْسُون؟" و"عرّف مفهوم الحَدَّثِيَّة عند مارتن هايدغر" و"ما الفرق بين فلسفة الدين والفلسفة الدينية"، و"ما الفرق بين النُّومين والفينومين؟" و"عرّف الإنِّيَّة والأيس، واللَّيس واللَّمِّيَّة، والعقل المستفاد، فى الفلسفة الإسلامىة"، و"ما معنى الأُسْفَهْبَنْدُ عند السهروردي المقتول؟" و"وما الهباء عند ابن عربى؟" و"تحدث باختصار عن صُحبة النَّبات عند ابن عربى"، و"ما معنى الكسب عند أبى الحسن الأشعري؟"، و"من هو صاحب مفهوم الأندُرُوجين؟" و"هل يمكن للوعى أن يكون وهما؟"، و"اشرح نظرية طرد الهمّ عند ابن حزم الأندلسى"، وأخيراً "ما الفرق بين الإيمان والاعتقاد؟" وقد أجبت على جميع الأسئلة باستثناء السؤال الأخير وخرجتُ.

الإعلان عن النتائج النهائية:

الأربعاء فاتح كانون الثانى/يناير، أو فاتح السنة الميلاذىة الجديدة؛ الساعة الخامسة عصراً، حيث كنت جالساً على أريكة جنب المسبح فى قىلا جاد وأعبث بهاتفى ريثما تغرب الشمس فأغطى جميع الأرائك بالمشمّع. وفى الخامسة وواحد وثلاثون دقيقة وقعت عىنى على الإعلان عن الأساتذة الناجحين بصفة نهائىة، كان قد نشرته صفحة

أكاديمية جهة مراكش-آسفى للتربية والتعليم على صفحتها الخاصة في فيسبوك قبل دقيقة فقط، كان قلبي يخفق بشدة ويديا ترتعشان بينما أنا أبحث عن اسمي وسط الواحد والعشرون أستاذا الذين نجحوا بصفة نهائية في جهة مراكش، فياله من حظ جميل! لقد كان اسمي موجودا بين تلك الأسماء، لم أستطع أن أتمالك نفسي فوضعت الهاتف وارتيمتُ في وسط المسبح دون أن أحسّ ببرودة الماء من شدة الفرح. ثم خرجتُ من الماء أجري وسط القيلا وأضرب على صدري صارخا بأعلى صوتي: لقد أصبحتُ أستاذا.. وأخيرا أصبحتُ أستاذا! ولما تذكّرتُ أمي اتجهتُ مباشرة إلى هاتفى المرمي فوق الأريكة كي أتصل بها وأخبرها بنجاحي المستحق حتى تستطيع أن تفرح بابنها الذي أصبح أستاذا، فأخذته بعد أن جففتُ يدي بمنديل ورقي كان موجودا على المنضدة، كان إعلان الأكاديمية في فيسبوك لا يزال موجودا بعد أن فتحتُ هاتفى، غير أن الجديد هو رسالة من حساب مجهول كانت قد باغتتني للتو عبر الميسانجر. نقرتُ على الرسالة وأخذتُ أقرأ:

عزيزى كوتشو

وأخيرا وجدتُ حسابك على فيسبوك، سنة سعيدة لك ولكافة أفراد عائلتك الكريمة. يؤسفني كثيرا أن أخبرك أنني حامل منك، وقد عرف ذلك بابا وماما وكل أصدقائي وأساتذتي بالمدرسة، بعد أن أصبح

بطنى بارزا قليلا وتراودنى أوجاع مؤلمة، كما إننى كنت أتقياً داخل الفصل الدراسي. وقد اقتادنى بابا إلى الطبيب الذى أكد لنا أننى حامل، لقد ضغطوا عليّ كثيراً يا كوتشو وأخذوا يعنفوننى؛ بابا، ماما، عمى، خالتى.. جميعهم ضربونى ضرباً دامياً. كما أن صديقاتى وأصدقائى فى المدرسة وأبناء حومتنا جميعهم صاروا يُعَيِّروننى بصوت واحد: "العاهرة.. لقد جلبت أيتها العاهرة العار على مدرستنا وحومتنا!" ويبصقون فى وجهى. لقد حكيتُ يا كوتشو لوالدى كل شيء، كما إن بابا ضغط عليّ كثيراً بأن أقول أمام الضابطة القضائية إنك اغتصبتنى بالعنف، وقد فعلتُ ذلك أول أمس فاتهموك أخيراً باغتصاب قاصر نتج عنه فض البكرة مع الحمل وهروبك إلى مكان مجهول.

جارتك لمياء.

قرأتُ رسالتها وكسرتُ هاتفى بعدما ضربته على عرض الحائط، يا له من عام جديد، إنه عام السجن! قلتُ فى نفسى.

الجزء الثانى: فى السّجن

السّجن ثكنة صارمة قليلا، مدرسة بدون تساهل، مشغل قاتم،
ولكنه، فى نهاية الأمر، لا يختلف عنها بشيء من الناحية النوعية.

ميشال فوكو، الحراسة والعقاب.

-19-

انفلق الإصباح، فأيقظتني أولى أضواء النهار الشاحبة التي تسربت في الهواء البارد، بعدما نمت ليلة كاملة في العراء، ممددا على عشب الثيلا، ومبلا بالماء البارد، وقد بات الجوع يقلقل كبدي، حزينا، وحيدا محيدا. حملتُ الشريحة وهي ما تبقى من الهاتف المهروس، والتي لا زلت أحفظ فيها أرقام من هم أقرب إليّ في وقت العواصف والأزمات، وخرجت تاركا ورائي مستقبلي الأخرس، أمشي الهوينى مثل جندي جريح ملطخ بالدم، يرتجف، ينهار، ويدحرج أيامه الأخيرة نحو الموت. توقفت عند بائع السجائر الذي يتهيا لبداية عمله ببيع أولى سجائره لمعكري المزاج في صباح بارد، كان يرتب بعناية صندوقا جنب الرصيف، مزينا بعلب السجائر الفارغة وقطع الكرتون. -سيجارة گولواز من فضلك. قلت له. -قل صباح الخير أولا. رد عليّ وأضاف: -يا له من صباح لعين. حاولتُ تعديل طريقي في الحوار هذه المرة فقلت: -معذرة، صباح الخير.. گولواز من فضلك. فسألني: -سيجارة واحدة؟ أجبت بنعم. -ليس عندي گولواز. -حسنا، إذاً أعطني سيجارتين. -قلت لك أيها المتشرد ليس عندي گولواز. -إذاً أعطني واينستون. -خذها هي ذي. -القدّاحة من فضلك. -هل معك قبل كل هذا نقودا أيها المخبول؟ لأن كثيرا مثلك يأخذون السيجارة ويلوذون بالفرار. -بالطبع لدي نقود. -خذ القدّاحة وانظر إلى نفسك، إنك في حال يرثى لها؛

مبلل، وملطخ بالوحد كالكلب. نظرتُ إلى هياتي فوجدت نفسي ملطخا بوحد حديقة الثيلا، ومبللا أيضا كما نعتني تماما، يتصاعد من ملابسي بخار لازوردي بسبب أشعة شمس الصباح الباكر، كنت حقا مثل متشرد، مثل كلب القمامة، لذلك لم أغضب من كلامه فقلتُ له بكل إذلال: -لو تفضلت، هل يمكن أن تعيرني هاتفك؟ أريد التحدث إلى أمي. فكان رده: -لا بأس بذلك شريطة ألا تتعدى دقيقة واحدة فليس لدي رصيد كاف. أخذت هاتفه واتصلت بأمي فأجابني أخي إكسيل. -إكسيل أتمنى أن تكون بخير، أريد التحدث إلى أمي نادِ عليها بسرعة سينفذ الرصيد الآن. قلتُ له. تأسف إكسيل قائلا أنه لا يمكنني أن أتحدث مع أمي، فهي ترقد الآن بالمستشفى الإقليمي بمدينة ورزازات، وقد رافقتها إلى هناك والدتها وهي جدتي عكو باروخ، والخطير في الأمر أن الطبيب صرح لجدتي بأن أمي تعاني من مرض بالقلب، ونصحها بعدم إبلاغها بالأخبار السيئة جدا لأنها قد تموت بسكتة قلبية في أي لحظة. والسبب في تواجد أمي الآن بالمستشفى هو أنه قد أغمي عليها بسببي كما قال إكسيل بعد أن جاءهم عون السلطة بدعوة من الدرك الملكي، ووضح لأمي بأنني اغتصبتُ فتاة قاصر، فلم تستطع المسكينة تقبل النبأ المشؤوم بدعوى أنها أحسنت تربيته. -وماذا عن حالتها الصحية الآن يا إكسيل؟ هل يجب أن آتي؟ -لا تشغل بالك أخي، إن حالتها الآن مستقرة ولا تدعو إلى

القلق. -حسنا، إكسيليتو أخبرني متى ستغادر أمي المستشفى؟ -
ستخرج اليوم في المساء كما أن خالي إيدير سيتكفل لها بمصاريف
الأدوية. -ممتاز صغيري. -أخي، أريد أن أسألك سؤالاً. -نعم إكسيل
تفضل. -ماذا يعني الاغتصاب؟ -إكسيليتو، اسمعني جيدا، عندما
أتي سأش... -أعطني الهاتف وأغرب عن وجهي أيها المحتال فقد
أهدرت رصيدي. خطف بائع السجائر العجوز الهاتف من أذني
غاضبا دون أن ينهي إكسيل كلامه.

واصلت المشي على الرصيف خارجا من حي تارغة الأنيق، و من حين
لآخر كنت أتوقف لحظة مطلقا العنان لصخب أفكارى، أتحدث إلى
نفسى، وأغوص عميقا في خبايا ذاكرتى. لقد تذكرت عبارة الماركيز
جاد حيث وعدني بأنه سيساعدني في الهجرة إلى أميركا إذا أنا أخفقت
في أن أصبح أستاذا. بدت لي هذه الفكرة أنها الخيار الوحيد المتبقي
لدى، فأن أهاجر إلى أميركا، خير لي من أن أصير أستاذا متعاقدا
يدرّس في قرية نائية لا تتوفر على صنبور ماء، بيد إن المشكل يكمن
في كون جاد وعدني بمساعدته لي على الهجرة إلى أميركا إذا أنا فشلت
في مباراة التعليم، بينما أنا الآن من الناجحين. زد على ذلك كيف
يمكنه أن يخاطر بنفسه ويساعد مجرما على الهجرة. لقد شاءت
قوانين الطبيعة أن أسجن مع بداية هذا العام الجديد، وينبغي عليّ
أن أخضع لمشيئة القدر. وبما أنني كنت أتوقف كل لحظة أثناء المشي

على الرصيف، ليجود عليّ دماغى بفكرة جهنمية تحول دون النج بي في ظلمات السجن، حتى تذكرت أنني لم أحمل معى النقود التي كنت أحصل عليها كل اثنين من عند جاد، والتي كنت أضعها تحت وسادتي. فعدت أدراجي نحو الثيلا التي نسيت أن أغلق بوابتها، فحملت النقود وغيرت ملابسى المبللة بماء المسبح، إذ ارتديت البذلة الرسمية السوداء مع ربطة العنق والحذاء البراق، وهي البذلة التي اجتزت بها الاختبار الشفوي لمباراة التعليم، وحملت حقيبة الظهر، ثم خرجتُ بعدما أغلقتُ بوابة الثيلا واحتفظتُ بالمفتاح في جيبى. مررت ببائع السجائر نفسه وطلبت سيجارة واينسرتون. -هل أنت هو..؟ فغر الرجل العجوز فاهه وهو يتلعثم. نفثتُ دخان السيجارة في وجهه بكل تكبر وعجرفة، ثم صعدت التاكسي من أمام صندوقه. كان أول شيء قمت به ذلك الصباح من يوم الخميس، هو شراء هاتف نقال من أجل معاودة الاتصال بأمي والاطمئنان على صحتها. لكن مع كامل الأسف لم يجب أحد هذه المرة على مكالمتي، فاتصلت بحبيبتي مولا التي قالت إنها باتت تتصل بي من دون جدوى، لأنها كانت تجد هاتفي غير مشغل. لكنني كنت بارعا في الكذب، كما أن لي خيالا واسعا يكفي لتأليف عشرات الروايات، حيث أجبتها أنني ألقيت بنفسى -من كثرة ما فرحت- في المسبح، غير مكترث لأمر الهاتف الذي كان في جيبى. وسرعان ما نسيتُ موضوع الاتصال

وهنأتى بمناسبة نجاحى، وقالت إنها ستنتظرني في مقهى إيسبيرانسا على الساعة الواحدة بعد الزوال من أجل تهنئتي.

-20-

ذهبت في الساعة الواحدة بعد الزوال إلى مقهى إيسبيرانسا في شارع علال الفاسي، كانت مولا تجلس في الطابق العلوي من المقهى، على طاولة بمحاذاة النافذة التي كانت تنظر عبرها إلى الشارع، واضعة كفها على ذقنها. ابتسمت في وجهي ما إن رأته، وقامت من كرسيها تعانقني معربة عن فرحها بمناسبة نجاحى الفاشل. -ألف مبارك حبيبي. قالت لي وأضافت: لِمَ لَمْ ترد على التهئة التي كتبته لك في صفحتك على فيسبوك؟. - أعتذر حبيبي لم ألج حساب فيسبوك، على العموم شكرا جزيلا لك، فأنا نجحتُ بفضل تشجيعاتك طبعاً. - لا تقل هذا فأنت نجحتَ بفضل عزيمةك وإرادتك الكاسرة التي لا تلين رغم ظروفك القاسية، أنت مثل الفلينة التي لا تغرق يا أنير. - وبفضل شيء من الحظ أيضا. قلتُ مبتسما. - الأمر يا حبيبي يتعلق باستحقاق وكفاءة وليس حظا. - هل أنا حقا ذا كفاءة وأستحق أن أكون أستاذا؟ سألتها. فأجابت ضاغطة على يدي: - أنير، ما هذا الكلام؟ طبعاً تستحق ذلك بل أنت تستأهل أن تكون أستاذا في الجامعة، ثق في قدراتك عزيزي. شكرتُ لها لطفها وقبلت يدها. - حبيبي لدي طلب. قالت. - طلب؟ أعربتُ عن استغرابي ثم قلت: - نعم

عزيزتى اطلبى ما تشائين. فطلبت منى أن أغمض عيني حتى تأمرنى بفتحهما. -اللجنة أئى لعبة هذه؟ ضحكت وأردفت قائلاً: -أنظرى لقد أغلقتهما. مهلا لا تفتحهما الآن. لن أفتحهما. قلت لها. -والآن افتحهما. وحينما فتحت عيني، وجدت على الطاولة علبة من الكرتون كانت بمثابة هدية. فتحت العلبة فكان بداخلها حاسوب Asus ROG Mothership GZ700. -أوه، يا لها من هدية عظيمة! إنه حاسوب خيالى حقا شكرا بجزاف غالىتى. قمت وعانقتها. -لا داعى لأن تشكرنى حبيبى، أنت تستحق العالم وأشياءه الجميلة، هذه بالنسبة إالى مجرد هدية بسيطة قد تساعدك فى وظيفتك الجديدة. أما أنت فلا تقدر بثمان يا أنير. ضغطت على يدها وقلت: -أنتِ بشحمك ولحمك أعظم هدية فى حياتى، لن تستطيعى تقدير الفرح الذى ينتابنى الآن بفضل هذه الهدية الكبيرة، إنه شعور لا يوصف، يزيدنى شجاعة وقوة. فكان ردها: -إنه نفس الشعور الذى يخامرنى نتيجة نجاحك المستحق، لقد اتضحت الآن معالم مستقبلنا بشكل جلى، وبات زواجنا أمرا وشيكاً؛ فأنت الآن ستقضى ستة أشهر فى مركز التكوين ريثما أحصل أنا على شهادة الإجازة، وبعد ذلك سنعقد قراننا مباشرة فى فصل الصيف قبل تعيينك، وأتمنى بكل صدق ألا يبعدوك عن مدينة مراكش. على أية حال فالجميل فى كل هذا أنك على الأقل

ستخضع للتكوين والتدريب بمدينة مراكش، وهو الشيء الذي سيتيح لنا فرصة رؤية بعضنا البعض.

جلسنا هنالك في المقهى ما يزيد عن ساعة، حيث لم تكن مولا تخوض في حديث آخر غير الزواج والتخطيط له، في حين كنت أنا أصغي لقرقرة بطني بسبب الجوع. لم أكن منتبها بالشكل الجيد لكلام مولا، ولم أكن أكثر ثلمخططاتها التي ستبوء حتما بالفشل، بقدر ما كنت غارقا في التفكير في مصيبتى، والبحث عن حلول تحول دون دخولى السجن، فبطبيعة الحال لم تكن مولا عالمة بما حدث ولست أظنها ستغفر خطيئتي لو أنها عرفت ما جرى.

أنهينا حديثنا الذي نالت منه مولا حصة الأسد، ثم نظرت إلى ساعتى اليدوية وقلت لها: -حبيبتي ينبغي علي أن أذهب الآن. فسألتنى: -إلى أين؟ أجبت كاذبا: -سأسافر إلى قريتنا لرؤية أمى وإخوتى، سأحدث لأمى مفاجأة وسنفرح جميعنا بنجاحى، لقد أخبرتُ جاد بذلك. -ومتى ستدفع وثائق وظيفتك الجديدة؟ -سأعود قريبا لن أتأخر، من فضلك احتفظي بالحاسوب عندك ريثما أعود، لا أريد أن يراه أشقائى، لأنهم سيقومون بتعطيله طبعاً، تعلمين ذلك. -حسننا سأحتفظ به إلى أن ترجع، بلغ سلامى الحار لحماتى. قالت لي ذلك وأضافت: -رافقتك السلامة كرينيو. فسألتها: -هل ستمكثين فى المقهى؟ فأجابت تقول: -ليس كثيرا، سأراجع فقط محاضرة الأمس. -

حسنا بالتوفيق. قلت لها وانصرفتُ. -إي لحظة. نادى عليّ فتوقفت في مكاني دون التفات، فقامت من كرسيها وجاءت إليّ تقول بنبرة الطفلة البريئة: -أنير لِمَ أنتَ حزين؟ -أنا؟ لا، لستُ حزينا. -أنير أنظر في عيني وأعطني كلمة الشرف بأنك لا تكذب عليّ، هل حدث لك شيء لم أعلمه؟ هل أنتَ بخير؟ -طبعاً حبيبتى أنا بخير. فطرحتُ سؤالاً جديداً: -لِمَ لستَ سعيداً بنجاحك؟ -بالطبع أنا سعيد بنجاحي، فقط مصدوم قليلاً لأنني أصبحتُ أستاذاً ولم أستطع تصديق ذلك. -قلت لكَ ثق بنفسك حبيبي. أمسكتُ بكلتا يديّ وأضافتُ: -على العموم رافقتك السلامة، وكن حذراً من أن تخونني، لأنني لن أعيش لحظة واحدة بعد خيانتك لي ولن أتردد في شنق نفسي عند أقرب شجرة أجدها. افتعلتُ ابتسامة ساخرة. -طبعاً لن أفعل يا دبدوبتي اطمئني. قبلتني في خدي الأيمن وانصرفتُ. وفي طريقي إلى المحطة الطُّرُقية، تلقيتُ مكالمَةً كَلِّ من كمال والماركيز جاد كما أفضل أن أسميه، هنأني كل واحد منهما بحرارة بمناسبة نجاحي. بل إن جاد اقترح عليّ أن يأتي إلى مراکش فنذهب كلانا إلى الديسكو ونحتفل، لكنني أجبتُه كاذباً بأنني سافرت على وجه السرعة إلى قرينتنا بسبب مرض أمي، وإنني جمعت أغراضى وغادرت القيلا. -أتمنى لها شفاء عاجلاً. قال لي ثم أضاف: قُل لي يا أنير، هل لا زلتَ تحتفظ بمفتاح القيلا؟ -نعم إنه بحوزتي، وسأحتفظ به إلى أن ألتقي بك في مراکش.

-وهل ستعود إلى مراكش؟ -بالطبع، حيث سأتابع التكوين البيداغوجي بمدينة مراكش. -آه، جميل جداً، ولكن ماذا عن السكن؟ هل ستكتري؟ -في الحقيقة لا أعرف، لا زلت أفكر في الأمر. -لدي اقتراح يا أنير؛ ما رأيك في أن تسكن في القيلا وتواصل فيها عملك مادمت ستبقى في مراكش؟ -اقتراح مناسب يا جاد. قلتُ متهدداً فردّ يقول: إذن احتفظ بالمفتاح إلى أن تعود إلى مراكش واذهب إلى القيلا، اعتبرها بيتك يا أنير وامكث فيها ما شئت، حتى وإن تزوجت فليس عندي مشكلة أن تقطن هناك بمعية زوجتك، وقد سبق لي أن اقترحتُ نفس الأمر على الضوّ، إذ ما يهمني هو أن تعتنى بحديقة القيلا وتحفظها من الضياع. -شكراً جزيلاً سيّيور جاد. -عفواً أنير، وداعاً. أقحمت الهاتف في جيبى ثم ركبت في أول حافلة كانت متجهة إلى كازابلانكا، المدينة التي ظننتُ أنني لن أعود إليها مجدداً.

-21-

وصلت إلى كازابلانكا في السادسة مساءً، حيث شرع الليل الحزين يغتال فرح النجوم، والبرق يومض في جفون السحاب من بعيد، ما هي إلا لحظات وهطل المطر، فاستقليت التاكسي إلى البار وطلبت ست بيرات من نوع إسبيسيال بعدما جلست بجانب النافذة المطلة على الشارع، كنت أشرب وأنظر من النافذة، بينما المطر الخفيف يواصل هطوله، لم أكن أنظر إلى المارة الحاملين مظلاتهم، ولا إلى

السيارات التي تمضي، ولكن كنت ساهِ أفكر في مشكلتي. أنهيتُ الزجاجة الأولى ثم طلبت من البارمان أن يزودني بالرقم السري للواي فاي، فولجت إلى حساب فيسبوك لأرى إن كانت لمياء قد أرسلت لي رسالة، وهو الشيء الذي وجدته؛ حيث أرسلتُ لي لمياء رسالة مطولة قبل ساعتين. نقرت على الرسالة وقرأتُ الآتي:

مساء الخير كوتشو، أتمنى أن تكون بسلام.. أشكرك كثيرا لأنك لم تقم بحظري من فيسبوك. أود فقط أن أخبرك بأنني حكيت لبابا عن علاقتنا بالتفصيل قبل أن يعتذر مني، ويتأسف عن ضربه لي. أخبرته أننا نحب بعضنا البعض، فأكد لي أنه سيتنازل عن الدعوى إذا ما أنت تزوجت مني. لذا فإنني أمنحك أربعاً وعشرين ساعة لتأتي ونعقد القران، فمراكش ليس تبعد كثيرا عن كازابلانكا أستاذي العزيز. ستسألني من أين علمت أنك صرت أستاذا؟ وسأخبرك أنني علمت ذلك من خلال عبارات التهاني التي تلقيتها من عند أصدقائك وصدقاتك في صفحتك على فيسبوك، أولها تلك التهنة الكريهة التي كتبتها لك في صفحتك على فيسبوك تلك الفتاة التي تظهر من خلال صورتها الشخصية ترتدي ملحنة صفراء كالخراء، ونظارات شمسية واسعة من الموضة التي أكل عليها الدهر وشرب، والتي تضع اسما مزيفا على حسابها؛ أظن أنه أميرة الصحراء. واعلم يا كوتشو أنك إذا قمت بحذف ذلك المنشور السخيف، فإنني لا أزال أحفظه عن ظهر

قلب وهو كالتالى: "ألف ألف مبارك حبيبي الغالى.. تستحق الأفضل دائما". إني أعلم أن تلك المحتمالة تتلاعب بمشاعرك، وتوهمك بأنها تحبك، وقد تواعدتما وذهبت إلى مراكش لرؤيتها، أعلم ذلك. لقد ولجتُ إلى صفحتها، وعثرت على صورة حديثة العهد، حيث تجلسان في جوروماني على تل وسط مدينة مراكش. عزيزي كوتشو أعلم جيدا أنك لا تحب تلك البدينة قبيحة الهيئة، ربما لأنك لا تستطيع جرح مشاعر الآخرين، إنها تستغلك يا كوتشو، أعرف جيدا مثل هذا النوع من النساء الذي يتلاعب بقلوب الرجال. كوتشو، ليس لدي متسع من الوقت كي أقنعك بأن تلك القحبة تخدعك، لكن ما أستطيع قوله هو أنه لديك خيارين: إما أن تأتي في الغد وتنتزوج، وإما سأفضحك. هل تعتقد يا كوتشو أني فتاة غبية يمكنك التلاعب بها بكل هذه السهولة؟ إنك حقا لمخطئ إذا كنت تظن ذلك. بالعكس قد تكون أنت الغبي، وأنا الذكية. لا تحسبن نفسك قد لعبت دور المجرم، بينما كنت أنا الضحية، لأن العكس قد يكون هو الصحيح، بل إنه صحيح بالفعل، وأنا هنا لأثبت لك أنه صحيح. لقد تأكدت جيدا أنك رجل قليل الانتباه، إلى جانب أنك ضعيف النظر. سكنت غرفتنا مدة ليست بالقصيرة، ومع ذلك أنا متيقنة أنه إذا سألتك عن لون طلاء جدرانها فإنك لن تذكره. فما بالك إذا أنا سألتك عن الكوة في أعلى جدار الغرفة والتي لا يتعدى عرضها الشبر الواحد والتي

كانت مغلقة بقطعة قماش بنفس لون الغرفة، ها؟ لم ترها أليس كذلك؟ بلى، أنا واثقة من أنك لم ترها، لقد كانت على اليمين في الأعلى، إلى درجة أنه يمكنك أن تجلس على الدرج وتنزع قطعة القماش تلك بيدك اليسرى لترى كوتشو وهو يعبث بقضيبه ويستمني، وبعد ذلك ترجع قطعة القماش تلك إلى موضعها دون أن يستشعر كوتشو الأبله ذلك هههه. إن تلك الكوة يا كوتشو كنت قد وضعتُ فيها هاتف ماما في تلك الليلة، بعدما أخذته من أخي الذي يظل يلعب من خلاله في لعبة فري فاير، كان قد غط في نومه وقتذاك. على أية حال، أخذتُ الهاتف ووضعت فيه بطاقة الذاكرة من ست عشرة جيغا، ثم شغلت كاميرا فيديو ووضعت الهاتف في تلك الكوة. كانت نسبة الشحن في الهاتف على ما أذكر ستون بالمائة، على العموم وضعت في الكوة قبل أن أنزل إليك بالطاجين الشهي. لم تكن هذه خطة جهنمية مني، وإنما كان غرضي في تلك اللحظة أن أوثق أولى لحظات علاقتنا الحميمة، فالبدائيات مهمة جدا ويجب أن تظل محفوظة في الذاكرة وتقام لها ذكرى سنوية. لذا كنت سأطلعك على شريط الفيديو في اليوم الموالي، لكن خشيت أن تغضب مني وتقوم بحذفه، لم تكن نيتي سيئة أقسم لك. على أية حال عزيزي كوتشو، لن أطيل عليك أكثر، فشريط الفيديو محفوظ بحوزتي، لهذا أتمنى أن تأتي في الغد لعقد قراننا وتقبّل ابنك الذي في بطني،

وإذا رفضت فإنك تعرف جيدا ما بمقدوري فعله رغم أن الجواب واضح، وهو أنني سأنشر الفيديو في الإنترنت وأشوه سمعتك، ستغدو ممثل أفلام بورنو مشهور للغاية. كما أنني سأرسله لتلك العاهرة الصحراوية عبر حسابها في فيسبوك لتعرف من أنت، وسأحاول العثور أيضا على حسابات أفراد عائلتك على فيسبوك لأرسل إليهم الفيديو، إن الكرة الآن في ملعبك يا كوتشو فإما أن تصنعني كواحدة من أجمل الأهداف في التاريخ، أو تقذف بي بعيدا صوب الجماهير الغاضبة، لكن لا تنسى أنها فرصتك الأخيرة، إنها آخر دقيقة من زمن المباراة. وداعا كوتشو سأرسل لك الفيديو بعد أن تقرأ هذه الرسالة.. أربع وعشرون ساعة تذكّر ذلك. جارتك المراهقة. أحبك.

توقف قصير.. جاري تحميل الفيديو.

أرسلت لي الفيديو، وبعد قليل نقرت عليه لأشاهده، كان بالفعل ما كتبتة صحيحا. لم أتحمل مشاهدة الفيديو كاملا، لكن على الأقل تحققت من صدق قولها؛ رأيت نفسي عاريا أمارس الجنس مع لمياء، ويبدو من خلال الفيديو أنني أقوم بتعنيفها؛ لأنه لا يوجد صوت في الفيديو ليثبت العكس، وهذه مشكلة أخرى. لقد خربقت لمياء حياتي بواسطة هذا الفيديو اللعين الذي لا يني يذكرني بأني رجل غبي وبليد، لقد وضعت ثقتي العمياء في لمياء، وبسبب هذه الثقة

العشوائية أصبحت مندورا للحزن والأسى، فحتى إذا ما دخلتُ السجن فإنني عند الخروج منه لن أعلق مرة أخرى أملا على شيء، وهذا شرط لازب لكي أرفل في سعادة وهناء فيما تبقى من عمري. لا أنكر أنني قبل التعرف على لمياء ولا حتى مولا كنت أرفل في حياة يطبعها الفرح والسعادة، وما إن تعرفت عليهما حتى صرت أكتوي بنار البؤس، وهذا دليل على أن الارتباط بالأشخاص والالتزام تجاههم هو أحد مسببات الألم.

توقفت عن مشاهدة الفيديو وأرسلت لها رسالة كتبها أصابعي المرتجفة، كتبت لها فيها أنني غير قادر على المجيء غدا، وطلبت منها أن تستمبحني عذرا وتؤجل الموعد إلى يوم الأحد. لكنها أجابتني في الحين رافضة التأجيل، بدعوى أنها ستخرج صباح يوم الأحد في رحلة مدرسية إلى غابة المعمورة على الساعة العاشرة، بمعية زملائها في الفصل وتحت إشراف أستاذ مادة علوم الحياة والأرض، فأرسلت لها رقمي وطلبت منها أن تتصل بي صباح الغد.

وضعت الهاتف جانبا وذهبت إلى المرحاض قصد التبول، وأنا عائد إلى طاولتي لفت انتباهي رجل ظننت أنه صديقي رشيد. كان جالسا في الكونتوار؛ مرتديا معظفا أسود، مطأطئا رأسه ينظر إلى هاتفه الذي يحمله بيده اليمنى وابتسم، بينما يمسك في يده اليسرى زجاجة هينيكين. دنوت منه، فلاحظت أنه يتفرج على شريط فيديو إباحي

يمارس فيه رجل الجنس مع رجل آخر. ناديته باسمه فأدخل على وجه السرعة وبارتباك شديد هاتفه في جيب معطفه، ثم التفت إلى مستغربا. -أوه، يالها من صدفة غريبة! قام من مقعده يقول ويعانقني. جلسنا معا في الكونتوار وسألني عن أحوالي؛ هل أحرزت شهادة الماجستير وهل حصلت على وظيفة. كان جوابي عبارة عن توليفة من الصدق والكذب، إذ أجبته بأنني لم أنه دراستي بالماجستير بسبب ظروف القاهرة التي لا تسمح لي بالعيش في مدينة كبيرة مثل كازابلانكا، وإنني عدت اليوم إلى نفس المدينة بغية اجتياز مباراة للتوظيف في مكتبة آل سعود يوم غد الجمعة، مختلعا بذلك كذبة أخرى. تأسف لحالي ووبخني على مغادرتي لسلك الماجستير، معتبرا أنني قد ارتكبت خطأ قاتلا، لكنه في نفس الوقت أعرب عن سروره لأنني سأجتاز مباراة التوظيف في مكتبة كبيرة ذائعة الصيت، قائلا إنني لازلت في ريعان شبابي ولازال أمامي وقت كبير يجب علي أن أستغله. سألتني إذا ما زلت أقطن في كازابلانكا، فأجبته أنني جئت للتو من قريتنا وقصدت البار لأمضي فيه بعض الوقت، وبعد ذلك سأذهب إلى الفندق. -لن أسمح لك بتضييع نقودك، سترافقني الليلة إلى بيتنا. هكذا قال لي فأجبته بأنني لا أستطيع الذهاب معه خشية أن أشكل إزعاجا لعائلته، لكنه أصر إصرارا مطلقا بالأنا أنام الليلة في الفندق،

فاستسلمت لكرمه فى الأخير، وجلسنا نخوض فى كل حديث؛ فى السياسة، الدين، وأحوال المثلىين فى المغرب ومعاناتهم فى صمت. دقت الثانية بعد منتصف الليل فأدى رشيد ثمن الزجاجات جميعا، ومنح البارمان إكرامية وفيرة، ثم عدل بنطاله ممرا يده اليسرى على بطنه المنتفخ بالخمير، وخرجنا. كان المطر قد توقف عن الهطول وباتت السماء صافية تنزف نجوما، كانت سيارته من نوع سياتُ ألهامبرا موديل 1999 مركونة قرب باب البار. -لقد كانت لديك سيارة من نوع ضاسيا أليس كذلك رشيد؟ فكان رده أنه باعها رغم جدتها، لأنه كان فى حاجة ماسة إلى المال بسبب شرائه شقة فى طماريس على ساحل المحيط الأطلسي يقضى وأسرته فيها عطلة نهاية الأسبوع. بدا رشيد متحسرا تجاه سيارته التى باعها، تجلى ذلك من خلال تنهيدته العميقة وإعرابه عن ندمه الشديد، لقد ذكّرتّه بمحبوبته التى فقدتها بسبب ظروف مادية. حاولت أن أؤكد له أن هذه السيارة هى الأخرى جميلة رغم أنها قديمة، فالأساس فى كل هذا أنها ستوصله إلى مراده. وهنا يكمن مربد الفرس، فهذه السيارة لا توصل رشيد إلى مبتغاه كما صرّح هو نفسه.

صعدنا السيارة، غير إن محرك هذه الأخيرة أبى أن يشتغل، حاول رشيد مرارا وتكرارا تشغيله دون جدوى. -أظن إن المشكل يكمن فى البطارية. ارتجلتُ. -ربما السبب هو برودة الطقس، فأنا لست ضليعا

بالميكانيك. -هل أنزل وأدفع السيارة؟ سألته. -نعم لعل وعسى هذه القحبة تتحرك. صحتُ بأحد المارة كي يساعدني في دفع السيارة، لكنه أخبرني بأنه مستعجل، وأخذت أدفع بمفردي السيارة الثقيلة بما فيها رشيد حتى انفلتت ضرطة مزعجة من مؤخرتي، واشتغلت السيارة أخيرا نافثة سحبا من الدخان الأسود. توجهنا إلى صناك في درب غلّف، وتناولنا السندوتش باللحم المفروم مرفوقا بالمشروب الغازي على نفقة رشيد بحسابه المضيف، ثم ركبنا السيارة من جديد نقصد المنزل، وما إن قطعنا مسافة قصيرة حتى توقفت بنا السيارة وسط الطريق. -إيخا دي بوتا. قال رشيد متأففا وهو يضرب براحتي يده عجلة القيادة ويحاول يائسا تشغيل السيارة. صارت السيارة جانحة وسط الطريق الضيق معيقة حركة المرور، فأخذ أحدهم يضرب صندوق السيارة بانفعال شديد ويسب رشيد. - أخرجوا هذه الخردة من هنا أيها القحاب بسرعة، فخرج رشيد من سيارته وسدد لكمة قوية في وجه الرجل فاحتد الضرب بينهما، غير إن رشيد كَرَبَعَهُ ووجه إليه لكمات إضافية، ثم صعد غاضبا إلى سيارته وأشعل سيجارة.

استمرت بعض السيارات من خلفنا بإصدار المنبه الصوتي المزعج، وأيادي السائقين الغاضبين تلوح من نوافذ السيارات وتواكب سبهم وقذفهم لنا، بينما لا يزال الرجل الذي صرعه رشيد ممددا على الأرض.

-أظن أن ثمة عطلا ميكانيكيا أو ربما قد نفذ منها الوقود. قلت له. -
لا، لم ينفذ بعدُ، دائما ما تفعل بي هكذا، لقد خدعني ابن القحبة
الذي باعنيها. انزل من فضلك وادفع مرة أخرى كي يسكت هؤلاء
الأوغاد من خلفنا. نزلت من السيارة ودفعتها بينما رشيد يلتفت ذات
الشمال وذات اليمين، وقد ساعدني في ذلك منحدر الطريق مما
جعل محرك السيارة يقلع أخيرا، ثم صعدت إلى جانب رشيد. في تلك
اللحظة أرسلت لي مولا رسالة صوتية وسألت كعادتها عن أحوالي
وأحوال عائلتي، ثم وصلنا إلى بيت رشيد في الحي المحمدي. -يا إلهي،
الأضواء منطفئة في المنزل أيجوز أن ناموا؟ تساءل رشيد. -أظننا
تأخرنا. افترضتُ. لكن رشيد أكد وهو يحاول فتح الباب أنه عادة ما
يتأخر ويوصيهم بالألا ينتظروه لوجبة العشاء، وهذا بالضبط سبب
تناولنا العشاء قبل هنيئة في المطعم. لم يستطع رشيد فتح الباب
بعدُ، بل إنه يتثاقل من الثمالة في فتحه، فقد بدأ الكحول يعطي
مفعوله الآن في دماغه. سألته إذا ما كان نسي المفتاح في السيارة أو
البار، لكنه أكد عدم نسيانه، بل المشكلة تكمن فقط في أن لديه
مفاتيح كثيرة، ومع ذلك فإنه يعرف مفتاح المنزل من لونه الأصفر،
بالإضافة إلى اعوجاجه قليلا. ساعدته في محاولة إيجاد مفتاح المنزل
بتسليطي ضوء الهاتف عليه، فوجدته، ففتحت الباب بنفسى
فولجنا المنزل، ثم أمرني رشيد بالارتياح في صالة الجلوس التي تطل

نوافذها على الزقاق، بينما ذهب هو لإحضار الشراب. كان عند مدخل صالة الجلوس صورة لشرطي شاب ووسيم يرتدي بذلة بوليسية، ويقف باستقامة واضعاً إحدى يديه على المسدس. -مَنْ هذا الشرطي الذي في الصورة هناك؟ سألته عندما كان يفترش الشراب. -هل أعجبك؟ إنه رامزي، شقيقي الأصغر الذي يبلغ من العمر تسع عشرة سنة؟ أجبتُه بأنني أفضل النساء، فصرح أنه على العكس مني تماماً؛ إنه مولع بمضاجعة الرجال.

كان الشرطي شقيق رشيد نائماً في الغرفة المجاورة وحذاءه البوليسي عند مدخل غرفته، لقد أنهى دوريته قبل ساعة، ويشغل المسكين طيلة أيام الأسبوع كما صرح رشيد، فيما تنام أمه وشقيقته في غرفة النوم. أما نحن، فقد أطفأنا نور الصالة متهيين لنوم عميق بعد يوم شاق. كنا متفرقين في الصالة، إذ حاولتُ أن أنام بعيداً عن رشيد، وقد يُفسَّر ذلك بأنني شخص مريض؛ يعاني من الخجل المرضي، شخص منغلق، معقد، ضحية تنشئة اجتماعية ودينية صارمة تجاه الجنس على وجه الخصوص، تنشئة تلقي بضرورتها الثقيلة على كاهل شخصيتي، والتي لا أستطيع تحملها بعد اليوم. إنني لا أطيقها، فتلك ليست شخصيتي الحقيقية، لا أريد أن أعيش بالطريقة التي تحب أمي أو أبي أو مجتمعي، أو بالطريقة التي يملها معتقد من المعتقدات، بقدر ما أريد أن أعيش لذاتي وأرضي ذاتي، أعيش

بالطريقة الطبيعية التي ولدت عليها بعيدا أن أيّ خلفية ثقافية صارمة تلغى شخصيتى الحقيقية. إن هذا الكلام لا يعنى أنني شخص مثليّ، لكن التنشئة التي ترعرعت في كنفها ترى أن اقتراب رجل من آخر مثليّ هو فعل محرم، إذ إن المثليين ملعونون، مهانون ومذلون في مجتمعي، وأنا تأكدت بما فيه الكفاية أن رشيد رجل مثليّ يحب الرجال، كما إن هذه التنشئة التي ينبغي أن نتحرر منها جميعا تقصي الجسد، وتحرم تعريته، على الرغم من إن هذا الأخير هو ما يجعلنا مرتبطين بأمننا الأرض التي نمشي فوقها بأقدامنا، نفرح ونرقص فيها بأجسادنا الجميلة ذات الألوان والأشكال المتباينة.

حوّل رشيد فراشه إلى جانبي، وأخذ يتحدث لي عن مثليته، وعن صنوف من المثلية بدت لي غريبة كوني لم أسمع بها من قبل، مثل العابرون جنسيا الذين يعانون من حالة ديسفوريا الهوية الجنسية، والمثلي ثنائي الميول، والمثلي أحادي الميول، ثم المثلي الفاعل، والمثلي المنفعل. كما أكد لي أن المثلية قديمة قدم البشر، بيد إنها ظلت مقموعة لآلاف السنين بسبب تحريمها من قبل الديانات السماوية على وجه الخصوص، حيث ظلت تمارس نشاطها في الخفاء، ما عدا في بعض المجتمعات الوثنية كالليونان والرومان فإنها لم تكن ممقوتة -وهنا تذكرت علاقة الفيلسوف اليوناني سقراط بالجندي الوسيم ألسيبيايس- أما الآن فقد آن الأوان للمثلية بأن تصارع من أجل نيل

الاعتراف بها، وإنهاء كابوس التخفي والتستر على ما تغرزه فينا الطبيعة، بل إن دعم المثلية أمسى واجبا على كل دول العالم، باعتبار المثلية وسيلة فعالة للحد من أكبر كارثة تهدد كوكبنا، ألا وهي النمو الديموغرافي المتسارع جدا، والذي أدى إلى استغلال الغابات والأراضي الزراعية بغية توسيع المدن وهو الشيء جعل كوكبنا بقعة ملوثة تسبح في الفضاء. تحدث لي رشيد أيضا عن قصة حب يندى لها الجبين، حيث كان له حبيب يحبه بجزاف، ولما أصيب هذا الأخير بمرض الإيدز تخلى عنه رشيد، ولا يزال منذ تلك اللحظة فريسة لتأنيب الضمير. ربما لازال يحبه، لذا كان يتحدث ويبكي، يمرر أصابعه على وجهي ويبكي. كفكف دموعه بكلتا يديه، وطلب مني أن أنسى ما كان يحكيه للتو لأنه شيء ينتمي إلى الماضي. قال لي ذلك وهو يبتسم كأن شيئا لم يحدث، ثم طفق يغازلني إلى أن تملكنتي الإثارة في لحظة من اللحظات، فشرعنا نحتك ببعضنا البعض وكان هو يداعب قضيبى من فوق بنطالى، وفي مرحلة ما، حاول إدخال يده من تحت بنطالى ليلا مس قضيبى، لكنني أوقفته، لقد شعرت بنوع من الخزي والعار، بمعنى أدق؛ شعرت بالذنب، لكنه رفض التوقف لأنه كان يشعر بإثارة شديدة، كل ذلك حدث تحت الضوء الباهت المتسرب من الزقاق عبر نوافذ الصالة. فجأة قبّلني في فمي إذ أحكمت غلق شفتي لأول وهلة، لكنني فشلت في تحجيم شهوتي،

وسرعان ما بادلتها التقبيل بعنف، وبحميمية حارقة، فقد أكون
ثنائي الميول، من يعلم؟ أشعلنا نور الصالة وحملنا فراشنا على وجه
السرعة إلى غرفة أخرى، حيث خلع قميصي، وفعلت له الشيء
نفسه، قبلني على عنقي ببطء وأنا أستشعر حرارة أنفاسه، ثم نزل
عبر صدري إلى أسفل جسدي، وشيئا فشيئا وببطء شديد؛ سحب
حزام بنطالي. شعرت أن الزمن قد توقف في تلك اللحظة وأنا أعيش
تلك التجربة، بل إنه لم تعد هنالك لا لحظة ولا حين، شعرت أنه لم
يكن في العالم بأكمله أحد غير أنا ورشيد، شعرتُ بشيء لا أستطيع
أن أكتبه أو أرويّه؛ لقد اتسعت الرؤيا وضاحت العبارة كما قال
النِّفَّري الذي كنت أقرأ له في تلك الغرفة الكئيبة التي صارت الآن
مصدر أوجاعي، هذه الأوجاع التي لحسن الحظ لم يكتشفها رشيد،
ربما لأنها لم تُرسم على وجهي بفعل الثمالة، وعلى أية حال، فقد
تضاجعنا، ونمنا متعانقين في ليلة هياج محمومة.

-22-

استيقظنا صباح يوم الجمعة على الساعة السابعة، تناولنا وجبة
الإفطار التي أعدتها طأمو والدة رشيد، وهي امرأة بلغت من الكبر
عُتيا، وقد رحبت بي ذلك الصباح أحسن ترحيب. - أنير ذكّرني في أي
ساعة سيكون موعد الامتحان؟ سألني رشيد - في التاسعة. أجبتة -
أين؟ -مكتبة آل سعود. -حسنا يعني في كوسطا عين الذئاب. - طبعا.

- وهل تهيأت له جيداً؟ - بما فيه الكفاية. - جيد، أتمنى لك النجاح.
- غراسياس مي أميغو. - دي ناضا بروفيسور أنير. - في أي ساعة
تبدؤون العمل؟ سألته. - في التاسعة أيضاً. - أين تعمل هذه المرة؟ -
كما تعلم فنحن نعمل في أي مكان، وذلك حسب ورش البناء، لكنني
اشتغل هذه الأيام في الإدارة المركزية لشركتنا بحي سيدي معروف. -
يعني أنك لن تمر عبر شاطئ عين الذئاب؟ - في الواقع لا أمر من
هنالك إلا إنني سأوصلك إلى مركز الامتحان. - شكراً صديقي رشيد.
- أتمنى فقط أن يحالفنا الحظ ولا نتوقف بنا السيارة في منتصف
الطريق. - أمل ذلك أيضاً. - أين ستذهب بعد الاختبار؟ - سأجلس
قليلاً في المقهى وبعد ذلك سأعود أدراجي إلى بلدتنا. - ولم كل هذا
الاستعجال؟ هل لديك عمل متبوع به أو شيئاً ينتظرك؟ - لا، ليس
ثمة شيئاً ينتظرنى. - إذاً عد إلى المنزل مباشرة بعد الامتحان، أنت
تعرف الآن بيتنا، حتى وإن كانت لديك ذاكرة سمكة فإنك في هذه
الحالة ستسجل عنوان بيتنا في ورقة وتضعها في جيبك، وبعد الانتهاء
من الامتحان تعطىها لسائق التاكسي وسيوصلك إلى عتبة بيتنا. - في
الواقع لن أستطيع العودة إلى المنزل سابقى في مكان ما إلى أن تنتهي
أنت من العمل. - أنا سأنتهي من العمل في الرابعة والنصف، وأنت
ستمكث هكذا تذرع الشوارع جيئة وذهاباً في صهد الذروة حتى
الرابعة والنصف، هل جُننت أم ماذا؟ لِمَ لا تريد المجيء إلى بيتنا؟

ستكون والدتي في البيت وستحضر لك وجبة الغداء. - سامحني لا أستطيع، أنت تعرفني جيدا؛ شخصية مصابة بفيروس الخجل المرضى. - إذا لن أرغمك يا أنير على العودة إلى البيت لكن على أية حال انتظرنى في أحد المقاهي حتى أنتهي من العمل وأتصل بك. - أنير هل لديك نقود؟ - نعم عندي شكرا. - متأكد أنك لا تكذب؟ - أقسم لك. إذن هيا بنا حتى لا نتأخر.

انتهى هذا الحوار الطويل الذي كان على مائدة الفطور بيني ورشيد، هذا الأخير الذي أوصلني إلى مكتبة آل سعود في الثامنة والنصف. من حسن حظنا أن السيارة لم تتوقف بنا هذه المرة، وكنت آمل أيضا ألا تتوقف برشيد وهو متجه إلى عمله كي يصل في الموعد. سألني رشيد قبل أن ينصرف إذا ما كنا قد تأخرنا عن موعد الامتحان لأنه لم ير أي مترشحين عند باب المكتبة، نظر إلى ساعته كي يتحقق من الأمر، فأخبرته أننا وصلنا في الموعد، أما المترشحون فينتشرون في المقاهي المجاورة للمكتبة، يستذكرون ويستغلون ما تبقى من الوقت في إنعاش ذاكرتهم. شرحت له ذلك كاذبا، فتفهم وتمنى لي التوفيق، ثم مضى إلى عمله. تأكدت من أنه اختفى وسط الشوارع المزدحمة، فدخلت إلى مقهى مطل على المحيط الأطلسي البارد، أشعلت سيجارة وطفقت أتأمل البحر بلونه الرمادي وطيور النورس التي تتلاشى في ضباب الصباح، بينما شففتى تنفث خيطا طويلا من الدخان الأزرق.

جلست هنالك حتى حدود الحادية عشرة، وفي هذه الفترة اتصلت بأمي لأطمئن على صحتها؛ كانت تعاني من مرض في القلب، إلا إنها لم تكن خائفة مما قد ينتج عن هذا المرض اللعين، ولكنها خائفة علياً من ظلمات السجن، وحزينة للغاية، حزينة لأنها لا تملك المال، ليس من أجل العلاج، وإنما من أجل توكيل محامٍ يدافع عني. بكت كثيراً، فحاولت تهدئتها مؤكداً أنني سأتدبر أمري، وأوصيت إخوتي الصغار أن يعتنوا بها ريثما أعود. كما ظلت جارتى المراهقة في ذلك الوقت تتصل بي دون أن أجيب على مكالماتها، فيما اكتفت حبيبتي مولا كعادتها بإرسال المقاطع الصوتية، والقلوب الحمراء، والقبلات الافتراضية عبر الواتساب.

فكرت أن قصة حبي بمولا هي قصة مندورة للزوال، لا مندوحة عن ذلك، فكيف يعقل أن تظل تحبني بعد أن تعلم أنني دخلت السجن وبالتالي فقدت عملي، والأخطر من ذلك حينما تعلم أنني دخلت السجن بسبب خيانتها، وهي التي هددت بالانتحار إذا ما أنا فعلت ذلك، وهو أمر لست أشك فيه مطلقاً لأنني على دراية بطبعها وكبريائها الزائدة عن الحد.

استيقظتُ من حلم اليقظة ذاك، وحاولتُ أن أنفض عني هذه الأفكار السقيمة، التفتتُ إلى أرجاء المقهى فرأيت أن الناس بدؤوا يتوافدون على المقهى، حتى استحال هدوء هذا الأخير إلى نوع من

الهرج والمرج، وهو الشيء الذي يمقته أناي. لكن من أنا؟ وما الشيء أو الأشياء التي يفضلها أناي؟ أنا شخصية غريبة الأطوار كما جرت العادة أن أسمع من الناس منذ طفولتي، هكذا كانوا ينعنونني. أنا شخص لا يحب التجمعات والازدحام، أحب أن أجلس بمفردي وحيدا وبعيدا عن الغير، أن أضع سماعات هاتفي في أذني وأتسكع بعيدا في المدى، في الخلاء، في الغابات، في الشواطئ، في الجبال، وفي كل الأماكن الخالية من الغير اللعين، الذي يعكر صفو روعي، ويملي عليّ قراراته وآرائه التي لست مقتنعا بها، وفي عزلي أطابق ذاتي وأجد حريتي. أفضل في كثير من الأحيان أن أمشي وحيدا مسافات طويلة على قدمي بدل أن أستقل سيارة الأجرة أو الباص، وأكره أشياء من قبيل الحزب، أو النقابة، أو الجمعية، أو التنسيقية... لأن أسوء الشرور بالنسبة إلي هي أن يتكلم الغير باسمي، أو يقرر باسم الجماعة أشياء لا يرغب فيها أناي أصلا. لذا كل من سولت له نفسه أن يتحدث باسمي أو يفرض عليّ رأيه، بصقت في وجهه من دون تردد. أتودون حقا أن تعرفوا من أنا وماذا أفضل؟ حسنا، إلى جانب أنني شخص يحب العزلة فأنا شخص سريع الغضب والانفعال، ومرد ذلك أنني اعتدت في عزلي أن أرفل في حياة يسودها الهدوء وراحة البال، وبالتالي فإن أبسط الأشياء ومهما بدت تافهة قد تزعجني وتعكر صفوي، كوني لم أعود في وحدتي على شيء اسمه الشقاء.

لدى عدد محدود جدا من الأصدقاء؛ لأننى سرعان ما أتشاجر معهم لأنهم يعكرون سعادتى، وهاتفى مليء بأرقام الناس الشخصية، لكن يستحيل أن أتصل بأحدهم. أنا شخص مكبوت جنسيا، لا أفى بوعودى، كثير التفكير والتخطيط والطموح، قليل الفعل والتطبيق على أرض الواقع، وهذه مشكلة أخرى. شخص كذاب؛ لا أستطيع أن أنكر ذلك، لذا قد أكذب وأنا أصف شخصيتى يا قارئى العزيز. على أية حال ولأننى هكذا، لا أحب الضجيج، فإنى غادرت المقهى نحو الشاطئ، وجلست على صخرة هنالك أفكر، وتفكر معى أمواج كثيرة. عندما اتصل بي رشيد متأخرا فى حوالى الخامسة والنصف عصرا؛ وجدنى أتسكع حينها فى ساحة الأمم المتحدة وسط المدينة، اعتذر منى على تأخره الناتج عن مروره بمحل إصلاح السيارات بغية إصلاح عطب فى محرك سيارته. طلب منى أن أنتظره هنالك كي يأتى ويقلنى بسيارته إلى المنزل، فوقفْتُ أنتظره عند باب محل لبيع الملابس النسوية يدعى لاغلوريا، وحينما وصل، قمنا معا بتركين السيارة هنالك فى إحدى الأزقة المتشابهة، وذهبنا للبحث عن مقهى ندخن فيه قليلا ونحتسى القهوة، لأن رشيد كان فى حاجة إلى تحسين مزاجه قبل الذهاب إلى البيت. جلسنا فى المقهى قرابة الخمس دقائق، فتذكر رشيد أنه نسي هاتفه فى السيارة، ولكونه كان متعبا بسبب العمل، فقد أعطانى مفتاح السيارة الذى كان مرفوقا بمفاتيح أخرى

كثيرة ميزتُ من بينها مفتاح المنزل؛ الأصفر والمعوج قليلا. وفي طريقي إلى الزقاق الذي ركنا فيه السيارة سألتُ أحد المارة عن محلِّ لإصلاح المفاتيح، فقال لي إنه يوجد في نهاية الزقاق على اليسار، فذهبت مباشرة أقصد ذلك المحل. نزعت المفتاح الأصفر من حلقة المفاتيح، وطلبت من الناسخ أن ينسخه على وجه السرعة لأنني سأعود إليه بعد دقيقتين. حاول أن يقول شيئا، لكنني أدخلت يدي إلى جيبني فأخرجت ورقة نقدية لم أنتبه إلى قيمتها وألجمت بها كلامه، تعجب الناسخ المفاتيح لحالي لكنه لم ينبس بكلمة واحدة، فتوجهت بعد ذلك إلى السيارة، فتحتها وأخذت الهاتف. وأنا عائد إلى المقهى، مررت أولا بناسخ المفاتيح، وحصلت على نسخة جديدة من المفتاح الأصفر.

جلسنا في المقهى ربع ساعة، احتسينا القهوة ودخنا السجائر قبل أن نتوجه إلى بيت رشيد. كنت أرغب في الواقع أن نواصل الجلوس في المقهى لأجل مشاهدة مباراة ساخنة من الدوري الإسباني، بيد إن رشيد ألح على الذهاب كونه يشعر بالتعب، وفي طريقنا إلى البيت سألتني هل أنا جائع. فكان هذا جوابي: - لست جائعا، لقد تغذيت على السردين المشوي بمرسى المدينة. سألتني أيضا كيف أجريت الامتحان وهل كان سهلا، فأكدت له أنه كان مناسبا جدا. - إذا سنحتفل مسبقا بنجاحك هذه الليلة في الديسكو خاصة أنها عطلة نهاية الأسبوع. اقترح عليّ. - في الحقيقة لا أستطيع الذهاب الليلة إلى أي

مكان، لا أريد أن أنام متأخرا، كوني سأستيقظ غدا في الصباح الباكر، سأرجع إلى بلدتنا. - أوه، لقد تذكرت للتو أن والدتي ستوقظني أيضا غدا في الصباح الباكر من أجل الذهاب إلى منزلي في شاطئ طماريس، إنها عطلة نهاية الأسبوع؛ الوقت الوحيد الذي أتحرر فيه بمعية أمي وشقيقتي كاميليا من ضوضاء كازابلانكا وتلوثها. - في أي ساعة ستذهبون غدا إلى طماريس؟ سألته. - في الساعة صباحا. - حسنا، أنا أيضا سأسافر في ذلك الوقت. - إذا سأوصلك بالسيارة إلى المحطة الطرقية. - شكرا لك رشيد.

-23-

في صباح يوم السبت، استيقظنا في السادسة والنصف، حيث أعدت لنا كاميليا شقيقة رشيد وجبة الإفطار، وبعد ذلك ساعدتهم في نقل بعض الأغراض إلى السيارة، ثم صعدت والدتي رشيد وأخته إلى المقاعد الخلفية للسيارة، بينما جلست أنا في الأمام جنب رشيد. توجهنا إلى المحطة الطرقية أولاد زيان حيث نزلت وودعت أفراد الأسرة الذين كانوا في السيارة واحدا تلو الآخر، وهم بدورهم تمنوا لي سفرا سعيدا، وحظا وافرا. انتظرت مرة أخرى حتى ابتعدت السيارة وتلاشت وسط زحام المركبات، ثم استقلت التاكسي وتوجهت إلى سوق غراج علال، حيث اشترت سكينا كبيرة من ذلك النوع الذي ينحرون به العجول، وفي نفس الوقت اقتنيت مقدة ومشواة كيلا

يشكك أحد في أمرى، خاصة أن البقال نفسه الذي باعني السكين، عندما لاحظني أحاول إقحام هذه الأخيرة في حقيبة الظهر وأغطيها بالملابس أعرب عن شيء من التعجب، لكنني سرعان ما أزلت ذلك الاستغراب الذي أضحى مرسوما على محياه حينما أخبرته أن لدي عقيقة ابنتي في الغد. ومن هناك طلبته أن يمدني بمشواة، كان من الممكن أن أطلب شيئا آخر كي أتخلص نهائيا من أي أثر للشك كان باد على وجهه، بيد إنني لست على علم بما يحتاجونه في مناسبة حفل العقيقة، كما أنه لم تكن لدي ابنة ولا حتى زوجة. اشترت أيضا من محل آخر ملاءة وفأسا صغيرة كتلك التي تستعمل في قلب الحقائق المنزلية، كما اقتنيت كذلك قفازين قطنيين أسودا اللون استعملتهما مذ اشتريتهما بسبب برودة الطقس، وبعدها توجهت عبر الباص إلى مديونة، عند مخرج مدينة كازابلانكا. نزلت من الباص ودلفت مشيا على الأقدام إلى مطرح النفايات الضخم الذي تُفرغ فيه كل أزيل كازابلانكا، قطعت مسافة طويلة حيث يوجد مطرح في الخلاء، يظهر من بعيد كتلال ناشزة من النفايات والرماد تحيط بها هالة من شاحنات الأزيل التي تفرغ حمولتها في كل حين. ويغطي مطرح دخان متصاعد في الأرجاء تتلاعب به تيارات الهواء، كما تحوم هنالك أسراب من طيور النورس والقلق في جو ضبابي، فضلا عن قطعان الكلاب وبعض البشر ممن يجدون في مطرح لقمة

عيشهم وسلاحا يصارعون به من أجل البقاء. مررت بمكبّ النفايات
ذاك واضعا كمي على أنفي في محاولة لتجنب تلك الروائح اللاذعة ما
أمكن ذلك، وفي طريقي وجدت رجلا يفرغ عبوات معدنية من
مشروب بيبسي ويضعها في عربته، توقفت عنده فأخرجت المشواة
من حقيبتي وأعطيتها له، ابتسم في وجهي قائلا وهو يقلب المشواة بين
يديه: -إنها لا تزال جديدة. -نعم إنها كذلك. -لا يمكنني أن أخذها
قد تحتاجها سيدي إنها جديدة. - لا أحتاجها يمكنك الاحتفاظ بها.
-شكرا سيدي. -هل أنت مدير شركة سيطا لجمع النفايات؟ سألني.
-لا، لست كذلك. -وهل تبحث عن شيء ما؟ كن حذرا سيدي من
أن تتسخ ملابسك، فهي تبدو أنيقة جدا. -لماذا تقوم بإفراغ هذه
العبوات؟ -آه، هذه العبوات.. لقد أتت قبل قليل شاحنتين من شركة
بيبسي اللعينة، وطرحوا العديد منها هنا، إنها مشروبات فاسدة
مضى على تاريخ انتهاء صلاحيتها خمس سنوات. -وماذا تفعل بها
أنت؟ -أنا..؟ -نعم أنت؟ -لا شيء سيدي.. فقط أقوم بإفراغها من
المشروب الغازي وأحتفظ بالعبوات. -ولماذا تحتفظ بها؟ -لأبيعها في
سوق دالاس بالحى الحسنى وأعيل أولادي. -بكم يباع الكيلو الواحد
من الألمنيوم؟ -بأربعة دراهم. -إنه ثمن زهيد. - لكنه حلال طيب
عكس ما تفعل بعض مافيات سوق دالاس. -ماذا يفعلون؟ -الكلام
خطير، لكن بما أنك لا تعرفني فلا ضير في أن أبوح لك به. - يمكنك

أن تبوح بذلك أعدك أنني لن أفشي شيئاً قط. - هناك جماعة في سوق دالاس تسرق في أثناء الليل الكابلات الكهربائية النحاسية وتلك المتعلقة بالاتصال المدفونة تحت الأرض، فيصهرونها لتحويلها إلى قطع من النحاس الخالص يبيعونه بثمن باهظ. - ألا ينقطع التيار الكهربائي على بعض الأحياء عندما يبترون هذه الكابلات؟ - ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك، ولا أعلم من أين يسرقون هذه الكابلات، فهم معروفون في سوق دالاس بكونهم يشتررون قطع الغيار والقصدير من عند بسطاء الناس ونابشي القمامة، بيد إن صديقا لي كانت تجمعهم بهم كراهة وحسابات عدائية قديمة، تجسس عليهم فرآهم يفرغون شاحنات من هذه الكابلات في ضيعة معزولة تابعة للجماعة القروية رأس العين بإقليم اليوسُفية ويدوبونها. وقد وثق تلك العملية بشريط فيديو رأيته بأمر عيني بعدما وعدته بعدم إفشاء السر، إلا أنني لم أقدر على كتم ذلك الفعل الإجرامي، وحينما التقيت بهم في سوق دالاس أخبرتهم أنني رأيت بنفسى ما يفعلون في المكان الفلاني، فهبتوا من هول الصدمة وهددوني بأنهم سيقتلونى ويرمون جثتى في البحر. إننى لست خائفا منهم، فأنا أخشى الله وحده. - متى وقع كل هذا؟ - قبل ستة أيام سيدي. قال بتنهيدة عميقة حينها حاولت تغيير هذا الموضوع الفارغ قائلا: -أيمكنك أن تمدنى بعبوة مملوءة من هذه العبوات؟ - نعم تفضل خذها، هناك العديد منها

كما ترى. التقطَ بيده اليمنى واحدة من الأرض وأعطانيها. -شكرا. -هل أنت خبير في التغذية سيدي الكريم؟ لم أجب على سؤاله وطفقت أتفحص تاريخ صلاحية العبوة، لقد مضى فعلا على نهاية صلاحيتها خمس سنوات. -كما ترى يا سيدي، هؤلاء الأوغاد يرمون هذه السموم هنا، سيقتلون الأطفال والمتشردين لعنة الله عليهم، لا ضمير لديهم، أتمنى من سيادتكم الموقرة أن تكتبوا تقريرا عن هذه السموم فترسلهم جميعا إلى السجن والمجد كل المجد لكوكا كولا الخالدة. - سأفعل ذلك كن مطمئنا. ودّعته، وذهبت بعيدا عن المطرح بينما الريح اللئيمة تعبث بربطة عنقي. تركت تلال النفايات تلك خلفي بنحو كيلومتر واحد تقريبا، وحفرت تحت شجيرة شوكية حفرة بالفأس التي اشتريتها، فدفنت السكين والمقعدة فضلا عن الملاءة، بعدما وضعتهم جميعا في كيس بلاستيكي. ثم عدت أدراجي إلى قلب كازابلانكا النابض بالحياة، وحجزت غرفة بالفندق ثم نمت ببذلي الرسمية التي لم أبدلها منذ جئت من مراكش ومن دون أن تضايقني ربطة العنق. وعندما استيقظت كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف ليلا، إذ ذهبت مباشرة إلى الحانة وطلبت قنينة ويسكي، شربت قليلا جدا للحفاظ على صفاء ذهني، ومكثت هناك أعبث بهاتفي إلى غاية الثالثة بعد منتصف الليل محروما من النوم والثمالة، ثم حملت حقيبتي ومشيت مترنحا في الشارع أقصد منزل

رشيد، تحت مطر لجوج، وريح قوية تكاد تقلع الأشجار من جذورها. كنت لا أزال أرتدي البذلة الرسمية السوداء بحذاء لامع وقفازين، وشالا قطنيا يغطي وجهي المدفون في صدري اتقاء الريح الصرصر العاتية، أغد السير على الرصيف جنب شاحنات السلع التي تنام تحتها القطط والأطفال المتشردون وعويل الوطن، أقف أحيانا لأطل على هؤلاء التعساء فأضحك وأبكي في نفس الوقت ثم أواصل سيرى، وأحيانا أخرى أتوقف لأشم رائحة البحر وأسمع بكاء السماء، بينما الريح الممزوجة بالمطر تتلاعب بي تحت الأضواء الباهتة، كنت مبللا ولكنني لا أشعر بالبرد، فيكفي أن أفكر في هؤلاء الأطفال المتشردين حتى يغلي دمي.

وقفت أمام منزل رشيد الذي كانت كل نوافذه مغلقة، والغرف غير مضاءة، التفتت يمنا ويسرة، لكن الزقاق كان مقفرا ومضاء بنور باهت يصدر عن أعمدة الإنارة، وبذلك وضعت أذني على نافذة المنزل وطفقت أصيخ السمع وأنا أرتعش من المطر البارد الذي بللني، غير إنني لم أسمع سوى ثجيج المطر وخواية الهواء، وحينما انقطع المطر في لحظة وجيزة، سمعت شخيرا بعيدا يصدر من المنزل نفسه، فتأكدت من أن شخصا ما نائم في المنزل. أخرجت من جيبى المفتاح الأصفر وفتحت الباب بهدوء جنائزي، وأغلقتة بالطريقة نفسها، ثم خلعت حذائي ووضعتة عند مدخل المنزل على ممسحة البلاط كيلا

أسترعى الانتباه، وشرعت أمشي دون جلبه كالأفعى. كانت خيوط النور الصادرة عن عمود الإنارة تتسلل من زجاج النوافذ وترشدني في طريقي، رمقت بواسطة ذلك النور الباهت حذاء الشرطي موضوعا أمام غرفته، كان الشرطي غاطا في نوم عميق، ومدثرًا بدثاره، كان وجهه أيضا مغطى، دنوت منه بضع خطوات فيما البرق يومض في جفون السحاب ويخترق هو الآخر زجاج النوافذ، كان لا يزال نائما ومصدرا شخيرا صاخبا، وعلى مقربة من رأسه توجد مائدة صغيرة عليها علبة سجائر ومسدس وأصفاة معدنية، وأشياء أخرى دقيقة لم أستطع تمييزها. اقتربت أكثر من الشرطي، وفجأة انقضضت عليه وأخذت أخنقه بملاءته، كان في البداية يقاوم بشدة، يهيمهم، ويتخبط في سريريه. هاجمت أنا بدوري من فوقه بكل ما أملك من قوة، وكان هو الآخر يجرنى بيده اليمنى من ربطة عنقي ويحاول أن يمد يده صوب وجهي حتى سقطت نظاراتي. وبعد مواصلي خنقه بالملاءة خارت قواه وأرخى يده، فأشعلت الضوء ونزعت عنه الملاءة، غير إنه كان لا يزال يتنفس ببطء، فأخذت الوسادة واستمررت في خنقه إلى أن توقف نبض قلبه، فأخرجت عبوة البيبسي وأفرغت نصفها في فمه ثم وضعت عليها يده وأصابعه كي تترسخ عليها بصماته، ثم وضعتها على المائدة جنب رأسه.

أعدتُ توضيب فراشه الذي بات مبعثرا، وأخذت المسدس واضعا إياه في حقيبة الظهر، وحملت أيضا نظاراتي، ثم ارتديت حذائي وخرجت دون أن أطفئ ضوء غرفته. أغلقت خلفي باب المنزل بشكل طبيعي جدا، كان المطر حينها قد توقف عن الهطول فتوجهت إلى الحانة عبر التاكسي لإكمال زجاجة الويسكي التي لا زالت تنتظرني على الطاولة، كان البار دافئا، باهت الضوء، وخاليا من الزبائن في ذلك الوقت المتأخر من الليل، جلست هناك وحيدا، منتشيا ومحلقا في سماء أفكارى مثل طائرة ورقية.

-24-

مزقت الشمس قناع الليل، وأسدلت خيوطها الذهبية عبر نافذة غرفتي لتوقظني من نومي المضطرب، كان يوم أحد جميل ومشمس. تناولت فطوري على حساب الفندق، وفي التاسعة استأجرت سيارة بيضاء من نوع ضاسيا لوغان، وذهبت إلى المكان المجاور لمكب النفايات حيث دفنت أغراضي، إنْتَشَلْتُهُمْ من تحت التراب ووضعتهم في صندوق الأمتعة مغطيا إياهم بالملاءة، وبعد ذلك اشترت مجرفة وشريطا لاصقا، بالإضافة إلى لتر من البنزين قد أحججه إذا دعت الضرورة، ثم سافرت إلى غابة المعمورة. استغرقت ساعة لأصل إلى هناك، وأربعين دقيقة أخرى لأبحث عن حافلة مدرسية أو مجموعة من التلاميذ والتلميذات الذين من المحتمل أن تكون لمياء بينهم،

وبعدما ارتدت الغابة متراً متراً، بلغت في الأخير مرادي، حيث لمحت بين أشجار الصنوبر حافلة صفراء للنقل المدرسي، وغير بعيد عن هذه الأخيرة كان ثمة تلاميذ يلعبون كرة القدم، وتلميذات في الجانب الآخر يلعبن الغميضة أو شيئاً من هذا القبيل. ركنت السيارة خلف شجيرات متشابكة وأطفأت المحرك كيلا أثير الانتباه، ثم غطيت وجهي بالشال وارتديت القفازين. نزلت من السيارة أمشي بخطى ثقيلة تجاه التلميذات، حاملاً المسدس في جيبى، أجول بناظري من خلف الشجيرات والأعشاب العالية بحثاً عن لمياء. وحينما وقعت عيني عليها، اقتربت منهن شيئاً فشيئاً وتسمرت مختبئاً وراء جذع شجرة كبيرة أتحيّن فرصة ابتعاد لمياء عن زميلاتهما، انتظرتُ طويلاً، لكنها ظلت لصيقة بزميلاتهما، كانت ترتدي بذلة رياضية لفريق الوداد البيضاوي وتعلمر قبعة شمسية يتهدل منها شعرها الكستنائي من الخلف على رقبتها. لم ترني مع حسن الحظ، لأنها كانت ملتفتة تلعب مع صديقاتها تارة وأخرى تلتقط صوراً لأشجار الصنوبر وتتفحص الصور في هاتفها، سمعتها تقول في الأخير لزميلاتهما: - انتظرنى سأعود حالاً. وذهبتُ خلف شجرة ضخمة لتتبول. وفي الوقت الذي رفعت فيه بنطالها كنتُ أنا خلف ظهرها، أغلقت فمها بيدي اليسرى ووضعت فوهة المسدس على رأسها فحاولت أن تعض يدي وتضطرب، لكن حينما أشهرت مشط المسدس المملوء بالرصاص،

هدأت. - إذا أنتِ هدأتِ والتزمتِ بما سأمليه عليكِ لن أقتلكِ، وستعودين إلى بيتك سالمة، مفهوم؟ أومأتُ بنعم وهي تُقفِّف. - إذاً تحركي أمامي، هيا، وبهدوء. اقتدتها من بين الشجيرات المتشابكة نحو السيارة، ومددتها على المقاعد الخلفية بعدما قيدت يديها ورجليها، ووضعت الشريط اللاصق على فمها، ثم غطيتها بالملاء درءاً لأي خطر محتمل، وصعدتُ إلى السيارة أسير مسرعاً وسط الأشجار مثيرة زوبعة من الغبار. شرع قلبي يخفق بشدة بينما أحاول مراوغة الأشجار بالسيارة، يا إلهي تراني ماذا أفعل الآن؟ هل أنا واعٍ بما أفعله؟ كنت قابضاً على عجلة القيادة بعصبية شديدة غير مدرك سبب اختطافي للمياء، ولست أعرف أيضاً ماذا عساني أفعل بها بعد أن اختطفتها، هل أغتصبها؟ وهل سأحقق لذة إثر ذلك؟ لا، لا يمكن أن أشعر بأي لذة، لأنني خائف، كما إنني لست المرة الأولى التي سأكون قد لمست فيها جسد لمياء. هل سأقتلها وأدفنها تحت الثرى؟ لكن ماذا سأجني وراء ذلك؟ ماذا ربحتُ من قتل الشرطي؟ لقد قتلته بدم بارد من أجل أن أقتل لمياء، ولماذا سأقتل لمياء؟ في الواقع لست أدري. يا إلهي هاتفي يرن، لكن إنها لمياء نفسها هي التي تتصل بي. - كيف تجرئين على الاتصال بي أيتها القحبة وأنت مقيدة اليدين؟ سألتها بغیظ شديد بعدما ضغطت على فرامل السيارة بعنف. أصابتني دوخة حينما اكتشفت أن الفتاة خلفي ما تزال مقيدة

والهاتف لا يزال يرن، أشهرت المسدس في وجهها قائلاً: - إذا قمتِ بأدنى حركة فإنني لن أتردد لحظة واحدة في تفجير دماغك. ثم أجبتُ على المكالمة: - ألو مرحباً. فجاء الرد كالتالي: - أيها الوغد، لماذا لا ترد؟ لماذا لم تأتِ؟ لقد سئمنا من انتظارك وعودك الكاذبة أيها المغتصب اللعين، سنقحمك السجن مدى الحياة فأنت تستحق ذلك. والآن أجبني أين أنت؟ - أنا.. أنا.. أنا آت في الحال.. لقد كنت متبرداً وخائفاً من أبيك، لهذا السبب لم أستطع المجيء. - آه يا كوتشو بالله عليك، لا تخف، بالعكس سيصبح بابا صهرك وهو سعيد بذلك، هل تريد أن تتحدث إليه الآن؟ - لا داعي، أنا قادم، انتظريني في مقهى بريمافيراً بدرب السلطان. حسناً، اتصل بي حالماً تصل. - ألم تذهبي اليوم إلى غابة المعمورة؟ - للأسف لم أذهب لأنني لم أكن في حال جيدة بسبب الحمل، لكن يبدو الأمر شبيهاً بحضوري؛ فابنة عمي ندى أرسلت لي صوراً جميلة من النزهة. أقفلتُ الخط والتفتتُ إلى الفتاة خلفي لأنزع عن فمها بقوة الشريط اللاصق: - من تكونين بحق الجحيم؟ - أنا ندى. قالت والدموع تغطي وجهها ثم أضافت: ماذا تريد مني يا كوتشو؟ أقسم أنني سأخبر لمياء بكل شيء، أعلم أنك اغتصببت ابنة عمي وتريد أن تغتصبني كذلك. - اخرسي. وضعت الشريط اللاصق على فمها مجدداً.

كان الضباب الكثيف قد أخذ يحجب أشعة الشمس في ذلك الوقت. - انحنى تحت الغطاء وإلا ثقتب جمجمتك. شغلت السيارة وتوغلت في الغابة التي يلفها الضباب من دون تحديد الوجهة التي سأقصدها، فكرت في نفسي أن أكبر خطأ يمكنني اقترافه هو ترك ندى حية، لأن تركها حية معناه الزج بي في السجن لمدة لا تقل عن ثلاثين عاما، معناه أنني اختطفت قاصرا تحت تهديد السلاح الناري الذي سرقته من شرطي قتلته عمدا، فضلا عن حيازة أسلحة بيضاء. بعد تفكير سريع خلصت إلى أنه يجب عليّ قتل ندى، فحددت الوجهة وأدرت عجلة القيادة بعنف منعطفًا ناحية اليمين باتجاه البحر الذي ما فتئ ينفث ضبابا كثيفا، توقفت بمحاذاة جرف صخري عال تتكسر عليه أمواج المحيط المظلم كالقبور، كان المكان خاليا من البشر، لا شيء يظهر بوضوح، ولا شيء يسمع سوى هدير الأمواج الوحشية التي تنفث إلى ساحل البحر كل الذكريات والمواعيد، وسراويل العاهرات وأحلام الشباب. فتحت الباب الخلفي للسيارة، وأخرجت ندى جارا إياها من شعرها وهي مغلولة اليدين، حاولت ركلي ومقاومتي برجليها، لكن من دون جدوى، كانت تحاول أن تصرخ بشدة لولا الشريط اللاصق الذي كبت صراخها. أخرجت المسدس وأطلقت على جبينها من مسافة قريبة جدا فاخرقت الرصاصة جمجمتها، ثم جرجرت صخرة ثقيلة الوزن وشدتها بواسطة الملاءة على بطن الجثة

المضرجة بالدم، ودفعتها بيديّ ورجليّ من حافة البحر العالية. وقفتُ عندئذ متنهداً ويديّ على خصري لأشاهدها تهوي وسط الضباب، وتغوص بعيداً في بحر الظلمات متجهة إلى مثواها الأخير. أفرغت لتر البنزين على دماغها الممزوجة بالوحل وملح المحيط، وأحرقتها، كما رميت المسدس والمجرفة والسكين وكل تلك الأغراض اللئيمة بعيداً في البحر، وصعدت السيارة متوجهاً نحو كازابلانكا كأن شيئاً لم يقع، لكن قبل مدخل الطريق السيار المفضي إلى المدينة البيضاء غسلت السيارة بعناية في محطة الوقود.

أن تكون ندى مذنبه أو بريئة لا يهم في شيء، كونها لو تُرِكَت على قيد الحياة لفضحت بدون شك أمري، إن الموت بالنسبة إلي أفضل من التعفن في السجن مدة ثلاثين عاماً، إن هذا الأخير هو نفسه موت من نوع آخر، موت بقلب يخفق، لكنه مؤلم للغاية، فأني معنى للحياة داخل أسوار مغلقة لمدة ثلاثين سنة؟ لذلك كان من الأفضل أن ترقد روح ندى المسكينة بسلام من أجل أن أتفادى ذلك الجحيم الدنيوي اللعين. هذا هو الإنسان، يعيش على حساب أخيه الإنسان، يموت الغير ليعيش الأنا، إنه القانون الحتمي للطبيعة البشرية الشريرة.

اتصل بي رشيد وأنا في طريقي إلى كازابلانكا، قال لي والأسى يمضغ قلبه بالألم أنهم عثروا هذا الصباح على شقيقه ميتاً في غرفته. أبدت له هول صدمتي وسألته عن سبب وفاته، فصرّح أنهم

ينتظرون نتائج التشريح الطبي على أحر من الجمر، كما أعرب لي عن مدى حيرتهم تجاه اختفاء مسدس شقيقه، فنعيتُه في وفاة هذا الشاب المسكين، معبراً له عن أسفي الشديد، و متمنياً له أن تصل الشرطة إلى نتائج ملموسة، وأن ينال المرحوم العدالة إن كان مقتولاً، ويعاقب قاتلوه أقصى درجات العقاب. فكرتُ في نفسي بعدما أنهيت المكالمة مع رشيد أن احتمال اكتشاف أمري من قبل الشرطة بعيد جداً، لأنني لم أترك أي أثر لبصماتي، أما مسألة اختفاء المسدس - وهذه مشكلة أخرى- فإن الشرطة ستفترض على ما أعتقد أنه قد سُرق منه خارج المنزل، أو أتلّفه في مكان ما، فهناك العديد من الاحتمالات المتشابكة والمعقدة التي ستفترضها الشرطة العلمية، حقا لست أعرف شيئاً، ما أعرفه الآن هو أنني خائف للغاية.

وصلت إلى كازابلانكا، ودفعت السيارة مغسولة ونظيفة بعناية إلى أهلها في شركة كراء السيارات الذين يشتغلون طيلة أيام الأسبوع، وفي الوقت نفسه تلقيتُ رسالة نصية عبر واتساب من لمياء تقول فيها أنني تأخرت، وإنها لا تزال تنتظرني في مقهى بريمافيراً، فأجبت على الرسالة قائلاً إنني في الطريق إليها، قادم من حي الألفة في الباص الأصفر اللعين رقم 143. وأجبت في نفس الوقت على رسالة مولا كيلا تغضب وتقول إنني ولجت الواتساب ولم أرسل لها رسالة، كانت مولا تعبر في رسالتها عن مدى اشتياقها لي، وتساءلني عن حالي وأحوال

عائلى جمىعا، وعن موعء عوءءى إلى مراكش، كما خءمء رسالءها كعاءءءها بكلمة "أءبك".

ءءلء مقهى برىماقىرا فلم أءء لمىاء بعءما ألقىء نظرة فى جمىع أركان المقهى، أءار غىابها اسءغرابى فاءصلء بها، أءابءنى غاضبة أنها خرجء لشراء ءعبئة من الءانوء لأنها كانء ءوء أن ءءصل بى للءوء بسبب ءأءرى وهى عاءءة الآن إلى المقهى. كان فى الءقىقة صوءءها مضطربا ىشى بءصنع فى القوء، أو ربما كءب. اسءوءء على مقعد هنالك فى المقهى، وأءءء من على الطاولء ءرىءة ىومىة كانء أولى صفءاءها ءءءء على شرطى وءء مىءا ومسءسه المهنى مفقوء، وعءءما رفءء رأسى قلىلا لأقلب الصفاءة، فوءئء بوءوء ءءلین ىقفان أمامى، أءءهما كهل ءو شارب كءىف ىرءءى معظفا ءلءىا أسوء اللون وىعءمر قبعة كلاسىكىة، والأءر شاب طوئل القامة أصلع الرأس ىرءءى نظارة شمسىة. - هل أنءما من عاءلة لمىاء؟ سألءهما. فأءاب الءءل الكهل: - نحن من عاءلة الشرطة، قم وءفضل معنا. - الشرطة؟ وماءا ءرىءان منى؟ ءفضلا بالءلوس أولا، ماءا ءرىءان أن ءشربا؟ - نحن من سىعرض علىك المشروب، لكن لىس هنا. - وأىن؟ - فى مفوضىة الشرطة، هىا قم فلىس لءىنا ووقت لنخسره. كاء ىغمى علىّ عءءما علمء أنهما شرطىان، وفكءء أنهم عرفوا لا مءالة أنى المءرم الءى قءل الشرطى أو نءى أو هما معا. -

لن أذهب معكم إلى أي مكان، أنا بريء لم أفعل شيئاً. فرد الشرطي الشاب بعدما أمسكني من كتفي الأيسر: - يمكنك قول ذلك في مفوضية الشرطة، والآن هيا بنا. في تلك اللحظة تخضّلت عيني بالدموع، وشعرت أن وجودي شرع في الانهيار داخل هذا العالم مثل جبال الجليد الذائبة في عرض المحيط، شعرت بذلك عندما طفق الشرطي يقيدني بالأصفاد المعدنية. وحينما كانا يقتادانني إلى الخارج باتجاه سيارة الشرطة المركونة أمام باب المقهى؛ صُدمتُ بوجود لمياء واقفة بمعية والدها الذي كان واقفاً على جانبها الأيسر، واضعاً يده اليمنى على كتفها الأيمن ومستنداً بيده اليسرى على باب سيارة الشرطة، بينما هي مشبكة ذراعها على صدرها تجهش بالبكاء وتومئ برأسها معبرة عن الرفض: - حرام عليك يا بابا.. حرام.. إنه سيتزوجني ولهذا السبب جاء إلى المقهى ليتحدث معي حول الموضوع نفسه. حينما سمعت هذه الكلمات التي تقطع نياط القلب تنفستُ الصعداء، وأدركت أن الأمر لا يتعلق بجريمتي القتل، بقدر ما يعني أن والد لمياء غدر بي واتصل بالشرطة لما علم بمجيتي، أو إنه تجسس على هاتف ابنته ليملئ عليها قسراً ما فعلته للتو؛ أي خروجها من المقهى. وحينما أردت صعود السيارة بصق والد لمياء في وجهي: - كلب، مجرم. بينما علا بكاء لمياء، وحُشِر الناس حولنا. وضعتُ أول قدم داخل السيارة فقالت لي لمياء: - كوتشو إني أحبك، أقسم أنني أحبك

ولم أؤذيك أو فكرت في أن أؤذيك في يوم من الأيام، سامحني كوتشو، أعدك أنني سأفعل كل ما بوسعي فعله لأخرجك من السجن. التفتتُ إلى الشرطي الذي يمسكني من ذراعي وقلت له: -هل تأذن لي دقيقة بالحديث معها؟ -نعم بالطبع يمكنك ذلك. رد الشرطي. وصححتُ بلمياء فدنت مني فضغطتُ على يدي وهي تبكي. -لمياء لا مزيد من البكاء فأنا على دراية بأنك لم تتصلي بالشرطة، وعلى علم كذلك بأنك تحبينني، لكن لدي طلب للمرة الأخيرة قبل أن أدخل السجن. - ما هو طلبك يا كوتشو؟ قل له لا تتردد، لأنني سأبني طلبك بلا شك. - أريدك أن تحافظي على مؤلفات الفلاسفة المغاربة القادمة إلى أن أخرج من السجن، إنني أعزها كثيرا، وأكثر من أي مؤلفات أخرى. - هل تقصد الكتب المعزولة في صناديق من الكارتون؟ -طبعا، سبعة صناديق معزولة في الركن الأيمن من الغرفة بها كتب ابن حزم وابن رشد وابن عربي وغيرهم. -كن مطمئنا يا كوتشو إنها أمانة في عنقي، سأسهر على حفظها، وسأشرع ابتداء من اليوم في نقلها إلى غرفة نومي. -موتشيسيماس غراسياس لمياء، اعتنِ بنفسك وبالجنين. نظرتُ في وجهها للمرة الأخيرة ثم دخلتُ، فأغلق الشرطي الباب وتحركت السيارة، فنظرتُ من الزجاج الخلفية فرأيتُ لمياء تلوح لي بيد وتكفكف دمعها بالأخرى، ثم احتضنها والدها، لقد كان حقا

بطنها بارزا وقد زاد وزنها، كما ظهرت على محياها ملامح التعب والإرهاق.

-25-

حملوني إلى مفوضية الشرطة المتواجدة بمقاطعة سباتة، وأدخلوني إلى مكتب لا يوجد به أحد سوى سيرر متهالك كان في إحدى أركانه، وتركوني هنالك وحيدا لما يقارب ساعة من الزمن ليدخلوني بعد ذلك إلى مكتب التحقيق؛ حيث توجد مرقنة لتدوين تصريحات المعتقلين، وشرعوا يتعاقبون عليّ في التحقيق. في كل مرة كان يأتي شرطي مختلف عن سابقه لي طرح عليّ أسئلة جديدة، فتارة يأتي شرطي شاب، وتارة أخرى شرطي يقف على أعتاب التقاعد. مرة كان يسألني شرطي ودود، وأخرى عميد شديد الانفعال يسبني أكثر مما يطرح عليّ الأسئلة، وكانت هذه الأخيرة تختلف من شرطي لآخر. سألوني عن اسمي واسم والدي، ومحل إقامتي، ناهيك عن وظيفتي، ثم عن طبيعة علاقتي بلمياء وكيف تعرفت عليها ومتى كان ذلك بالضبط، وهل كنت في كامل قواي العقلية لحظة اغتصابها أم أنني كنت تحت تأثير المخدرات، ولماذا هربت إلى مدينة مراكش بعد عملية الاغتصاب، وكثير من الأسئلة المملة. اعترفت لهم بأنني أعرف لمياء، وأنني كنت أستأجر غرفة من والدها، بيد أنني نفيت مطلقا عملية الاغتصاب، مؤكدا أن ذلك كان بالتراضي وعن طيب خاطر، بعيدا

عن كل عنف أو ابتزاز، وإن ذهابي إلى مراكش لم يكن هروبا، بقدر ما كان سفرا طبيعيا لأجل غرض شخصي. غير إنهم لم يتقبلوا تصريحاتي، مصرين على أنني اغتصبت لمياء طبقا لتصريحاتها نفسها، فضلا عن مقتضيات الشهادة الطبية التي تثبت أنها تعرضت للاغتصاب، وأني سأنال جزائي، خاصة عندما رفضت الزواج منها. وهنا تدخلت لأقول لهم إنني لم أرفض الزواج منها، بل على العكس من ذلك جئت إلى مقهى بريما فيرا لأتحدث مع لمياء حول موضوع الزواج، إلا إن أباهما قدمني إليكم، أما الآن فإنني أعلن رفضي التام الزواج من لمياء والسجن أحب إلي مما تدعونني إليه.

بعد أكثر من نصف ساعة من التحقيق، والشتم، والصفع أحيانا، دخل شرطي متوسط العمر، كان ودودا إلى أقصى الحدود، ومن طينة بالغة العدل والوقار. سألتني هذا الشرطي عن سبب مجيئي إلى كازابلانكا، فأجبت أنه غرضي من ذلك هو الدراسة، فابتسم ودخل معي في نقاش شبه ثقافي حول البحث الأكاديمي والجامعة، وأحوال الدراسة. كما أخبرني أنه ينحدر من قرية تغبالت بإقليم زاكورة، وهو الشيء الذي جعله يعاملني معاملة حسنة، بحسباني أنتهي مثله إلى منطقة الجنوب الشرقي للمملكة المغربية الكبرى، مقتنعا أن أسايري لا تنم عن ارتكاب جريمة، بعكس ما تشير ملامحي إلى طالب بريء لا يعرف سوى الكتب. دخلنا في صمت ذاهل، ثم جلس على

حافة المكتب وقال: - أخشى أنك ضحية فتاة قاصر، على الرغم من كونك طالب ناضج يدرس الفكر النقدي بسلك الماستر، أخشى صراحة أن تكون هذه الفتاة قد استدرجتك إلى شركها مثل عصفور جائع وغبي. استمررت في صمتي ثم قلت له: - هل أجد عندك سيجارة؟ - بالطبع موجودة، تفضل خذ. أعطاني السيجارة والولاعة ثم شرعت أدخن. - هل لديك طلب آخر؟ - نعم أريد أن أجري اتصالا إذا كان القانون يسمح بذلك. - بالطبع يسمح بذلك، سأذهب لإحضار هاتفك. قال ذلك وخرج، ليعود بعد عشر دقائق تقريبا ومعه الهاتف ونصف لتر من الحليب، بالإضافة إلى قطعة كعك. منحني ذلك، وخرج مرة أخرى ليترك لي فرصة الاتصال على انفراد.

أخذت الهاتف بين يدي وفكرت في الاتصال بمولا، فكرت أن أصارحها، وأبوح لها بما فعلتُ قبل أن تكتشف سري بنفسها، غير إنني كنت مترددا في فعل ذلك بسبب الخوف من ردة فعلها، كنتُ في الحقيقة خائفا جدا منذ أدخلتني الشرطة إلى هذا المكان الكئيب، لم أكن أخاف على نفسي، ولكن كنت خائفا على حال أمي وردة فعل مولا عندما ستعرف الحقيقة. وبعد تفكير حثيث، استطعتُ أخيرا أن أحمّد حمأة الخوف تلك، واتصلتُ بمولا لأخبرها الحقيقة بشكل مباشر ومن دون مقدمات، أخبرتها أنني كنت أخونها طيلة الفترة التي

كنت أقيم فيها بكازابلانكا مع جارتى المراهقة التى كنت أكثرى غرفةً فى منزلهم، وإن هذه الأخيرة حاملٌ الآن بابنى، كما إننى لم أسافر إلى قريتنا، بل جئت إلى كازابلانكا لتسوية المشكل بينى وجارتى المراهقة، إلا إن الشرطة الآن ألقَتْ علىّ القبض بتهمة اغتصاب قاصر. أكدت لمولا أننى كنت أكذب عليها، جاعلا إياها تعيش فى عالم من الأوهام والوعود الكاذبة، لم تصدقنى فى البداية، كانت تضحك، وتسألنى هل أنا سكران أو مخدّر، أم إننى أريد فقط أن أمزح معها لاختبر ردة فعلها مثل ما يفعلون فى برامج الكاميرا الخفية، حاولت أن أبين لها بشتى الطرق أننى لست أكذب عليها، غير إنها لم تصدقنى. أقفلتُ الخط، وولجتُ الواتساب فأرسلتُ لها الفيديو الذى يوثق العلاقة الجنسية بينى ولمياء، إلى أن تأكدتُ من أنها شاهدته فحذفتُه من كِلا الجانبين كيلا تنتقم وتقوم بنشره فتشوّه سُمعتى. اتصلتُ بي مباشرة بعد أن شاهدت الفيديو، لقد كانت مذهولة، وغير قادرة على التصديق، فجأة شرعت تبكى بكاء لا سلوى له، وتصرخ بأعلى صوتها، كانت تسبني بالذع أنواع السب والشتم، قالت إن الكارثة العظمى تكمن فى أننى خُنْتُها مع مراهقة لم تمسح بعدُ مخاط أنفها، على حد تعبيرها، وأن قتلها لي عاجلا أو آجلا بسبب هذه الخيانة الشنعاء هو أمر لا رادّ له.

دخل على حين غرة عميد الشرطة بوجهه العابس، وهو الذي سبق أن طرح عليّ أسئلته الاندفاعية قبل ساعة، فأقفلت الخط قبل أن تنهي مولا الجريحة تهديداتها، وأقحمت الهاتف في جيبى دون أن ينتبه لذلك. ثم لحقه الشرطي الودود، فأخذ منى الهاتف أمام أنظار عميده وأطفأه ثم وضعه على مكتب التحقيق، كنت آملُ أن لا يفتشها هاتفى كيلا يعثرا على الفيديو الفاضح، ومن حسن طالعي أنهما لم يفعلا ذلك. شرعا يحققان معي من جديد، كما سألني عميد الشرطة إذا ما كنت أبغى الاعتراف بالتهمة الموجهة إليّ، فكان جوابي ثابتاً؛ وهو أنني لم أغتصب لمياء. وعندما بدأ التحقيق يفتر، سألاني إذا ما كان لدي شيء أريد أن أضيفه، فأجبت بالنفي.

شربتُ نصف لتر الحليب ذاك واحتفظت في جيبى بقطعة الكعك، ثم صاح العميد بالشرطي الحارس، أمراً إياه أن ينزلى إلى الزنزانة، فنقذ هذا الأخير أمره، كان الليل قد حلّ، والزنزانة تغطّ بالسكارى والنشالين، وممن يتعاطون حبوب الهلوسة، ناهيك عن حملة السيوف الذين يهددون سلامة الأشخاص، كما كان بلاط الزنزانة مليئاً بالقيء. لقد غرقتُ في حالة وهن محموم إثر ذلك المنظر الشبيه بالجحيم، وقد كنتُ أتمنى بفارغ الصبر أن يحملونني إلى السجن في أقرب وقت كي أتخلص من ذلك الضجيج والعريضة التي لا تطاق، فلجأت نحو ركن شاغر من الزنزانة، ودفنت وجهي في قميصي تجنباً

لرائحة القيء والخمر الرخيص، وبقيت على تلك الحال حتى استسلمت للنوم.

-26-

أيقظني الشرطي الحارس من نومي في حوالي الثامنة صباحا قائلا: - خذ هاتفك واستعد، ستذهب الآن إلى سجن عكاشة. عندما سمعت ذلك وأنا لازلت حينئذ في غيبوبة النعاس انتابني شعور بالفرح شديد، لأنني سأستطيع أخيرا أن أتخلص من هذه الروائح النتنة، ولا أظن أن أحدا سيطيق تحمل رائحة القيء. لقد قيدوا يدي وحملوني في سيارة شرطة ذات نوافذ غير شفافة تقريبا لأنها مغلقة بنوع من البلاستيك الأسود المقوى، فضلا عن الشباك الحديدي الذي يحمي زجاج النوافذ، كانوا بطبيعة الحال يتجهون نحو سجن عكاشة في حي عين السبع. كان معي في السيارة أربعة من رجال الشرطة؛ اثنان منهما يجلسان جنبي في الخلف، والآخر يجلس في الأمام بجانب الشرطي السائق.

وصلنا إلى سجن عكاشة بعد حوالي ربع ساعة، وقد عرفت أننا وصلنا من خلال التوقف المتكرر للسيارة، وسماع صليل مزلاج الباب عند فتحه. لم تكن الرؤية واضحة عبر نوافذ السيارة، لكنني تأكدت رغم ذلك أنه توجد أكثر من بوابة واحدة للسجن كانت تمر منها السيارة وقت دخولها، وبينما كانت هذه الأخيرة تعبر بوابات السجن خامرني

شعور غريب، شعور باكتشاف مكان مجهول لأول مرة، وفي نفس الوقت اعتراني شيء من الخوف، لدرجة أن دمعة سقطت من عيني لما تذكرت ما كان يحكيه لي أحد أصدقائي عن ويلات السجن وأهواله، كما كنت أفكر في ردة فعل مولا بعدما عرفت الحقيقة، وحال والدتي، كنت أيضا مشوش الذهن حُيال مستجدات قضية الشرطي الذي قتلته بدم بارد، متسائلا أين وصل تحقيق الشرطة في هذه المسألة. لقد طرحت على نفسي أسئلة عديدة، كان أبرزها: كم سأمكث داخل هذا السجن؟

عندما أنزلوني من السيارة، كان أول شيء اكتشفته في السجن هو أن لون الأبواب أزرق مثل لون المحيط، أو السماء الفسيحة. كان ثمة سُلما صغيرا صعدت من خلاله والشرطيان يمسانني من ذراعي، حيث أدخلاني إلى غرفة صغيرة بها رجل يجلس في مكتبه، وقد كان في الغرفة مجموعة من الصناديق الصغيرة المترابطة، أدخلاني الغرفة وانصرفا مغلقان الباب من ورائهما، ومن ثمّ قدّم لي الرجل الذي كان يجلس في مكتبه صندوقا صغيرا، وطلب مني أن أضع فيه كل ما أحمله معي، فوضعت هناك الهاتف والمفاتيح، وسلسلة العنق، والخاتم، فضلا عن حافظة النقود التي بها أيضا وثائقي الشخصية، ثم أخذ الصندوق وأعطاني بطاقة كتب عليها الرقم 15، وبعدها طلب مني أن أتفضل معه إلى غرفة مجاورة حيث أمرني بخلع ملابسني

كلها، بينما أخذ يضع في يديه قفازين طبيين، ففعلت ذلك دونما تردد، فطفق يفتش مؤخرتي وتحت خصيتي، وذلك بعدما كان يأمرني برفع يدي عاليا وجلوس القرفصاء أيضا.

انتهى من تفتيشي فارتديت ملابسى، ثم طلب منى أن أتبعه مرة أخرى عبر رواق طويل، وأنا أسير خلفه رأيت العديد من الناس في ذلك الممر، فمنهم من جاؤوا بهم للتو إلى السجن، ومنهم من سيذهبون بهم إلى المحكمة بغية محاكمتهم، وآخرون على وجوههم يرتسم الفرح لأنهم سيفرج عنهم. انعطفنا يسارا ثم دخلنا غرفة بها مكتبان وموظفان طلبا منى الوقوف باستقامة، ثم الالتفات يمينا فيسارا، بينما كنا يلتقطان لي صورا فوتوغرافية. بعد ذلك أخذنا جميع بصمات أصابعي بما في ذلك الإصبع المشوهة، ودوّنا اسمي الكامل وأعطيانى رقم الاعتقال الخاص بي، ثم خرجت أتبع من جديد الرجل الذي فتش جسدي إلى ما يسمونه هناك بجناح الاعتقال. ونحن نسير بخطى سريعة كان يقول لي لا تخف ولا تحزن فكل شيء سيكون على أحسن ما يرام، فأنت بالنسبة إلينا ضيف، وما علينا نحن إلا أن نكرم الضيف ونحسن معاملته. لم أنبس بأي كلمة بينما استمر الرجل يصف لي السجن، ويحاول إقناعي بأن السجن مخالف تماما لتلك الصورة التي يمررونها لنا عبر الأفلام السينمائية. واصلنا المشي عبر رواق كبير، حيث مررنا بمطبخ السجن، والمكان المخصص

للمحامين، وغير ذلك من القاعات حتى وصلنا إلى الباب الحديدي الكبير الذي كان يفصل إدارة السجن عن المساجين. كان بمحاذاة الباب مكتب رئيس المعقل، وموظف آخر يقوم بمهمة فتح الباب وغلقه، وهو الذي سجل اسمي ورقم اعتقالي وأشياء أخرى لست أعرف عنها شيئاً، ثم فتح لنا الباب. وعندما تجاوزنا الباب الحديدي الكبير كان أمامنا مسلكان فقط؛ واحد إلى اليسار، والآخر إلى اليمين، بينما اتجهنا نحن ناحية اليسار ثم انحرفنا يمينا، ثم يسارا، فيمينا، لنسلك بذلك ممرا طويلا وواسعا على يمينه ويساره توجد أبواب الأجنحة، إذ كان ثمة جناحا خاصا بالقاصرين، وجناحا مخصصا للطلبة، ثم جناح العزلة، إلى آخره من الأجنحة.

دخلنا الجناح رقم 11 الذي كان يترأسه رئيس يجلس في مكتبه، إلى جانب مجموعة من الموظفين يحيطون به مثل حرس يحرسه، سلمني له الرجل الذي جاء بي ثم انصرف، فاستقبلني رئيس الجناح بابتسامة فاترة، وطلب مني أن أتفضل معه إلى الزنزانة رقم 5. أدخلني إلى هذه الأخيرة ثم أقفل من ورائي باب الزنزانة ذو القضبان الفولاذية، وغادر إلى حاله. لقد كان في الزنزانة ثلاثة سجناء؛ أستاذ جامعي أشقر متهم بقضية الجنس مقابل النقط ويقول أنه مظلوم، وبرلماني متهم بنهب المال العام، وقائد جماعة قروية سُجن بسبب

أخذة الرشوة وتوقيعه شواهد عدم العمل لأشخاص يعملون في القطاع الخاص أو العام.

استقبلني السجناء جميعهم بصدر رحب، فيما وقفت أنا مشلولا من الدهول بسبب صغر الزنزانة التي لا يكاد يتعدى عرضها وطولها حوالي مترا وثمانين سنتيمترا، والتي كانت تبدو لي شبيهة بقفص صغير به ثلاثة حيوانات مفترسة. كان داخل الزنزانة على يمين الباب مرحاض صغير جدا، إلى جانب مجموعة من الأسرّة بعضها فوق بعض، بيد إن الرجل البرلماني وهو شخص بدين للغاية، كان له سرير واسع في الأسفل، بالموازاة مع الأسرّة الأخرى الصغيرة الموجودة في الأعلى، والتي ينام عليها القائد والأستاذ الجامعي. أعدوا لي سريرا في الأعلى، وأعطوني ملاءة ننتنة الرائحة، وما إن تمددت على السرير من أجل نيل قسط من الراحة حتى شرعوا يسألونني عن سبب اعتقالي، وحينما أجبتهم أنني اغتصبت قاصرا فتح الأستاذ الجامعي نقاشا طويلا عريضا عن كيد النساء وعهرهن، وكيف ينتقم من الرجال الذين لا يدعون لرغباتهن الشيطانية.

-27-

في وقت من الليل، لا أذكر في أي ساعة بالضبط لأنني كنت تحت تأثير النعاس، أيقظني الأستاذ الجامعي من أجل تناول وجبة العشاء معهم، حيث جلسنا نحن الأربعة نتحلّق حول المائدة الصغيرة وسط

الزنزانة، جالسين على حافات الأسرّة، لقد كنت جائعا بما يكفي، وكانت وجبة العشاء الدسمة المكونة من الخضار واللحم، كفيّة بأن تسد رمقى. انتهينا من وجبة العشاء التي لم أساهم في تحضيرها لا من قريب ولا من بعيد، ولكي أكفر عن ذلك، ابتغيت غسل الأواني التي أستعملت في تحضير العشاء لحظئذ، وتوضيها في مكانها المخصص لها، إلا إن السجناء جميعهم رفضوا ذلك، بدعوى أنني لا أزال سجيناً جديداً لم يكمل يومه بعد، فتكفل الأستاذ الجامعي بغسلهم، وعدت أنا إلى سريري لاستكمال نومي.

استيقظت في التاسعة صباحاً، على وقع ضجيج غير معهود نتج عن فتح حراس السجن جميع أبواب الزنازن التي كانت مزاليها تصدر صريحا مزعجا، وقد كان الحارس بعد أن يفتح الزنزانة، يلقي نظرة على السجناء بغية التأكد من عددهم، وذلك استنادا إلى لائحة يحملها في يده عليها أسماء السجناء وأرقامهم، كان الأمر شبيها بتسجيل الحضور في المدارس. وحينما تأكد الحارس من وجودنا نحن الأربعة، غادر وترك باب الزنزانة مشرعا، فلققه بعد ذلك موزع الفطور، يدفع عربة يدوية، وهو أيضا من السجناء، أعطاني كوبا من القهوة، وعلبتين صغيرتين؛ واحدة من مربى المشمش، والأخرى من الزبدة، وخبزة. أما السجناء الذين معي، فلم يأخذوا منه سوى الخبز، لأن مستلزمات الفطور كانت متوفرة لديهم في الزنزانة؛ مثل الشاي

والحليب المعقم، وزيت الزيتون، علاوة على المكسرات، وهكذا
اجتمعنا نحن الأربعة على المائدة الصغيرة، وتناولنا فطورا متنوعا.
وفي حوالي التاسعة والنصف، خرجنا نتسكع في ساحة الجناح، إذ
جلس القائد والبرلماني في ركن مشمس من الساحة، بينما طفقت أنا
والأستاذ الجامعي ندخن ونطوف حول الساحة، متبادلين أطراف
الحديث. كان في الساحة عدد كبير من السجناء اليائسين الذين
يحملون بين أكتافهم شقاء العالم، فمنهم من يمشي منخفض الرأس
وهو حزين، منهم المثلي الذي يبيع جسده مقابل الحماية، منهم من
يبيع الممنوعات في الخفاء، بعضهم يجري ليزيل عن جسمه القذارة
وبعضهم يقعي ليشعل سيجارة، وآخرون محبطون ينتظرون رصاصة
الخلاص.

لقد اعتبرني الأستاذ الجامعي صديقا يمكنه الوثوق به، فشرع يحكي
لي عن تفاصيل حياته، وعن أموره الشخصية، وأنا بدوري كنت
أروي له لحظتئذ تفاصيل مشكلتي. حكيت له عن مولا وعن لمياء،
لكنه ذهل حينما أخبرته بأنني نجحت للتو في مباراة التعليم
وأصبحت أستاذا، أستاذ التحق بالسجن عوض مركز تكوين
الأساتذة، فكان رده مختصرا؛ وهو أنه لا يجب عليّ مطلقا أن أبقى في
السجن، وينبغي أن أفعل المستحيل من أجل الالتحاق بعملية. سألته
عن الحل إذن، فطلب مني أن أعطيه مهلة للتفكير، وفي أثناء

الفسحة المسائية سيخبرني بالحل، سألني أيضا عما إذا كنت أحتاج إلى الاتصال بشخص ما، لأن لديه هاتفاً مخبأً في الزنزانة، أجبته بأنني في حاجة ماسة إلى الهاتف، وسأكون ممتناً له كثيراً إذا أعارني هاتفه، فقال إنه سيزودني به هذه الليلة حينما يكون السجناء يتفرجون على شاشة التلفاز في مباراة الوداد البيضاوي التي ستُعب هذه الليلة في الخامسة والنصف مساءً.

انتهت الاستراحة الصباحية في حوالي الساعة الحادية عشرة، حيث أمرنا حراس السجن بالدخول إلى الزنازن، فدخلنا وأغلقوا الأبواب من خلفنا. وحينما ولجنا زنزانتنا، تكلفت أنا شخصياً بتحضير وجبة الغذاء، فتناولنا غذاءنا المكون من طاجين مغربي بلحم البقر وبضع تفاحات نصفهن خامج، مشكلين كالعادة مائدة من أربعة أفراد، ولما انتهينا استلقى كل واحد في سريره وناموا جميعهم القيلولة، أما أنا فأخذت كتاباً أعطانيه الأستاذ الجامعي، فصعدت إلى سريري وطفقت أقرأ، كان الكتاب لـ ماريو بارغاس بعنوان: من قتل بالومينو مولير، ولا زلت أذكر أنه كان يبتدئ بالعبارة التالية: يا لأبناء أعظم العاهرات. لم أخلد إلى النوم كباقي السجناء الثلاثة، وإنما واصلت قراءة الكتاب بدون تدبر كلماته؛ أفكر في الحل الذي سأسمعه من الأستاذ الجامعي، حتى أتى حارس السجن، وفتح باب زنزانتنا وبقي زنازن الجناح، فأيقظت الأستاذ الجامعي من نومه كي نخرج إلى

الساحة نستنشق بعض الهواء النقي خلال الاستراحة المسائية. فخرجنا معا، فيما ظل السجينان الآخران نائمين، وابتركنا في ركن من الساحة؛ ندخن السجائر. -لقد قلت لي في الصباح إنك ستقدم لي حلا للخروج من ورطتي حالما تصل فترة الاستراحة المسائية، فما هي ذي الفترة المسائية، ولهذا السبب أيقظتك من نومك، فما هو هذا الحل يا ترى؟ -آه يا أنير، لا زلت تحت تأثير النوم، لكن اطمئن، سأخبرك بالحل الآن. قال متثابرا واستطرد: سأقدم لك يا أنير نصيحة من ذهب أتمنى أن تعمل بها. -وما هذه النصيحة؟ قل لي الآن، أنا في الاستماع إليك. -حسنا، بما أنك أصبحت الآن أستاذا، ولم يتبق لك سوى ستة أيام كآخر أجل لدفع وثائق التسجيل في المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، ولمياء حامل منك، وتحبك كما قلت لي في الصباح، ومولا هي الأخرى علمت بحقيقة الأمر، وأضحت تكرهك إثر ذلك، فلم لا تتصل إذن بوالد لمياء و... -وما ذا سأقول له؟ قاطعته. -ستقول له إنك أصبحت أستاذا بالتعليم الثانوي التأهيلي، ومستعد لتعترف بابنك، وتتزوج من لمياء، وتعيشوا معا بسعادة، ومن ثمة فإنه لا شك سيتنازل عن الدعوى. -إنك تطنيز عليّ يا دكتور، إني لا أظنه سيقبل ذلك. -أكيد لن يرفض يا أنير، رجاء لا تكن غبيا، لأنه لا يوجد أب على هذه الأرض اللعينة سيرضى بالعار، وسيقبل بأن يطعن في شرف العائلة من خلال ابنته التي

ستنجب طفلا بطريقة غير شرعية، إن المغرب دولة محافظة يا أنير. -آه محافظة مع كامل الأسف، مُحافضة يا دكتور. كررتُ مُنحني الرأس. -أنا بدوري يا أنير لن أرضى بأن تحمل ابنتي من دون زوج رغم أنني أنحدر من مجتمع متسامح تجاه المرأة. -هل لديك ابنة يا دكتور؟ -طبعا لدي ابنة واسمها زيّوا، وهي ابنتي الصغيرة والوحيدة من بين ثلاثة ذكور، لقد اشتقتُ إليها كثيرا يا أنير، لقد حرموني من ابنتي الغالية بسبب هذا الباطل الذي نزل بي كالصاعقة، أقسم يا أنير أنني لم أفعل شيئا ممنوعا، أقسم أنني دخلت السجن بسبب طالبة كانت مغرمة بي، مغرمة بعيوني الخضراء وشعري الأشقر، وحينما رفضت الإذعان لرغبتها كادت لي وألقت عليّ بهتاناً عظيماً، قالت إنني حاولت اغتصابها واقترحتُ عليها نقطا عالية في الامتحانات مقابل إقامة علاقة جنسية معها، والغريب في ذلك أن عددا كبيرا من زملائها الطلبة شهدوا ضدي انتقاما مني، لأنهم كسالى ولا يتجاوزون في امتحاناتي النقطة خمسة، آه يا أنير كم كنت غيبا حينما حذفتم رسائلها الغرامية! قال وهو يمسح دموعه. -ولمَ حذفتم يا دكتور؟ -حذفتمها كيلا تقرأها زوجتي. -يا لها من قحبة لعينة! قلتُ له وبصقت في الأرض ثم تابعتُ أسأله: ومن أي من منطقة تنحدر يا دكتور؟ -أنا من حي آيت أوخليف بجماعة تونفيت الواقعة تحت سفوح جبال الأطلس الكبير الشرقي الشامخة. -تشرفنا يا دكتور. صافحته وغيرنا

لغة توصلنا إلى الأمازيغية رغم اختلاف اللهجتين. -على أي حال يا أنير إن والد لمياء سيفرح كثيرا بقرارك الشجاع هذا، وسيتنازل عن دعواه، خاصة حينما سيعلم بأنك عدت أستاذًا. -لكن، دعنا نفترض يا.. -سيفاكس، اسمي سيفاكس. -لنفترض يا سيفاكس أنني لم أتصل بوالد لمياء، وبالتالي لم يتنازل عن دعواه، فبكم سنة سأحاكم؟ إنك رجل قانون يا سيفاكس، ولا شك ستجيبني على سؤالى هذا. -حسنا، يجب أن تعلم يا أنير أن الفصل 486 من القانون الجنائي المغربي ينص على أن الاغتصاب جريمة يُعاقب عليها بالسجن من خمس إلى عشر سنوات، أما إذا كان سن الضحية يقل عن ثمان عشرة سنة فإن الجاني يعاقب بالسجن من عشر إلى عشرين سنة. -يا للهول يا سيفاكس! -هذا ما يقوله القانون يا أنير، وما عليك سوى أن تتصل بوالد لمياء كي يتنازل عن دعواه. -وهل يرتبط التنازل عن الدعوى بإجراءات معقدة أو شروط معينة؟ - الأمر بسيط للغاية يا أنير ويخلو من أي تعقيدات، فإذا كانت جريمة الاغتصاب والمتابعة تقوم بناء على شكاية الضحية، فإن التنازل عن الشكاية يضع حدا للمتابعة، ويُحتفظ بملف القضية إذا كان لدى وكيل الملك، حيث يمكن لهذا الأخير أن يقوم بالمتابعة رغم التنازل، وهذا احتمال مستبعد جدا. -وبماذا سأبرر لوالد لمياء جريمة الاغتصاب يا سيفاكس؟ هل سأصارحه بالقول إنني لست من فضّ

بكرة ابنته؟ -إياك أن تفعل يا أنير، لا تزد جرحا على جرح، لديك ما يكفي من الأعداء كما قلت لي في الصباح، فلا تضيف إليهم لمياء كذلك، لأن هذه الأخيرة ستكرهك كثيرا إذا أنت خربت علاقتها بوالديها، وقد يصيبها أمر غير محمود، أو تلقي بنفسها إلى التهلكة، لذا اتبع نصيحة الفيلسوف أرسطو وكن متريثا، لا متهورا، وحافظ على علاقتك الطيبة بلمياء لئلا تخسرهما هي أيضا، انسَ أمر الاغتصاب، حاول فقط أن تتحدث إليه باحترام، وتحري ضبط النفس، أخبره إنك ارتكبت خطأ شنيعا وأنت الآن نادم على ذلك، وتود الاعتذار وتصحيح الخطأ، إنه سيسر بذلك يا أنير، وسيتنازل لا محالة عن دعواه قبل الإعلان عن محاكمتك.

لقد بدت لي نصيحة سيفاكس أنها بالفعل نصيحة ذهبية ستنقذني من ويلات السجن اللعين، لهذا سأعمل بها، ومن هنا قررت أن أتصل في المساء بوالد لمياء، لأن مصلحتي أولى من كل شيء آخر، والدفاع عن المصالح الشخصية يقتضي شيئا من التنازل عن بعض المفاهيم التي نحسبها خطأ أنها مبادئ مطلقة، والحال أنها مفاهيم نسبية مثل الكرامة والحقيقة والأخلاق نفسها، كما إنني لن أترك أمي تعاني بسبب وجودي في السجن، وسأتزوج من جارتى المراهقة، وأحتضن ولدي عندما يخرج إلى هذا العالم القدر، وأخبره أن العيش في هذه

الرقعة الجغرافية ليس بالأمر الهين، كما سأهتم بعملى الذى أحبه من أعماق الفؤاد، وأنقذ أمى من ويلات الفقر.

انتهت الاستراحة المسائية، وشرع الحراس يدخلون السجناء إلى زنازينهم، اشترينا من السجن ما سنحتاجه فى تحضير العشاء، بالإضافة إلى السجائر، ثم دخلنا الزنزانة وقام الحارس مرة أخرى بإلقاء نظرة علينا، ثم أوصد الباب، فشغلنا التلفاز وشرعنا نشاهد كباقي سجناء الجناح مباراة الوداد البيضاءوي، حيث كان السجناء فى كل الزنازين يتفاعلون مع محاولات تسجيل الوداد للأهداف التى كانت تبث فىهم حماسة متأججة. وحينما سجل فريق الوداد هدفا مبكرا فى شباك نادي الزمالك المصري، تعالت هتافاتهم، وكانهم فى مدرجات الملعب، وعندئذ أعطاني سيفاكس الهاتف بعدما أخرجته من تحت السرير، وقال لي أنه يتوجب عليّ أن أدخل المرحاض، وأغلق الباب كي أتحدث بكل ارتياح. لقد كانت لمياء أول شخص اتصلت به بعد أن أغلقت باب المرحاض، لأنني كنت أحفظ رقمها عن ظهر قلب، لم تتعرف إليّ فى البداية، ولما علمت أنني أنير بكت، وقالت إنها خائفة عليّ من ظلمات السجن، بل إنها لا تستطيع النوم كونها تفكر فىّ دائما، وتتساءل إذما كنت بخير أم لا. حاولت أن أطمئنها وأبين لها بأن الحياة فى السجن عادية جدا، لهذا فأنا على أحسن ما يرام ولست أعاني من شيء، أخبرتها بأنني أريد أن أتحدث ضرورة مع

والدها، فترددتُ وبدأت خائفة، ورفضتُ أن تحوّل الهاتف لوالدها شريطة أن أقول لها سبب رغبتى فى الحديث معه. ومتى أكدت لها أنني أريد أن أخبره بقرارى المتعلق بالزواج منها؛ فرحت وخافت فى الوقت نفسه، خافت من أن أقول لوالدها إنها كانت على علاقة بشخص يسمى إلياس، بيد أنني طمأنتها بعدم البوح بذلك السر المنسى، فحولتُ أخيراً الهاتف إلى والدها، وتحدثتُ إليه مخبراً إياه بأننى قررت الاعتراف بابنى، وبالزواج من ابنته، وأننى أصبحت أستاذة، ويجب أن التحق بمركز تكوين الأساتذة قبل نهاية الأجل، كما أنني سأسكن بمعية زوجتى فى إحدى القيلات التى يملكها صديق لى بمدينة مراكش ريثما أحصل على التعيين بمقر عملى، فأجابنى أنه يعلم أنني صرت أستاذة، ويريدنى أن أتزوج من ابنته وهذا أمر لا ريب فيه، غير إنه تعمد إدخالى السجن كي أشعر بذنبى، وبعمق الجرح الذى تسببت فيه له، ولكافة عائلته على حد قوله، قال لى إننى طعنته فى شرفه، واستغللت ضعف ابنته القاصر وطيش عقلها بسبب سن المراهقة، فقدمت له اعتذارى الشديد، كما تحدثت مع زوجته معتذراً منها هى الأخرى، دون أن أتلقى منها تنديداً أو صححات. وقال لى فى الأخير إنهما فى الغد سيتنازلان لى عن الدعوى، وسيتم الإفراج عني كي أتهيأ للزواج من لمياء، وحوّلاً فى النهاية الهاتف لللمياء حيث أنهيت المكالمة بالقول: -لمياء اسمعيني جيداً، عندما سأخرج من هنا سأزوجك

وسنسكن معا بشكل مؤقت في إحدى القيلات بمدينة مراكش الجميلة، فاستعدي لذلك. -حسنا كوتشو ساكون مستعدة، أحبك. لقد آتت نصيحة سيفاكس أكلها وبلغتُ بذلك مسعاى الأخير، وهو التخلص من غياهب السجن ومعانقة الحرية الملازمة للمسؤولية، والتخلص في نفس الوقت من الشعور بالذنب. أغلقتُ الخط وحوّلتُ الاتصال إلى صديقي رشيد الذي قتلت شقيقه، وسألته عن مستجدات تحريات الشرطة حول البحث عن القاتل، وهل عثروا على المجرم، فأجابني يثقل عليه الحزن والهم بأن الشرطة عثرت من خلال البصمات، على المجرم الذي قتل شقيقه ميتا بطعنة في قلبه، وملقى في شاطئ سيدي رحال، منتفخا بالماء بعدما لفظه البحر. قال لي إنهم في حيرة من أمرهم تجاه هذا اللغز الذي لم تستطع الشرطة تحليله، مكتفية بالقول إن الأمر يتعلق بعصابة إجرامية هي التي قتلت أخاه. قال ذلك وودعني. وعلى إثر ذلك انفرج همي قليلا تجاه هذا الإعضال، إذ أدركت جيدا أنه الرجل الذي التقيته في مكبّ النفايات، والذي ترك بصماته على عبوة البيبسي.

كان كمال آخر من اتصلت به في تلك الليلة، فشرع يصرخ في وجهي ويلومني على عدم الرد على مكالماته، وقد بررت له ذلك بانعدام شبكة التغطية في بلدتنا الجبلية. حاولت أن أمتص غضبه بالحديث عن مباراة الوداد الرياضي، وتقدم الفريق في النتيجة، لأنه مشجع

وفي نادي الوداد الرياضي، إلا إن محاولتي لإخماد غضبه باءت بالفشل حينما قال لي بأنه لا يشاهد الآن المباراة، وغير مكترث لأمر الوداد، فكيف ستحلوا له الفرجة وزميلته في الفصل وُجدت مشنوقة بحبل. -على رسلك يا كمال، عن أي زميلة تتحدث؟ سألته مندهشا فكان رده: -ألم تعلم يا أنير؟ لقد انتحرت مولا؛ عثروا عليها مشنوقة بحبل، ومعلقة بشجرة زيتون قرب مؤسسة العراقي. عندئذ سقط الهاتف من يديّ قبل إغلاق الخط، وتحول جسدي إلى ما يشبه الرميم بفعل عمق الصدمة، كدت أنا الآخر أن أسقط مستندا إلى جدران المرحاض، إلى أن سقطت ببطء فاغرا فمي، ومذهولا بسبب هذا الخبر الحزين جدا، الذي خلّف لدي انطبعا بأني بدأتُ أشيخ في تلك اللحظة، حيث أحسست بقشعريرة في جسدي كمن يغطس أول مرة في ماء بارد، وشعرت أنني تماديت كثيرا في ذنوبي. لقد أثقل عليّ في تلك اللحظة بالذات شعور بالذنب العظيم، لأن اعترافي بذلك الخطأ العابر هو المسؤول عن تلك الميته المؤلمة، وأدركت حينها أن الاعتراف بالخطأ قد يكون قاتلا، وبالتالي فإن دروب الحياة الوعرة، تتطلب منا أن نُبقي على أخطائنا في الماضي قيد الكتمان، إذما أردنا أن نسلك هذه الدروب بنجاح.

خرجت من المرحاض يعذبني إخفاق طموحاتي الذريع، وحياتي التي انقلبت رأسا على عقب، أعطيتُ الهاتف لسيفاكس وشكرت له

فضله، ثم صعدت إلى سريري وتدثرت بالملاءة وشرعت أبكي وقتاً طويلاً، بينما كان السجناء يحسبونني نائماً، وعندما دعونني لتناول العشاء، قلت لهم إنني لا أشعر بالجوع، وتدثرت من جديد مواصلاً البكاء اللاإرادي يراودني طيف الماضي، ماضي مولا المفعم بالحب، هذا الأخير الذي تحول إلى هبات قلق وكآبة. وحينما نام السجناء جميعاً في ليلة القلق تلك، استسلمت أنا لجائحة الأرق وبت واقفاً أمام باب الزنزانة وقفة تأمل، ممدداً يدي اليسرى خارج القضبان، بينما أذخن باليمنى، كنت غارقاً في أفكارى وأحزاني، يستبيحني الشعور بالذنب. وفي الهزع الأخير من الليل، خبت جذوتي والتأم جرحي، فتشبثتُ بقراري؛ ألا وهو الزواج من لمياء مهما كانت الظروف، والعيش بجانبها في فيلا جاد مؤقتاً. لقد ماتت الآن مولا وصارت من العدم، أما جارتى المراهقة فلا تزال تنتمي إلى هذا الوجود، وقد شاءت الأقدار أن تكون حبي الأخير بدل أن تموت وتُقطع على يدي، إنها الآن حياتي وعمري، فهي الآن كل شيء بالنسبة إليّ، هي العجلة والشراع، والسفينة والبحر والمجداف، وسحقاً للعالم أجمع، فليس يهمني أمر مولا، ولتذهب هي وكمال وغيرهما إلى الجحيم، ليمت من يمت، وليعيش من يعيش فذلك لن يثنيني عن عزمي.

-28-

تنازل السيد حميد صبري والد لمياء عن دعواه القاضية بأنني اغتصبت ابنته، وتم بموجب ذلك الإفراج عني. اشترت باقة ورود وذهبت إلى منزل لمياء في حي مولاي رشيد، فرحب بي السيد حميد وزوجه السيدة صوفيا الأندلسي، إلى جانب ابنيهما لمياء وأدم أحسن ترحيب. تحدثنا عن مسألة الزواج من لمياء، حيث اقترحت عليهم الاكتفاء بإمضاء عقد القران بحسبانه وثيقة رسمية سنعتبر من خلالها أننا زوجان بموجب القانون، ولا داعي إلى إقامة عرس قد يكون مكلفا من الناحية المادية. إلا إن السيد حميد اعترض على اقتراحي هذا مؤكدا أن لمياء هي ابنته البكر وهي عنده بمثابة الشمس للعالم، وبهذا قرر أن يقيم لابنته عرسا باذخا في قاعة أفراح متنقلة تكون في وسط الحي، غير عابئ باختفاء ابنة أخيه ندى، ولا بمشاعر أخيه نفسه الذي تفر قلبه إثر هذا الاختفاء الأليم. كما قررت زوجته صوفيا أن تستدعي جميع الجيران الذين كانوا يقولون أن لمياء جلبت العار إلى الحومة، ليعلموا جيدا أن الفتاة التي جلبت العار على حد زعمهم هي نفسها التي تزوجت من الرجل الذي تحبه ويحبها؛ وهو الأستاذ أنير أزناگ، ابن الجبال الشامخة للأطلس الكبير الغربي. اتفقنا جميعا على أن حفل الزفاف سيقام بعد شهر، كما قرر السيد حميد أنه سيتكفل بشكل كلي بنفقة زفاف ابنته، ولكن قبل ذلك

يتوجب عليّ كما قالت لي السيدة صوفيا، أن أسافر في الغد إلى بلدتي كي أعلم أمي بالأمر، وأحضر الوثائق التي سأحتاجها في توثيق عقد القران، خاصة شهادة العزوبة التي تثبت أنني لست متزوجا من امرأة أخرى، وفي نفس الوقت أضع ملف التسجيل الخاص بي في المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بمراكش، أما المهر فينبغي أن يكون على قدر الاستطاعة، بحسب قول لمياء نفسها، وهو ما أكده والداها. وبعدها تناولنا وجبة الغداء، استأذنتهم في الخروج إلى المقهى، وأخبرتهم بأنني سأعود في المساء، ولما خرجت اتصلتُ برشيد الذي كان في إجازة بسبب ما حل بشقيقه، أخبرته أنني أمام كلية ابن مسيك؛ وقد جئت إلى كازابلانكا لأخذ بعض الوثائق من الكلية، فسألني هل نجحت في ذلك الاختبار المتعلق بمكتبة آل سعود فكان جوابي أنني لم أنجح.

بعد نصف ساعة من الانتظار جاء رشيد؛ وقد صار نحيفا للغاية، ثم نقلني بسيارته إلى مقهى ليبيرتا بشارع سقراط، حيث طلبت قهوة سوداء، فيما طلب هو حليبا ساخنا باللوزة. - أين وثائقك يا أنير؟ هل نسيتهما في السيارة؟ - أيُّ وثائق؟ - الوثائق التي قلت لي إنك جئت لتأخذها من الكلية؟ - آه، لم أخذها بعد، لقد ذهب الموظفون لتناول وجبة الغداء، لذا طلب مني بواب الكلية أن أرجع في المساء. - جيد، إذن سأقلُّك بالسيارة إلى هناك حينما سأكون متجها إلى الحي

المحمدي. - شكرالك رشيد. - يؤسفني جدا أنك لم تنجح في الاختبار. - عن أي اختبار تتحدث يا رشيد؟ - الاختبار الذي أجريت في مكتبة آل سعود، هل نسيت بهذه السرعة؟ - آه، آه تذكرت للتو. تلعثمت وتابعت أقول: لا تشغل بالك يا رشيد، تلك سنة الحياة، نخفق في اختبار، ونجح في آخر. - طبعا أنير، الحياة كلها اختبارات، لذا أتمنى لك التوفيق في قادم الفرص. - لقد أصبحت نحيفا جدا يا رشيد. - أتعلم يا أنير، لقد جافاني النوم منذ مقتل شقيقي، ولم يعد بمقدوري التفكير في أي شيء آخر غير رمزي، كما إن شهية الأكل لدي تناقصت كثيرا وأصبحت كثير الإدمان على الكحول، زد على ذلك أن مسألة الموت المحيرة باتت تؤرقني كثيرا، إذ صرت خائفا جدا من الموت بعد أن رأيت جثمان رمزي. - رشيد، ضغطت على يده وتابعت أقول: أنا في غاية الأسف، أعجز عن تخيل ما قد تشعر به، إنه حقا لشيء يحز في النفس أن يموت شاب طيب في ذلك العمر، كل التعازي القلبية صديقي، ولترقد روح رمزي في سلام.

خفض رشيد رأسه، واضعا كفيه على خديه والدموع تنزل من عينيه، لم أعد قادرا على البقاء جالسا، فنهضت واتجهت نحو النافذة، مررت إصبعي حول ياقة قميصي لأفكها وأشعلت سيجارة، كنت أنظر إلى شارع سقراط حيث كان ثمة شجيرات عارية من الأوراق ترتعش في الريح. - أنير هل تخاف من الموت؟ - ولم تسأل يا رشيد؟

قلت من دون أن ألتفت. فكان رده وهو يمسح دموعه: إننى خائف يا أنير من أن تقتلنى العصابة الإجرامية التى قتلت رمزى من أجل الانتقام لأننى تابعتهم لدى الشرطة. مجَّتُ نفساً طويلاً من سيجارتى مثيراً سحابة زرقاء من الدخان انتظرتها حتى تلاشت ثم قلت من فوق كتفى: -لا يا رشيد، أنا لست خائفاً من الموت. -ولماذا لست خائفاً؟ -لأننى كلما تذكرت الموت تذكرت معه حكمة لوكريتيوس التى تقول: "حيث أكون، لا يكون الموت، وحيث يكون الموت، لا أكون أنا." -يا إلهى إنها حكمة منطقية للغاية تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الفلسفة مفيدة للحياة؛ لأنها استطاعت على الأقل أن تُحجِّم خوفك من الموت. قال ذلك مبتسماً وأردف: لكن ما رأيك فى الجنة وجهنم، هل تعتقد بوجودهما؟ فأجبتة: فى الحقيقة لا أؤمن بهما، ولا أظن أن ثمة جنة أو ناراً؛ هذه مجرد إسقاطات دنيوية على عالم أنتجته المخيلة البشرية، لأن أصل كلمة جَهَنَّم يعود إلى التاريخ المصرى القديم، حيث ظهرت كلمة جَهَنَّم بالنقوش المصرية القديمة بهذه الصيغة. جلستُ إلى الطاولة وأخرجتُ من جيب قميصى مفكرتى وقلمى، وأخذت أوضح له عن طريق الرسومات. - أنظر يا رشيد هكذا تنطق كلمة جهنم المصرية (ش - إن - أمو). كتبتُ له الكلمة المصرية بحروف عربية ونطقها بتأني. لكن يجب ألا ننسى أنها تكتب مع رمز النار هذا. -وماذا تعنى هذه الكلمة فى

اشتقاقها اللغوي المصري القديم؟ -إنها تعني بحر أو بحيرة النار، وتوجد لديهم في عالم ما بعد الموت الذي يسمونه دوات. وهذا رسم الكلمة المصرية، أنظر يا رشيد كيف سأرسمها على الورقة رغم أنني لا أجيد رسم الطيور ههه:



- يا إلهي! عجيب جدا. فغر رشيد فاهه. وضعت المفكرة جانبا وتابعت أوضح له: -من المعروف يا رشيد أن جَهَنَّمَ لدى المسلمين لها درك أسفل، والدرك في اللغة العربية هو القعر الأقصى للبحر أو البحيرة وأضراب ذلك، حيث جاء في لسان العرب: "والدَّرْكُ والدَّرْكُ: أَقْصَى قَعْرِ الشَّيْءِ.. كَالْبَحْرِ وَنَحْوِهِ." كما يجب أن ننتبه يا رشيد إلى أن كلمة جَهَنَّمَ في ديانات الشرق الأوسط القديم دائما ما تتخذ شكل شيء له عمق، وبالتالي له درك أو قعر. ففي الديانة اليهودية التي لحقت الديانة المصرية القديمة والتي كانت مجاورة لها بشكل كبير، نجد أن جهنم تحيل إلى واد عميق في أورشليم اسمه بالعبرية جي-هنم ג'הנום كما ورد في سفر يشوع، ومعناها وادي هنوم، وهنوم اسم

لرجل؛ أي وادي هنوم الذي يقع شرقي أسوار المدينة القديمة لأورشليم، وكان يسمى قديما وادي الموت، حيث كان اليهود يلقون فيه الأزبال، وجثث الموتى من المجرمين. كما أنه كان محرقة للأطفال الذين يقدمون كقرايين للإله مولوخ الكنعاني في عهد ملوك إسرائيل القدامى، وبالتالي فقد كان مكانا للنار التي يُحرق بها الأطفال، إنه مكان ذو ضباب ودخان، ورائحة نتنة. -يا لغرابة هذه المعلومات يا أنير! إني أخشى أن ينطبق الأمر نفسه على جنة عدن أيضا. -بحسب معرفتي المتواضعة باللغة والأدب العبريين فإنّ عدن كلمة عبرية تعني بهجة، وتدل على أرض خصبة بها حدائق وأنهار. -وأين كانت تقع هذه الأرض الخصبة يا أنير؟ -أظنها كانت في القسم الجنوبي من العراق حيث الماء والزرع، وهي سهل بابل الذي كان يسمى في العصر القديم باسم عدنو. -يا إلهي كم هو عظيم تاريخ اليهود! -بالطبع يا رشيد، إنه تاريخ موغل في القدم، على أي حال فجهنم وجنة عدن مكانان واقعيان ينتميان إلى الأرض وثم إسقاطهما على عالم ماورائي مع الاحتفاظ بنفس اللغة البشرية الأرضية، ففي اعتقادي يا رشيد أن ما يوجد بعد الموت هو الظلام، وهو نفسه الظلام الذي يكون قبل ولادتنا، إلا إننا انشغلنا بظلام البعد وتجاهلنا ظلام القبّل، لأن الزمن يسير في اتجاه خطي مستقيم ولا يرجع إلى الوراء، إنه الزمن نفسه المسؤول عن فساد واضمحلال وموت كل الكائنات، ومن ثمة أرى أن

الموت مسألة فيزيائية طبيعية جدا. وأنت ما رأيك يا رشيد؟ أطرق مفكرا لبرهة ثم رفع رأسه وقال: -لا أخفيك سرا أنني لا أؤمن بوجود إله أصلا، وأرى أن الضمير أو العقل هو المشرع الحقيقي للأخلاق، إذ لا يهم أن تكون متدينا، ولكن، من المهم أن تكون إنسانيا، وخلقوا، ترفع شعار التحرر، وتنصت لصوت الوعي الأخلاقي النابع من الإرادة الخيرة والحرية، التي لا تخضع لسلطة خارجية أو مصلحة معينة. لن يخسر الإنسان شيئا إذا اعتقد بوجود إله يا أنير، ولا أظنه سيبدل جهدا كبيرا إثر إيمانه، لكن، إذا كان إيمانه سيصنع منه شخصا غير متسامح؛ سواء تجاه المرأة، أو تجاه الناس الذين هم على غير دينه، فهذا إضرار كبير. -صحيح يا رشيد إنه ليتوجب على الشخص أن يعتنق الإنسانية أولا، ثم يعتنق ما شاء من الأديان. -هذا بالضبط يا أنير.

انزلقنا إلى الصمت، ثم قلت لرشيد إنه يتوجب عليّ أن أذهب إلى حي مولاي رشيد قبل أن أتأخر، فحملني بسيارته إلى هنالك، ومن ثم غادر إلى منزله في الحي المحمدي. وفي العاشرة ليلا سافرت إلى بلدي على الرغم من إن لمياء ووالديها قد ألحوا عليّ بالبقاء إلى غاية الغد على الأقل، بيد أنني كنت مستعجلا جدا بسبب الوثائق الخاصة بالتسجيل في مركز تكوين الأساتذة، والتي ينبغي عليّ تحضيرها قبل نهاية الأجل المحدد لذلك، ويتعلق الأمر بنسخ أصلية من عقد

الازدياد، وتوقيع التزام معين، فضلا عن شهادة الإجازة الأصلية ووثائق أخرى. وفي طريقي إلى بلدي اتصلتُ بجاد الذي كان في ذلك الوقت بمعية زوجته أنجلينا في البار، أخبرته أنني أُحضر هذه الأيام للزواج، وسأعود عما قريب إلى القيلا رفقة زوجتي إذا أذن لي بذلك، فهنأني وتمنى لي زواجا سعيدا، مؤكدا على أن عودتي إلى القيلا بمعية زوجتي لا تشكل له أدنى مشكلة على الإطلاق، وهو الذي سبق أن اقترح عليّ هذه الفكرة.

وصلت إلى قريتنا الباردة في أعالي جبال الأطلس الكبير الغربي، فتحت لي أمي أريناس الباب ثم عانقتني عناقا حارا وهي تبكي من كثرة ما اشتاقت إليّ. لم تكن أمي تعرف أنني وضعت قدمي في السجن، غير إنها كانت على دراية بمسألة الاغتصاب المزعوم، وحاولت أن تتأكد من صحة هذه الدعوى في الوقت الذي كنت أتناول بمعيتهما فطورا أمازيغيا، مغربيا أصيلا، طالما اشتهيته، وهو المكون من زيت الأركان وأملو الرائع، وحساء الشعير الممزوج بحليب الماعز، وجوز جبال الأطلس الكبير، فضلا عن زبدة الماعز التي كانت تحصل عليها من عند جدتي عكو باروخ وهي والدة أمي أريناس. لم أجب في تلك اللحظة على سؤال أمي المتعلق بقضية الاغتصاب، وانتظرت حتى استيقظ أشقائي الصغار بعد ساعة، فقدمت لهم هداياهم البسيطة التي فرحوا بها فرحا لا يصفاه له، خاصة أنهم اشتاقوا إليّ

كثيرا، ثم أخبرت أمى وبحضور جميع إخوتى أنى أصبحت أستاذة للتعليم الثانوى التأهيلي بمراكش، وإنى سأعتنى بهم جميعا. فزغردت أمى وعانقتنى من شدة الفرح، ثم انتظرت حتى هدؤوا من فرحة الخبر الأول لأعلمهم بعد ذلك بالخبر الثانى، والذي مفاده أنى سأتزوج هذه الأيام من فتاة جميلة وطيبة، اسمها لمياء وأن عرسنا سيكون بعد شهر واحد فقط، ويسعدنى أن أرى أشقائى وأمى وجدتى عكو سعداء بزواجى.

لقد سر إخوتى كثيرا بهذا الخبر الأخير أيضا، غير إن أمى تجهم وجهها وسرعان ما اعترضت مستغربة من هذا الاستعجال الذي اعتبرته تسرعا وتهورا لاعقلانيا، لأنى لا أزال شابا صغيرا على حد قولها. وفي هذه اللحظة بالذات، خشيت أن يكون الخبر صادما بالنسبة إليها ويؤثر بالتالى على صحتها كونها تعاني من مرض فى القلب، لكن عندما أجبتها أخيرا على سؤالها السابق معترفا لها بأنى حقا ضاجعت لمياء وبرضا منها، وأى ذلك أننا نحب بعضنا البعض وهى الآن حبلى بابنى وإذا ما أنا رفضتُ الزواج منها والاعتراف بابنى فإن مصيرى السجن بتهمة اغتصاب قاصر، وبالتالى ضياع وظيفتى ومستقبلى ككل ولا مندوحة عن ذلك. هنا وافقت أمى على مسألة الزواج وباركت لى ذلك متمنية لى السعادة الأبدية، والذرية الصالحة، كما أنها قررت أن تسافر معى بعد يومين إلى كازابلانكا لإمضاء عقد القران والتعرف

على زوجتي وعائلتها. وفي المساء جاءت جدتي وأخوالي بمعية زوجاتهم حيث يقطنون القرية نفسها، وقدموا لي التهانى جميعا وجمعاعات بمناسبة حصولي على الوظيفة، كما قدموا لي التبريكات أيضا بمناسبة الخطوبة. وقد قرر خالي إيدير وهو أستاذ للغة العربية بدولة الإمارات أن يستغل عطلته تلك ويحضر معنا إلى حفل توثيق عقد القران، وأنه هو من سيتكلف شخصيا بتسديد المال المخصص للمهر. ووعدني كذلك بأنه سيطلب الشهر المقبل إجازة قصيرة لحضور حفل الزفاف، وسيتكلف بنقل العروس بسيارته ليلة الزفاف من كازابلانكا إلى مراكش حيث سأعمل أستاذا متدربا، وسيشتري لي كل ضروريات الأثاث المنزلي.

-29-

في صباح اليوم الموالي ذهبت إلى المركز الإداري لجماعتنا القروية، وطلبت من موظفي مكتب الحالة المدنية أن يزودوني بنسخ أصلية من عقد الازدياد، ونسخة من رسم الولادة، ووثيقة أخرى تثبت أنني أعزب موقعة ومصادق عليها، غير إن الموظفين رفضوا تسليمي هذه الأخيرة، مؤكدين على ضرورة إحضار شاهدين يشهدان لي عبر إمضائهما بأني رجل أعزب، مع الإدلاء بنسخة من بطاقتيهما الوطنية. ولأن منزلنا كان بعيدا جدا من جماعة إغرم نُوكْدَال ولم أستطع إحضار أمي وجدتي عكو مثلا للإدلاء بشهادتهما، فإن أحد

الموظفين هناك لحق بي إلى خارج المركز حيث كنت أود أن أهاتف أمي، فسألني عن عمري، ولما أجبته اقترح عليّ أن أمنحه مائتي درهم فيشهد بأنني لست متزوجا، فوافقت على ذلك، وهو نفس المبلغ الذي أعطيته أيضا لحارس الدراجات خارج المركز الإداري للقيام بنفس المهمة، وقد أمضيا كلاهما بأنني لست متزوجا، رغم عدم معرفتهما بي على الإطلاق. ومن ثمة استلمت شهادة العزوبة بإمضاء من رئيس الجماعة، لأتوجه بعد ذلك إلى عيادة طبية متواضعة جدا بغية الحصول على شهادة طبية تثبت سلامتي الجسدية والنفسية، وقد حصلت عليها في دقيقتين فقط بعدما سألتني الطبيب سؤاليين سخيفين.

اتصلت بصهري حميد، وأخبرته بأن الوثائق المتعلقة بعقد القران باتت جاهزة، وأنا سنأتي إلى كازابلانكا خلال يومين. بيد إنه وضح لي أمرا لم أضرب له حسابا؛ وهو أنه يلزمنا أولا دفع هذه الوثائق إلى جانب الوثائق الخاصة بلمياء إلى مكتب العدول ثم ننتظر موافقة القاضي، وقد يدوم هذا الانتظار أسبوعا كي يتحقق القاضي عبر اطلاعه على وثائقنا التي ستكون واحدة من بين عشرات الوثائق التي يتوصل بها عبر العدول من المخطوبين، سيتحقق من بلوغنا السن القانوني للزواج، ومن سلامة صحتنا العقلية والجسدية التي ستسمح لنا بتوقيع عقد القران. وبالتالي فقد أرسلت له الوثائق عبر

الحافلة التي تتجه إلى كازابلانكا كي يدفعها إلى مكتب العدول، ثم شرحت لأمي الأمر كفاية وفي اليوم الموالي جمعت أغراضي وسافرت إلى مدينة مراكش.

نزلت من الحافلة وأشعلت سيجارة، بينما أتأبط ملف وثائق التسجيل، وأحمل في ظهري حقيبة ملابسى، كان الجو في مراكش مشمسا، والشوارع تنغل بالحياة. وما إن خطوت بضع خطوات، حتى تراءى لي طيف مولا، كانت تسير بجنبى في الشارع وتقول: "إن أعظم سجن ستدخل إليه يا أنير هو سجن الزواج، والفرق بين هذا السجن والسجن ذو الأسوار والحراس؛ هو أن هذا الأخير تدخله غصبا عن إرادتك، بينما الأول تدخله بمحض إرادتك، وتمشي إليه بنفسك مسلّم الروح والجسد، والأمر شبيه برجل غبي لم يقارف أي جرم ومع ذلك يذهب عند الشرطة ويطلب منهم أن يدخلوه إلى السجن مدى الحياة، هذا هو الزواج يا أنير ومع ذلك فإننى تزوجت." كانت تقول ذلك وهي تسير بجنبى، فيما أنا منحني رأسى، أدخن سيجارة بعد أخرى، ثم اختفت.

وضعت ملف التسجيل في إدارة المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين مقابل وصل الإيداع، ثم اتصلت بجاد الذي لم يكن حينذاك في مدينة مراكش، فذهبت إلى الثيلا وسقيت حديقتهما التي لولا زيارة جاد إلى الثيلا مدة غيابى وسقيه للحديقة بنفسه، لذهبت خضرتها

وصارت هشيما تذروه الرياح، كما رتبت ما يتوجب علي ترتيبه، ثم استلقيت في سريري بغية نيل قسط من الراحة استعدادا لمباشرة التكوين في صباح اليوم الموالي؛ حيث ستكون لدي أول حصّة رسمية في مركز التدريب. وبعد أسبوع من التكوين المرهق الذي كانت تتوزع حصصه إلى صباحية ومساءلية؛ جاء الخال إيدير بسيارته نيسان/إن في 200 إلى مراکش خلال صباح باكر، تجلس بجانبه جدتي عكّو، وفي الخلف تجلس أمي أريناس، وزوجة خالي إيناس، وابنتيهما التوأمين سيليا وساليسيا وأشقائي، زد على ذلك جهاز العروس المرتب بعناية في صندوق السيارة.

ركبت معهم وتوجهنا إلى كازابلانكا لإمضاء عقد القران، حيث وصلنا في العاشرة صباحا، كان بيت لمياء يغص بأفراد عائلتها الكبيرة، ويصيح بالزغاريد والفرح، وعلى عتبة المنزل كانت تطفو رائحة ذكريات مليئة بالخطيئة. ونحن ندخل المنزل؛ توقفت لحظة أنظر إلى الغرفة التي كنت أعيش فيها في الطابق الأرضي، كانت الغرفة موصدة، وعلى بابها بقايا ضئيلة وغير مفهومة من العبارة التالية التي كتبها لمياء سابقا بأحمر الشفاه: *أيها القدر، قُلْ لِمَوْلَا أَنْ حبيبها يوماً ما سيفدو زوجي أنا! والآن، ها هو ذا القدر يستجيب لجارتي المراهقة.* وحينما كنا نصعد الدرج؛ لاحظت وجود الكوة التي وضعتُ فيها لمياء الهاتف، حيث سجلتُ علاقتنا الحميمة، ووقفتُ أنظر إلى الكوة في

دقيقة تأمل واضعا يدي على الدرازين مُعَبَّس الوجه. على أي حال، لم نجد لمياء في البيت، إذ كانت لا تزال في صالون التجميل، وحينما انتهت اتصلت بي، فأخذت سيارة إيدير وذهبت إليها بمعية والدتي وصوفيا. كانت ترتدي فستانا رائعا باللون الرملي، ويديها الجميلتان مزينتان بنقش الحناء، ومثقلة بأساور مغربية زادتها جمالا. أزحت الغطاء على وجهها فكانت جميلة جمالا أخاذا، تبدو مثل هيلين طروادة، فقبلتها في فمها أمام أنظار الجميع، مكسرا بذلك طابوهاً كبيراً وسط مجتمع محافظ. استغربت لمياء من تلك القبلة المتمردة، حيث لم يطاوعها قلبها على فعل ذلك، فخفضت بصرها من شدة الخجل، كما كانت تُقْفَفُ من الخوف الممزوج بالفرح، وغطيط تنفسها يتعالى. أخذت بيدها وأجلستها بجنبي، ثم توجهنا جميعا إلى المنزل حيث استقبلتنا العوائل بالزغاريد ونثر بتلات الورد.

حضر العدول بعد نصف ساعة، في شخص رجلين كهلين ضليعين بعلوم القانون والدين، ووثقا زواجنا، ثم طلب إمضاءاتنا. ومن ثم أُعتبرنا رسميا كزوج وزوجة بموجب القانون، ومن دون أية شروط، لا من قبل لمياء ولا من قبلي، في جو عائلي يطبعه الفرح والحبور، والابتسامة والتهاني الطيبة. وعلى الرغم من أن لمياء أوضحت الآن زوجتي الشرعية، إلا إنها ستمكث في منزلها إلى أن يقام العرس بعد شهر، آنذاك يمكنني أن أصطحبها معي طبقا للأعراف والتقاليد

المغربية، رغم إن هذه التقاليد تختلف من منطقة مغربية إلى أخرى. وفي صباح الغد، عادت عائلتى إلى القرية، بينما نزلت أنا في مدينة مراكش بحسبانها منتصف الطريق بين كازابلانكا وبلدتنا، واستأنفتُ تكويني.

بعد شهر:

خلال هذا الشهر، وقبل حفل الزفاف، برز حادثان مفاجآن كانا بمثابة صدمة بالنسبة إليّ، فقد تبين غيبّ هذا الشهر الذي أحب أن أسميه شهر الصدمات؛ أن إقدام مولا على الانتحار هو محض افتراء وإشاعة مغرضة، فقد اتصل بي كمال وأخبرني أن مولا لا تزال على قيد الحياة، فالفتاة التي عُثر عليها مشنوقة بحبل، ومعلقة على شجرة زيتون، لم تكن مولا، وإنما هي طالبة تنحدر من مدينة السّمارة في الصحراء المغربية، وتعيش في الحي الجامعي بمراكش، غير إنها كانت تعاني من اكتئاب حاد منذ الوقت الذي مات فيه والداها وشقيقها في حادث مروع بمنعرجات بُويزْكَارَن جنوب المملكة المغربية، وقد نجت هي لوحدها بأعجوبة من تلك السيارة التي هوت في الأخير إلى سفح الجبل. لكن لحظة انتحار هذه الفتاة المسماة قيد حياتها السّالكة والتي كانت تتابع دراستها بكلية العلوم الواقعة بعيدا عن كلية الآداب، غابت مولا عن الأنظار غيابا غير مسبوق، اختفت من الجامعة ومن مراكش بشكل عام قبل الحادث بأيام قليلة، وهي

الأيام التي غيرت فيها رقم هاتفها، مما جعل أصدقاءها يحاولون ربط الاتصال بها، لكن من دون جدوى. وفي هذا الشهر الذي سبق حفل الزفاف، اتصلت مولا بكمال من مدينة بوينوس آيريس الأرجنتينية من خلال رقمها الجديد الذي بدا له أجنبيا يبتدىء بالرقم +54، أخبرها أنه كان يظنها انتحرت، إلا إنها سخرت منه على حد قوله، وأصدرت ضحكات صاخبة وساخرة، مؤكدة له أنه لا يوجد أي سبب سيدفعها للانتحار، وحتى إن وجد سبب ما، فإنها لا يمكنها مطلقاً أن تفكر في الانتحار مهما بدا هذا الأخير موضوعياً، بل بالعكس فهي الآن كما قالت لكمال تعيش حياة سعيدة بمعية زوجها في بلاد التانغو. استغرب كمال مما قالته مولا، ولم يستطع تصديق ذلك، بيد إنها واصلت التواصل معه عبر الواتساب، وأرسلت له صوراً رأيتهم بنفسى؛ حيث كانت بمعية زوجها؛ وهو ابن خالتها، صحراوي صرف من مدينة الداخلة يقيم في الأرجنتين منذ مدة طويلة، ويعمل مديراً في شركة لصنع الأحذية بشراكة مع مستثمر إيطالي، الأمر الصادم هنا والذي لم يستوعبه دماغى هو أن مولا كانت تتواعد مع ابن خالتها هذا، وتتبادل معه الحب في الفترة التي كنت أنا أيضاً حبيبها كما كانت تدعى، كما كانا يخططان أيضاً للزواج. وقد بررت ذلك لكمال من خلال تسجيلات صوتية عبر واتساب، سمعتها بنفسى تقول إنها كانت حقاً تحبني، لكنها في نفس الوقت كانت خائفة على

مستقبلها وتود حياة أفضل، قوامها الرفاه ورغد العيش، وفي نفس الوقت ظلت غير واثقة من ابن خالتها الذي يكبرها بخمس عشرة سنة، لأنه لم يزر المملكة المغربية لمدة طويلة، ومن ثم فقد وضعتني أنا في منصة الاحتياط داخل قلبها لئلا يخلف ابن خالتها وعده، فتجدني بديلا له. أكدت لكمال أيضا أنها رغم تواصلها السري مع ابن خالتها هذا، إلا إنها لم تكن تحبه، وكانت تحبني أنا. اعترفت أن سيارته من نوع *ألفا روميو ستيلثيو* كانت تغريها، وكذا الثيلا التي يعيش فيها، وما إن علمت بخيانتني حتى استسلمت لمغرياته، ولم تتردد في أن تصبح زوجة له، حيث تزامن ذلك مع زيارته المفاجئة للمملكة المغربية بسبب وفاة والده، هذه الزيارة التي دامت ثلاثة أيام فقط، قدم فيها التعازي لأشقائه وعائلته، وعقد فيها القران مع مولا، ثم طارا إلى الأرجنتين معا، من دون إقامة أي عرس، بسبب ضغط العمل لديه في أمريكا اللاتينية.

قبل موعد الزفاف، كنت كثير اللقاء بصديقي كمال، ففي البدايات الأولى للتكوين كنت ألتقي به في المقهى كلما انتهيت من حصص التكوين، فعلى الرغم من أن مركز التكوين يوجد بحي المحاميد، إلا أنني كنت كثير التردد على حي الداوديات بسبب الذكريات الجميلة التي قضيتها هناك أيام الدراسة بسلك الإجازة، كما كان كمال أيضا يزورني أحيانا في قبلا جاد، إلى أن طردتني والده هذا الأخير وشقيقته

من القىلا بعدما تم إلقاء القبض على جاد وزوجته بتهمة التهريب الدولى لمخدر الكوكايين، ومن ثم ذهبت إلى الاستقرار مع كمال فى منزله بحى الداوديات، متعاونين معا على تسديد نفقات الكراء. وخلال هذه المدة تحديدا، كان كمال يحكى لى عن تواصله بمولا، ويُسمِعُنِي تسجيلاتها الصوتية التى كانت ترسلها له عبر واتساب، وصورها أيضا بمعىة زوجها ميشان، وكلهما المسمى فىنيسوس فى شواطئ ماز ديل پلاتا.

حان موعد الزفاف، ولزلتُ حائرا بشأن القىلا التى وعدتُ زوجتى أننا سنعيش فيها مؤقتا لمدة عام كامل، حيث لم أستطع إخبارها بهذه الحقيقة المريرة. على أى حال، فقد عاد خالى إيدىر من دولة الإمارات العربية المتحدة، وذهبتُ بمعىة عائلتى بالإضافة إلى صديقى كمال الذى دعوته لحضور زفانى، حيث وصلنا صباح يوم الخميس، يفصلنا يومان عن ميعاد العرس المزمع تنظيمه مساء يوم السبت. وفى اليوم الموالى الذى لحق مجيئنا؛ أى الجمعة، صار منزل السيد صبرى مكتظا عن آخره بالعوائل وأطفالهم الصغار، وبالزغاريد وقرع الطبول، على اعتبار أن الجمعة مساء هو موعد ما يسمى بليلة الحناء، حيث ارتدت زوجتى قفطانا مغربيا أصيلا؛ أبيضاً ومطرزا باللون الأخضر، وحضرت النقاشة التى زينت يدي لمياء ورجليها بفسيفساء من الحناء الممتازة لقرية إفرط التابعة لجماعة تغبالت،

وسط مجمع نسائي صرف يسوده الرقص على إيقاعات الموسيقى الشعبية المغربية الأصيلة.

انطلق حفل الزفاف في التاسعة مساء من يوم السبت، غصبا عن كريم؛ شقيق حميد الذي حاول جاهدا وبذل كل ما في وسعه لتوقيف هذا العرس ومنع إقامته بسبب اختفاء ابنته ندى التي لم يتم العثور عليها إلى يومنا هذا رغم البحث المتواصل عنها من قبل أفراد الشرطة، ووسائل الإعلام، وهيئات المجتمع المدني، مُعبرا عن غضبه، ومعتبرا أن من الواجب على العائلة الكبيرة والصغيرة جميعهم أن يحزنوا إثر اختفاء ابنته ندى، لا أن يقيموا الأفراح ويرقصوا على جراحه. ولهذا لم يحضر لا هو، ولا زوجته النصرانية مارسيلا إلى هذا الزفاف، واستمرّا في حزنهما، على الرغم من أن شقيقه حميد حاول مواساتهما وتهدئتهما، يحذوه الأمل في العثور على ابنة أخيه التي فطرت قلوب كل من يعرفها من قريب أو بعيد، داعيا إياهما إلى التحلي بالإيمان، وأن يحضرا إلى هذا العرس البهيج، ويفرحا خلال هذه الليلة التي لن تتكرر، باعتبارها وسيلة للسرور، وترياقا ضد هذا الحزن المؤقت الذي أصاب العائلة ككل، على حد قوله. لقد ألحّ عليهما كثيرا بأن يحضرا بمعية صغيريتهما ماكرينا وسيرخيو، بحسبانهم من أفراد العائلة، فضلا عن أنهم جيرانه،

وأخيراً هدأ كريم ذو القلب المفجوع، واستجاب لدعوة شقيقه في تلك الليلة، بعدما وافقت زوجته الكولومبية مارسيلاً على الحضور.

جلستُ أنا وزوجتي بقفطانها المغربي ذو اللون الذهبي في منصة العروستين، نشاهد المدعويين وهم يرقصون على إيقاعات الأغاني المغربية الجميلة؛ الشعبية والأمازيغية والعصرية، كانت تسرني كثيراً رؤية أمي أريناس البالغة من العمر واحداً وأربعين سنة مزينة بمكياج الأعراس، تبدو مثل شابة عشرينية، ولا بسة زيا أمازيغيا في غاية الروعة. كنت أشاهدها وهي ترقص رقصات جميلة، تهز كتفها على إيقاعات الموسيقى الأمازيغية السوسية، ومن حولها أشقائي الذين لا يتوانون عن الرقص أيضاً، ويبدون في غاية الجمال، تطبعهم البهجة وهم يلوحون لي بأيديهم. كنت ماسكا بيد زوجتي، مشبكا أصابعي بأناملها الرقيقة، وعلى شفاهنا ترتسم ابتسامة دافئة في ليلة العمر تلك، والمدعون منهم من يرقص، ومنهم العجائز الذين يجلسون على الكراسي جلوساً رزيناً، ومنهم من يلتقط برفقتنا صوراً تذكارية، وآخرون ينظرون إلينا من بعيد نظرة تنم عن غيرة وحسد. وفي تلك اللحظة بالذات اقتحم عدد من عناصر الشرطة قاعة الزفاف، فتوقف الفرع من توه، وتوجهوا إليّ مباشرة ملقين عليّ القبض وأنا ماسك بيد زوجتي. اندفعت عليهم أمي هائجة لتبعدهم عني بينما كانوا يقيدونني بالأصفاد المعدنية، فعضت عميد الشرطة وهي تصرخ

غارزة أنيابها في كرسوع يده. -افلتوا ابني، أفلتوه، هو لم يفعل شيئاً، إنكم مخطئون في العنوان. وبينما كانوا يسجلونني إلى الخارج، كانت أمي تجرني من قميصي لتفلتني من قبضتهم، إلى أن دفعها الشرطي وسقطت، كما كان إخوتي يمسكونني من رجلي، ويجرونني في مشهد مثير للشفقة، فيما الجميع يشاهدون من دون أن يحركوا ساكناً، ويشمل ذلك عائلي المكونة من خالي إيدير، وزوجته، وجدتي عكو. أما كمال فرأيته ينسل من بين الجمهور الحاضر كأنسلال الشعرة من العجين، منحني الرأس والكتفين بقامته الطويلة، يزيح الأطفال عن طريقه حتى خرج من القاعة فاراً، بينما تجمدت لمياء ووالديها في أماكنهم من هول الصدمة. وحينما أخفق رجال الشرطة في ثني عزم أمي التي لا تني تجرني من قميص الزفاف الذي بات ممزقا، وقف أخيراً عميد الشرطة وجهاً لوجه أمام أمي، وصرح بالقول التالي: "ابنك يا سيدتي، المدعو أنير أزناگ، متهم بجريمتي قتل؛ الأولى قتله للشرطي رمزي خليف مع سرقة مسدسه الوظيفي، والثانية قتله للتلميذة ندى صبري رميا بالرصاص ورميها في شاطئ مدينة سلاً." وما إن أنهى كلامه، حتى سقطت أمي وتوفيت عند قدمي بسكتة قلبية أمام أنظار إخوتي الصغار، فتناسى الجميع ومنهم زوجتي ميتتها، واندفعوا إليّ هاجمين يضربونني بكل ما وجدوه أمامهم، يدوسون على جثة أمي؛ على بطنها ووجهها، غير واعين بذلك من شدة الغضب،

بينما تحاول جدتي العجوز عكو باروخ وخالي إيدير إبعادهم عن جثة أمي وجرها بعيدا عن ذلك الجمع الغفير من المدعوين. لقد حاولت الشرطة حمايتي منهم بصعوبة بالغة، ثم أدخلوني إلى سيارة الشرطة وأنا مضرج بالدماء.

-30-

خاتمة.

مضت سنة واحدة على دخولي السجن، لقد كان الحكم عليّ بالمؤبد حكما قاسيا جدا، حيث سأقضي بقية عمري في هذه الزنزانة التي أكتب إليك منها الآن قارئ العزيز، وهي الزنزانة رقم 7 من جناح العزلة في سجن عكاشة. لكن موت أمي أمام ناظريّ، وعيش إخوتي الصغار أيتاما من دون أم ولا أب لهو شيء أكثر قسوة من الجحيم نفسه، خاصة أنني وعدتهم كما وعدت أمي بأنني سأعتني بهم جميعا، فكيف سأعتني بهم الآن وأنا حبيس أربعة جدران ومحكوم بالسجن المؤبد؟ يا إلهي!

يتبادر إلى ذهني كل يوم سؤال محير للغاية، وهو بيم ستجيب طليقتي لمياء ابنا الذي خرج إلى حيز الوجود؟ هل ستعترف له بعد أن يكبر قليلا أنّ أباه الحقيقي مجرم محكوم بالسجن المؤبد؟ أم ستكذب عليه وتخبره أنّ أباه هو كمال الذي صار الآن زوجها بعد أن دخلت السجن، وهو الذي كان صديقا محببا إلى قلبي، وأنا الذي ساعدته

طيلة شهر كامل فى مدينة مراكش للاستعداد لمباراة التعليم حتى صار الآن أستاذاً للفلسفة. أنا لن ألومه أبداً، ولن أحسده على شيء معرض للزوال، فهذه طبيعة العالم بأكمله، ويتحتم عليّ تقبلها بكل روح رياضية، العالم يا قارئ العزيز مليء بالأحزان، والنكبات، ولا وجود لسعادة فيه إلا ما كان عابراً فقط، لقد أدركتُ الآن ذلك جيداً، وهي أيضاً طبيعة البشر المتقلبين؛ فدائماً ما تكون البدايات جميلة، غير إنها لا تدوم أبداً، لأن الإنسان كائن يمل باستمرار، حتى من الأشياء الجميلة. لذا لن ألوم صديقي كمال أبداً، خاصة أن لمياء فتاة فى غاية الجمال، وكل من يراها يُعجب بها، وقد رآها هو فى حفل زفاني الذي لم يكتمل فأعجب بها. أتساءل أيضاً كيف كان شعور إخوتي الصغار بعدما انقطعت فرحتهم وهم يرقصون حول أمي؟ كيف كان شعورهم وهو يقلّبون جثة أمهم؟ كيف كان شعورهم بعدما عرفوا أن أخاهم الأكبر مجرم قاتل؟ يا إلهي كم هذا فظيع!

شيئان الآن لا يزالان يجمعاني بطليقتي لمياء: ابني يمين، وكتب الفلاسفة التي أودعتها عندها. وها أنا الآن أُحرّم من ابني وكتبي، آه، لا شيء يدوم! لا شيء ثابت على حاله، كل شيء فى تغير وتحوّل، وجريان دائم. على أية حال، ها هي ذي السنة الأولى من السجن قد مرت سريعاً، وسبب هذه السرعة هو أنني قضيتُ هذه السنة فى كتابة هذه الرواية التي أنا الآن بصدد ختمها، على الرغم من أنني كتبتها

بشكل بطيء للغاية، إذ كنت أكتب بعد أن ينام جميع السجناء. وهي رواية كتبها بالدارجة المغربية، دونت فيها تلك الأحداث التي عشتها مع تلك المراهقة المسماة لمياء، والتي كانت جارتى أيام دراسة الماستر بكازابلانكا، ولهذا آثرتُ أن أعنون هذه الرواية بـ جارتى المراهقة. وسأرقم كل هذه الأوراق المجمعة والمبعثرة التي دونت فيها أحداث الرواية، وأرتبها بعناية لأرسلها بواسطة صديقى الطيب إلياس، الذي عاش معى مدة سنة كاملة فى هذه الزنزانة، وهو الحبيب السابق لجارتى المراهقة، العائد من العراق بعد تفكيك المنظمة الإرهابية التى كان ينتمى إليها، والذي سُجن فى المغرب بتهمة الانتماء إلى منظمة إرهابية، وها هو ذا الآن سيودع السجن بفضل عفو ملكى بعدما أعلن انفصاله عن الإرهاب، وعن كل فكر ظلامى. سأرسل من خلاله مسودة هذه الرواية إلى كاتب صاعد ينحدر من مدينة الشَّمَاعِيَّة لينشرها بلسان عربى كما طلب صديقى إلياس نفسه، حتى تكون فى متناول بعض أصدقائه العراقيين والسوريين الذين خرجوا أيضا مؤخرا من ظلام الإرهاب وعانقوا نور التحرر، أما أنا فسأظل سجيننا إلى الأبد، سجين هذه الجدران، وسجين ماضى الأليم، إنى أفضل أن أظل مجهولا إلى الأبد.

انتهت.

وُلد عبد الوافي الفضي في ١٥ أيار/مايو ١٩٩٥ بمدينة الشَّعَائِيَّة الواقعة على بُعْدِ ثمانين كيلومترا شمال مدينة مُراكش المغربية. حصل سنة ٢٠١٨ على شهادة الإجازة في الفلسفة من جامعة القاضي عياض بِمراكش، ثم نال شهادة الماستر في الفلسفة والمجتمع من جامعة الحسن الثاني بالدار



البيضاء عام ٢٠٢٠. يعمل عبد الوافي الفضي أستاذا للفلسفة بالثانوي التَّاهيلي، ويعيش بمدينة تمارة. من أعماله: رواية جرتي المراهقة، ودراستين أكاديميتين؛ الأولى بعنوان: نظرية الحب عند ابن حزم من خلال كتابه طوق الحمامة، من إشراف الدكتور مصطفى لعريصة، والثانية بعنوان: نقد ابن حزم للعقيدة المسيحية، من إشراف الدكتور نبيل فازيو.



ناشرون وموزعون

دار زهدي للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - الجامعة الأردنية - شارع الملكة رانيا العبد الله

خلوي: 00962795555279

00962788771930

Email: dar.zuhdiforpublishing@hotmail.com

